

مصر فى كتابات الرحالة البريطان
فى القرن التاسع عشر
مدونة ابو عبدو
أ.د. إلهام محمد على ذهنى
أستاذ التاريخ الحديث
بكلية الدراسات الإنسانية
جامعة الأزهر
الناشر
مكتبة زهراء الشرق
١١٦ شارع محمد فريد

مصر فى كتابات الرحالة البريطانيين
فى القرن التاسع عشر

أ.د. إلهام محمد على ذهنى

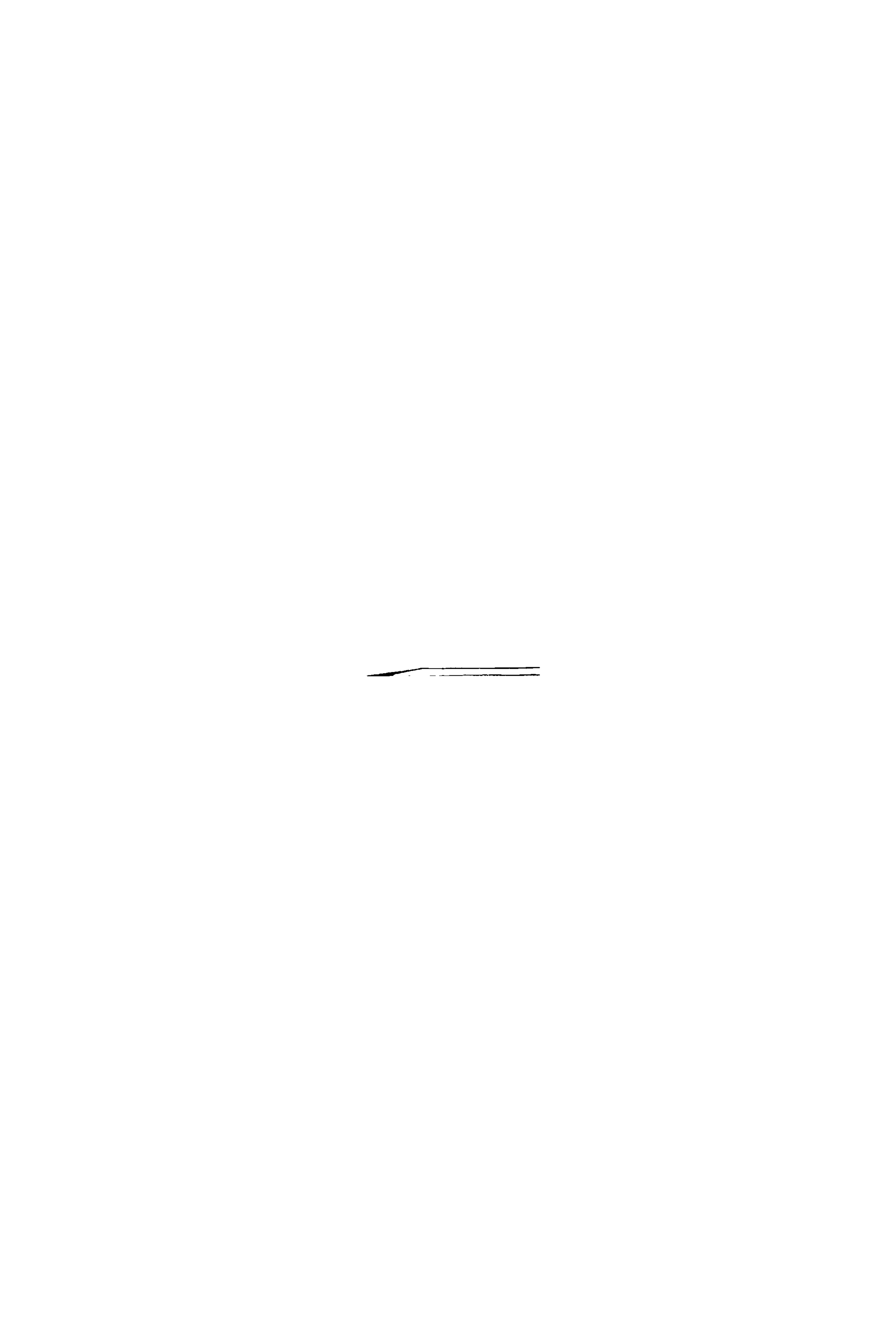
أستاذ التاريخ الحديث
بكلية الدراسات الإنسانية
جامعة الأزهر

الناشـــر
مكتبة زهراء الشرق
١١٦ ش محمد فريد ـ القاهرة
تليفون ٣٩٢٩١٩٢

اسم الكتاب	مصر فى كتابات الرحالة البريطانيين فى القرن التاسع عشر
اسم المؤلف	أ. د. / إلهام محمد على ذهنى
رقم الطبعة	الأولى
رقم الإيداع	٥٧٤٦
الترقيم الدولى	I. S. B. N
	477 - 314 - 203 - 5
سنة النشر	٢٠٠٣م ـ ١٤٢٣هـ
الناشر	مكتبة زهراء الشرق
عنوان الناشر	١١٦ ش محمد فريد ـ القاهرة
بلد الناشر	القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
التليفون	٣٩٢٩١٩٢ ـ ٠١٢/٣١٧٧٥١٠
فاكس	٣٩٢٩١٩٢ ـ ٣٩٣٣٩٠٩



إهداء من مكتبة
الباحث
محمد عثمان ...
عفى الله عنه وعن والديه
بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمة

يسعدنى أن أقدم للقارئ هذه الدراسة والتى تعتبر الدراسة الرابعة لكتابات الرحالة الأوربيين عن مصر . وقد جاءت الأولى بعنوان « مصر فى كتابات الرحالة الفرنسيين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر » ونشرت الثانية بعنوان « مصر فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين فى القرن الثامن عشر » أما الثالثة فعنوانها « مصر فى كتابات الرحالة الفرنسيين فى القرن التاسع عشر » وقد صدرت الدراستان الأولى والثالثة عن مصر النهضة ، أما الدراسة الثانية فكانت من نصيب تاريخ المصريين .

وقد اعتقدت بأننى اكتفيت بما دونه الفرنسيون عن مصر ، وذلك لكثرة أعدادهم ، ولدقة ما سجلوه ، ولضخامة الأعمال التى خلفوها ، ثم رأيت أن مؤلفات الرحالة البريطانيين ، فى القرن التاسع عشر تستحق الدراسة ، ولا سيما وإنها اتسمت بالدقة والتنوع ، فمنها ما يصور الحياة اليومية المعاصرة ، ومنها ما يتعلق بالآثار المصرية القديمة ، والآثار الإسلامية إلى جانب الدراسات الخاصة بالمجتمع المصرى ، كذلك ينبغى ألا نغفل أن هؤلاء الرحالة اختلفوا عمن سبقوهم فى القرن الثامن عشر والذين يمكن أن نطلق عليهم الرحالة العابرون لأنهم كانوا إما تابعين لشركة الهند الشرقية ، أو تجاراً أضف إلى ذلك مجموعات الشباب التى كانت تزور مصر والشرق فيما عرف بالجولة الكبرى بصحبة أحد رجال الدين وكذلك كان معظم هؤلاء الرحالة من الطبقة الارستقراطية البريطانية ، بينما جذبت مصر اهتمام أبناء الطبقة المتوسطة فى القرن التاسع عشر فشهدت قدوم المكتشفين ، والأثريين ، والمستشرقين، والسياسيين نذكر منهم بيرتون ، وجاردنر ، أدوارد وليم ، وبورغ وغيرهم .

كما شهدت مصر ظاهرة مجئ العديد من الرحالة البريطانيات اللاتى أتيح لهن دخول الحريم نذكر منهن صوفيا لين التى سجلت كل ما يتعلق بهذا العالم السحرى الغريب بالنسبة للقارئ الأوروبى .

بينما كرست أميليا أدواردز جهدها لدراسة الآثار المصرية فعكفت على جمع الأموال اللازمة لتمويل الكشف الأثرى فى مصر ، أما لوسى داف جوردون فقد

حرصت فى مؤلفها على تسجيل إعجابها بسياسة التسامح الدينى فى مصر والتى شملت فئات المجتمع بأسره .

هذا وينبغى ألا نغفل أن الرحالة البريطانيين الذين وفدوا على مصر خلال القرن التاسع عشر جاءوا فى سياق عمليات التحديث التى شهدتها البلاد فى عهد أسرة محمد على وساعدهم على ذلك قوة العلاقات المصرية البريطانية .

ولا جدال أن أحوال بريطانيا الداخلية ساهمت أيضاً فى تشجيع هؤلاء الرحالة، ولا سيما وأن بلادهم كانت تعيش أزهى عصورها فيما عرف بالعصر الفيكتورى الذى استمر فترة طويلة ، انتعش فيه الأدب ، والشعر ، والدراسات الاجتماعية ، وعلم الانثروبولوجى ، كما تعددت فيه المشاريع الاستعمارية البريطانية فشجع الساسة عمليات الكشف الجغرافى ، والبعثات الدينية ، ودعا المفكرون لنشر الحضارة البريطانية المتفوقة للإبقاء على الميزان متساويا مع غريمتهم فرنسا حتى يستقيم الميزان فى أوروبا .

وأخيراً رغم تعدد مؤلفات الرحالة البريطانيين إلا أنه ينبغى علينا أن نعترف بأن أدوارد وليم لين كان له التفوق والشهرة والريادة . ولا سيما وأنه وضع العديد من المؤلفات عن مصر نذكر منها مخطوطه « وصف مصر » وملاحظاته فيه عن مصر والنوبة خلال أعوام ١٨٢٥ ـ ١٨٢٦ ـ ١٨٢٧ ـ ١٨٢٨ وكان يأمل أن يقوم القنصل البريطانى موراى وابنه جون بنشره إلا أن الأخير فضل نشر مؤلفات بوركهاردت وبلزونى وغيرهم ممن كتبوا عن مصر ، وظل مخطوط لين على الرفوف فى الأرشيف حتى تولى جيسون تومسون أستاذ التاريخ بالجامعة الأمريكية بالقاهرة نشره . وقد حرص لين فيه على تسجيل آثار وجغرافية مصر من الإسكندرية وحتى الشلال الثانى كما سجل ما أورده هيرودوت وديودور الصقلى . ونقل قوائم مانيتون عن الأسرات الحاكمة ، وأشار لما دونه المقريزى عن مصر وأفاد من اكتشافات شامبليون وحرص على ذكرها .

وإذا كان مخطوط لين لم ير النور إلا قريبًا فإن مؤلفات لين الأخرى

عرفت طريقها للنشر وأحدثت ضجة كبيرة فى بريطانيا وأوروبا نذكر منها مؤلفه عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم نشر فى عام ١٨٣٦ ومختارات من القرآن ١٨٤٣ ، ألف ليلة وليلة ١٨٣٢ ـ ١٨٤١ ثم المعجم العربى الإنجليزى ١٨٦٣ ـ ١٨٩٣ .

وختامًا لقد التزمت فى هذه الدراسة بما اهتم الرحالة برصده وتدوينه لا بما يجب أن يسجل .

الفصل الأول
المصالح البريطانية فى مصر
في القرن ١٩

- بعثة محمد بك الألفى إلى لندن
- تزايد الاهتمام البريطانى بمصر فى عهد محمد على
- الأطماع البريطانية ١٨٤٨ ـ ١٨٧٩

بعثة محمد بك الألفى إلى لندن :

استغلت بريطانيا الوضع المضطرب فى مصر بعد خروج الحملة الفرنسية ، فحاولت استبقاء قواتها العسكرية على ضفاف النيل أطول فترة ممكنة ، كما عملت على توثيق علاقتها مع الزعامات المحلية ولا سيما المماليك ، يتضح لنا ذلك من بعثة محمد بك الألفى إلى لندن ، والتى استمرت من أوائل أكتوبر إلى نهاية ديسمبر ١٨٠٣م.

بدأت الفكرة عندما أرسل الألفى رسالة إلى الجنرال ستيورات القائد البريطانى فى مصر ، يخبره فيها بأن المماليك قرروا إرساله كممثل عنهم إلى لندن وذلك لتوطيد العلاقات مع المسئولين البريطانيين . ولا سيما وأنهم أرهقوا من جراء الاشتباكات المتتالية مع القوات العثمانية ، وحرص الألفى فى رسالته على إرضاء ستيورات وبعث الطمأنينة فى نفسه فأكد على كراهية المماليك للفرنسيين[١] .

لقيت الفكرة قبولا لدى ستيورات فقد أدرك أن بريطانيا تستطيع أن تدخر المماليك لتحقيق أطماعها فى وادى النيل فى المستقبل وأن تتخذ منهم أداة لبسط نفوذهم فى البلاد فشجع الألفى على تلك الخطوة[٢] .

بدأت القوات البريطانية تستعد للرحيل عن مصر ، وذلك حسب اتفاق أميان ١٨٠٢ والذى نص على ضرورة جلاء القوات البريطانية وقام الجنرال ستيورات بتسليم قلاع الاسكندرية وأبراجها إلى خورشيد باشا وأقلعت السفن البريطانية فى ١٦ مارس ١٨٠٣ وخلال هذه الفترة حرص الألفى على الاستعداد للسفر إلى لندن فوصل إلى الإسكندرية ومعه حاشيته ، وأبحروا جميعًا على ظهر أحد السفن متتبعين أثر الأسطول البريطانى . هذا وقد اهتم الجبرتى بتسجيل سفر بعثة الألفى فكتب « فى يوم الأربعاء ٢٢ ذى القعدة ١٢١٧هـ تحقق الخبر بنزول طائفة الإنجليز وسفرهم من ثغر الإسكندرية فى يوم السبت حادى عشر ونزل بصحبتهم محمد بك الألفى وصحبته جماعة من أتباعه وقد سافر الألفى وأخذ معه أموالا طائلة مما نهبه من الوجه القبلى مدة إمارته»[٣] .

وصل الأسطول البريطانى إلى مالطة ، وظل الألفى ينتظر اتصال المسئولين به بينما تتبعت الصحافة البريطانية أخباره فنشرت صحيفة التايمز فى أكتوبر ١٨٠٣ بأن الألفى يشعر بالضيق فى مالطة لعدم اتصال المسئولين به إلا أن هذا الأمر لم يطل فقد قام الكسندر بول Alexandre Ball حاكم الجزيرة بالاتصال به وأكد للمسئولين أهمية استخدامه لصالح السياسة البريطانية وسافر الألفى إلى بريطانيا فوصل ميناء بورتسموث حيث أطلقت المدافع للترحيب به ، ومنها اتجه إلى العاصمة البريطانية بصحبة اللورد بلانتير Blantyre وذلك فى يوم الجمعة ٧ أكتوبر فنزل ضيفًا على السيد لورنس بارسونز Lawrance Parsons[٤].

اعترضت الدولة العثمانية على وصول الألفى إلى لندن ومعاملته معاملة السفراء ، فأنكر المسئولون فى الحكومة البريطانية معرفتهم بسفر الألفى مؤكدين بأنهم لم يعلموا شيئًا عن رحلته ورغم هذا الاعتراض إلا أن الألفى أصبح بمجرد وصوله إلى لندن محورا أساسيًا للحديث فى العاصمة وفى الصحافة ، فقد جذب الانتباه بمظهره كأمير شرقى وملابسه الفخمة وحريمه وحاشيته وجواريه ، على حد وصف الصحافة البريطانية وقد وجد هذا الاستقبال الحافل قبولاً لدى الألفى وأرضى غروره، فكان يخرج من شرفة منزل اللورد بلانتير ، ويقوم بتحية الجموع الغفيرة من البريطانيين المحتشدين فى حديقة هايد بارك . كما قام بالعديد من الزيارات للمسئولين البريطانيين ولا سيما اللورد هاتشنسون Hutchinson الذى أطلقت عليه الصحافة البريطانية «قاهر مينو» .

هذا إلى جانب اتصاله بالعديد من الشخصيات البارزة ولا سيما النبلاء وصفوة[٥] المجتمع اللندلى وتحمست الصحافة البريطانية لهذه الزيارة ودعت إلى ضرورة التعاون مع المماليك فنشرت المورنج بوست فى ٣ نوفمبر مقالاً ذكرت فيه «لا بد من استعادة انجلترا لمكانتها فى مصر» وانتقدت عدم اتخاذ الإجراءات اللازمة للتنسيق والتعاون مع الألفى وفى الحقيقة إن الصحف البريطانية لم تكتف بالحديث عن السياسة وإنما تطرقت لموضوعات أخرى طريفة فتم نشر العديد من المقالات لتسلية المجتمع اللندنى عن هذا الأمير الشرقى القادم من مصر وعن جواريه وحريمه

ولا سيما وإنه اصطحب معه بعض العوالم والمغنيات ، أما الألفى نفسه فقد انشغل بزيارة معالم لندن فزار برج لندن وغيره من المعالم وواصل لقاءاته مع كبار الشخصيات ولا سيما رئيس شركة الهند الشرقية البريطانية ، وأصبح الألفى نجماً من نجوم المجتمع اللندنى فنشرت له المورنج بوست فى ١٧ نوفمبر ١٨٠٣ حديثًا أبدى فيه إعجابه بالعاصمة البريطانية هذا وقد تمادى الألفى فى دلاله على الحكومة البريطانية فطلب تجهيز عربة ذات طراز شرقى ليستخدمها فى التنقل متناسيًا الغرض الرئيسى من رحلته . ثم تحقق حلم الألفى بمقابلة ملك بريطانيا جورج الثالث وولى عهده وعدد من النبلاء فى قصر وندسور حيث أعلن الألفى الولاء لبريطانيا ، مع احترامه للباب العالى[٦] .

رغم الهالة التى أحاطت ببعثة الألفى إلا أنها لم تسفر عن نتائج حاسمة لأن بريطانيا كانت تسعى خلال هذه الفترة لكسب ثقة الدولة العثمانية ، لتحول بينها وبين صداقة فرنسا ، فلم تشأ أن تغضبها بإعلان حمايتها على المماليك . واكتفت الخارجية البريطانية بإرسال رسالة إلى الألفى ، وعدته فيها بالوساطة بينه وبين الباب العالى لحماية مصالحه ومصالح البكوات وعاد الألفى إلى مصر تقله سفينة حربية بريطانية فوصل إلى أبى قير فى ١٢ فبراير ١٨٠٤ ولم يقدر له أن يهنأ بحكم مصر ، فقد حاول خصمه عثمان بك البرديسى قتله ففر إلى الصعيد ورغم أن القنصل البريطانى ميست Misset وطد علاقته بالألفى إلا أن هذا لم يمنعه من تلبية دعوة البرديسى عندما اتصل به فوعده بتأييد حكومته له ولم يدرك ميست أن الأمور قد تطورت بعد الضربة التى حلت بالمماليك فى مصر نتيجة اشتباكهم مع قوات الحملة الفرنسية ، كما أن الباب العالى أصبح يفضل عودة سلطته المباشرة إلى مصر دون اشتراك المماليك فيها ولا سيما وإنه قد اتخذت الإجراءات فى الاستانة نفسها لتطوير وتحديث القوات العثمانية على النظم الحديثة الغربية[٧] . وهكذا استطاعت بريطانيا أن تتخذ من زعماء المماليك على اختلاف أهوائهم صنائع لها ، لكى تضمن نجاح سياستها الاستعمارية على أيد أى منهم ، ولم يحبط هذه السياسة إلا نجاح محمد على فى تولى الحكم[٨] .

تزايد الاهتمام البريطاني بمصر في عهد محمد على :

اصطدم ميست ، القنصل البريطاني فى مصر بمحمد على منذ البداية فقد نظر إليه على أنه من أنصار فرنسا ، ولذلك امتلأت تقاريره بالشك فى نواياه ، والانتقاد الشديد له ، وكان من أنصار حرمان محمد على من السلطة فى المناطق الساحلية ولا سيما الإسكندرية ورشيد ، ودمياط ، وبقاء هذه المناطق تحت سلطنة الباب العالى مباشرة ، تمهيداً لاحتلال بريطانيا للسواحل المصرية ، وظل ميست محافظاً على اتصالاته بقوات الألفى فى محاولة منه للاتفاق مع الباب العالى للعفو عن المماليك وإعادتهم للسلطة ، فأخذ يشرف بنفسه على امداد الألفى بالأسلحة وبعدد من المالطيين ، وفشلت جميع محاولات محمد على لاستمالة ميست إذ استمر فى عدائه له حتى مجئ حملة فريزر[٩] وبمجئ القنصل الفرنسى دروفتى Drovetti إلى مصر تزايدت الصلات بين محمد على والفرنسيين ، لأنه اتبع سياسة أكثر إيجابية تجاه والى مصر وقد عبر عن ذلك بقوله « إنه الضمان الوحيد لفرنسا ضد الأطماع البريطانية » فخالف بذلك سياسة سلفه ماتيو دى ليسبس De Lespes الذى لم يحاول التقرب من محمد على ولم يرحب باتصالاته معه[١٠] وازدادت العلاقات توثقاً بين محمد على وفرنسا فى الوقت الذى رفض ميست جهود محمد على للتقرب منه ، ورغم ذلك الجفاء أحسن والى مصر استقبال بعثة اللورد فلانشيا عام ١٨٠٦ أثناء رحلته إلى سواحل البحر الأحمر للبحث عن محطة للقوات البريطانية فى الطريق إلى الهند معرباً عن حسن نواياه تجاه بريطانيا ورغم ذلك واصل ميست هجومه عليه وظل يراسل حكومته مطالباً إياها بضرورة مساندة الألفى بك لدى الساسة فى استانبول ودعم موقفه وضرورة إنشاء مجموعة موالية للبريطانيين فى مصر مثل الألفى بك ، كما حاول ميست استمالة الشيخ محمد المسيرى لما كان له من مكانة وهيبة فى مصر ، كذلك اتصل بغيره من العلماء ولا سيما الشوربجى قاضى الاسكندرية[١١] . ثم تزايدت شكوك ميست فى محمد على بمجئ على بك العباسى[١٢] إلى مصر ، الذى اتجه إلى الحجاز ، ولم يمكث إلا فترة بسيطة ، وكان هدف رحلته الرئيسى هو الاتصال بمسلمى الشرق ، ولذلك ادعى أنه من سلالة

العباسيين وانتحل اسمًا عربيًا كما ادعى بأنه مكلف من قبل نابليون ليجمع المعلومات عن الحجاز وسواحل البحر الأحمر واعتقد ميست بمعرفة محمد على بحقيقة بعثة على العباسى[١٣].

وما لبثت العلاقات أن توترت بين بريطانيا ومحمد على ولا سيما بعد حملة فريزر على رشيد عام ١٨٠٧ ، فقد أرادت بريطانيا تثبيت نفوذها فى مصر ، وقدمت عدة مقترحات للسلطان العثمانى بإنشاء قوة عسكرية فى مصر للمحافظة عليها ، والدفاع عنها ، وكان الهدف الحقيقى هو إقامة قاعدة بريطانية فى البحر المتوسط ، ولا سيما بعد أن تضاعفت أهمية ميناء الأسكندرية وقت الحملة الفرنسية وضغط الساسة البريطانيون فى الاستانة على الدولة العثمانية لإرسال قوات عسكرية إلى مصر[١٤].

ارتكبت حملة فريزر عدة أخطاء من حيث جمع المعلومات وتشكيل الحملة نفسها وإعدادها ، وعدم تحديد خطة العمليات بشكل واضح هذه إلى جانب كونها حملة ثانوية ملحقة بغيرها من العمليات واستوعبت بريطانيا الدرس وهو أن المماليك عاجزون عن حكم مصر وأن القوة الحقيقية أصبحت فى يد محمد على ولا سيما بعد ضمه للإسكندرية فخلص له « الإقليم المصرى » على حد قول الجبرتى[١٥] وسرعان ما تحسنت العلاقات بين الطرفين وسعى محمد على لإرضاء التجار البريطانيين ، وأصبح تبادل المصالح التجارية أساسًا جديدًا لعلاقة الصداقة بين الطرفين وبدأ توافد السفن البريطانية على ميناء الاسكندرية لشراء الحبوب لتموين مالطة القاعدة البريطانية فى البحر المتوسط ، وقد ازداد الإقبال عليها رغم إرتفاع أسعارها ، وأرسل محمد على إلى مالطة الوكلاء لبيع الحبوب للدول الأوروبية الأخرى ولا سيما البرتغال وأسبانيا ، ورغم نمو التجارة بين البلدين إلا أن ميست ظل يحتج على ارتفاع الأسعار والرسوم الجمركية واستئثار الباشا بكل أنواع الاحتكارات ، هذا ولم يقتصر هذا الإنتعاش على ميناء الاسكندرية وإنما شهد ميناء السويس قدوم السفن البريطانية محملة بالسلع الهندية[١٦].

وتدعيما للعلاقات التجارية أرادت بريطانيا عقد معاهدة تجارية مع محمد على فى عام ١٨١٠ لتحديدالضرائب ولضمان حرية مرور البضائع فى الأراضى المصرية ولكن تدهور العلاقات بينها وبين الباب العالى حال دون التصديق عليها(١٧) .

هذا وقد ادت توسعات محمد على إلى تخوف الساسة البريطانيين من طموحاته ولا سيما بعد حملته على الجزيرة العربية ودخول قوات إبراهيم باشا الدرعية عام ١٨١٨ ، فتم إرسال الكابتن سادلير Sadlier للتفاوض مع إبراهيم باشا الذى أكد له بأنه لا يعترف بأية حقوق للحكومة البريطانية فى بلد أخضعه للسيادة العثمانية مما أثار المسئولون البريطانيون فكثفوا اتصالاتهم بالسيد سعيد بن سلطان فى مسقط ، كذلك قوبل النشاط المصرى فى اليمن بالاعتراض من قبل بريطانيا ولا سيما فى الفترة من ١٨١٤ إلى ١٨١٩ وهى فترة مطاردة قوات الدولة السعودية الأولى وإقرار إمام صنعاء عام ١٨٢٠ فى حكمه وإعادتها للتبعية العثمانية وكان محمد على يقظا للتحركات البريطانية فى البحر الأحمر ولذلك طلب من الباب العالى وقفها ولا سيما فى مخا(١٨) وظلت بريطانيا تراقب التحركات المصرية فى الجزيرة العربية وأعرب المسئولون البريطانيون عن تخوفهم منها فذكروا فى عام ١٨٣٧ إن حكومة بلادهم لا تستطيع أن تتجاوز عن أية خطوة يتخذها محمد على لمد سلطانه نحو الخليج الفارسى أو بغداد ، وفى نفس العام كتب اللورد بلمرستون إلى كامبل Campbell القنصل العام البريطانى فى مصر بأن توسعات محمد على لا ينظر إليها بعين الرضا فى بريطانيا أو الهند(١٩) وبسبب تحركات محمد على ظلت بريطانيا تتحين الفرصة لوضع يدها على قاعدة لها فى مدخل البحر الأحمر لتتحكم فيه وجاء ذلك باحتلال عدن عام ١٨٣٩(٢٠) .

تصدت بريطانيا لتوسعات محمد على ومشاريعه فى بلاد الشام ، فأخذت تكيد له لدى السلطان العثمانى ، وأرسل اللورد بونسونبى السفير البريطانى فى الاستانة ريتشارد وود المترجم فى سفارة لبنان لإثارة الأهالى على الحكم المصرى ، وسجل ميخائيل مشاقة(٢١) ما عملته الدسائس الإنجليزية فى سورية عام ١٨٣٩ فأكد نزول الجواسيس البريطانيين لإثارة الأهالى وأخذوا يلقون بذور الشقاق فى

قلوب الأهالى ويوغروا صدورهم على الحكومة الحالية ، كما شجعت بريطانيا الدولة العثمانية على محاربة محمد على ، كما دعت لعقد مؤتمر تشترك فيه الدول الأوروبية ولا سيما بعد هزيمة نزيب عام ١٨٣٩ ، أسفر عن توقيع معاهدة لندن بشروطها المجحفة لمحمد على وهددته بضرورة الإنسحاب من بلاد الشام وحاصرت الأساطيل البريطانية بلاد الشام وأسرت السفن المصرية وهدد القائد البريطانى نابير Napier موانى الشام وتم قطع الإمدادات عنها من مصر[٢٢] واستولت الدولة المتحالفة على ثغور الشام ثم جاء الأسطول البريطانى إلى ميناء الاسكندرية فابلغ محمد على القنصل البريطانى موراى Muray بأنه لا يخشى تهديد الإنجليز له وقال عبارته الشهيرة « أننا على استعداد لملاقاتهم وأن الأجنة فى بطون أمهاتهم ستشترك فى القتال » فهدده نابير بإحراق الاسكندرية[٢٣] وانتهت هذه الأزمة بانسحاب القوات المصرية من بلاد الشام وصدور فرمان التولية لمحمد على وتحديد وضع مصر القانونى والدولى خلال ١٨٤٠/١٨٤١ وكان هدف بريطانيا الرئيسى هو تدمير الأمبراطورية المصرية وما تضمنته من أخطار على المواصلات البريطانية صوب الهند[٢٤] وهو هدف ظلت بريطانيا تعمل له طوال القرن التاسع عشر وتناسقت الأدوار البريطانية فالسفير البريطانى بونسونبى يدس لمحمد على فى الأستانة ، بينما وزير الخارجية اللورد بلمرستون Palmerston يواصل هجومه عليه لتقليم أظافره فى البلاد ، ولا ننسى أن بريطانيا حرضت الدول الأوروبية الأخرى لاتخاذ مواقف عدائية تجاه والى مصر ولا سيما روسيا والنمسا ، بروسيا[٢٥] .

لم تكتف بريطانيا بتوجيه الضربات السياسية لمحمد على وإنما وجهت إليه ضربة اقتصادية كبيرة ألا وهى معاهدة بلطة ليمان عام ١٨٣٨ التى وقعتها مع الدولة العثمانية ، وتم فيها الاتفاق على إلغاء الاحتكارات ، تم تحديد الرسوم الجمركية على الصادرات ١٢ ٪ ورسوم الواردات ٥ ٪ من قيمة البضائع ورغم قوة العلاقات بين مصر وفرنسا إلا أن الأخيرة سعت بدورها لتوقيع معاهدة مماثلة فى نفس العام وقعها البارون روسان Roussin مع محمد نورى افندى ، وكان الغرض منها تسهيل التبادل والحفاظ على الإمتيازات الفرنسية[٢٦] .

حققت الدول الأوروبية هدفها وهو إيجاد أسواق لتصريف منتجاتها وكذلك مصادر لإمدادها بالمواد الخام وكان محمد على يقف حجر عثرة لهذا الهدف ، لأنه أوجد نظاماً اقتصادياً فى مصر أمتد أثره إلى دول شرق البحر المتوسط حيث أصبحت مصر نتيجة لهذا النظام فى غنى عن واردات الأقمشة من أوروبا ومن انجلترا بصفة خاصة ، وصدرت مصر أقمشتها إلى دول شرق البحر المتوسط والشام والجزيرة العربية والعراق وفارس والأناضول طاردة بذلك المنتجات البريطانية من هذه الأسواق(٢٧) .

وعلى الرغم من عقد معاهدة بلطة ليمان إلا أن محمد على لم يخضع لبنودها . واستمر فى تنفيذ سياسته الاقتصادية ، ومن هذا كان الصدام بينه وبين المصالح التى كانت تسود السوق العالمية ، فقد أيقن بأنها ضربة اقتصادية نظراً لأن نظام الاحتكار اعتادت عليه البلاد فترة طويلة ومن الصعب الغاءه دفعة واحدة ، ولكن فى ٢٣ نوفمبر ١٨٤١ وتحت إلحاح بريطانيا الغى احتكار المنتجات والحاصلات الزراعية ما عدا القطن الذى أعلن فى مايو ١٨٤٢ عن حرية تجارية مع بداية المحصول الجديد وهكذا سقط نظام الاحتكار وجاء رأس المال الأجنبى ليوجه اقتصاد مصر(٢٨) وهكذا بسبب ضغط الدول الأوروبية ولا سيما بريطانيا بوزرائها ومسئوليها لم يعد فى وسع محمد على التهرب من تطبيق ما جاء بالمعاهدة ولا سيما وإن بارنت القنصل البريطانى فى مصر أخذ فى مراقبة الموقف ، وضغط على محمد على لفتح المناطق الداخلية أمام التجار الأجانب كما حرض قنصلى روسيا وفرنسا للاحتجاج لدى محمد علي على ضرورة تنفيذ المعاهدة(٢٩) .

حرصت بريطانيا على تنفيذ بعض المشاريع العمرانية فى مصر لتخدم مصالحها ومواصلاتها مع الهند واستتبع ذلك ضرورة الاهتمام بطريق القاهرة السويس البرى فسمح محمد على للجنة بخار بومباى ببناء سلسلة من الاستراحات على طول الطريق القاهرة ـ السويس وسار فيه خطاً منتظماً من عربات الركوب التى تجرها البغال بين المدينتين وذلك على يد البريطانيين ريتشار هل Hill ، وهنرى رافن Raven لمدة

عشر سنوات[٣٠] كذلك اهتم محمد على بضمان سلامة مرور البريد بالأراضى المصرية واستجاب لرغبة توماس واجهورن Waghorn ووافق على تأسيس الفنادق بين القاهرة والسويس لراحة المسافرين وألف توماس كتاباً بعنوان « نصائح للرحالة بالطريق البرى » ضمنه وصفاً لرشيد والإسكندرية كما نشر الإعلانات فى صحف لندن التى تضمنت فوائد السفر بالطريق البرى ، وسرعان ما حدث تنافس بين شركة واجهورن وشركة هل التى أسست الفنادق بين القاهرة والسويس وظلت المنافسة بين الشركتين حتى اندمجتا باسم شركة هيل وتم إنشاء سبع محطات بين القاهرة والسويس تحت إشراف مستر شبرد لم أنشئ مصلحة خاصة بالطريق البرى تتولى نقل السائحين والبضائع[٣١].

هذا وقد عرض توماس جالواى على محمد على فى عام ١٨٣٤ مشروع مد خط حديدى بين القاهرة والسويس وسافر لشراء القضبان والقاطرة ولكن انشغال محمد على بمشروع القناطر الخيرية حال دون إتمام المشروع فقام بإنشاء خط قصير يربط بين النيل ومحاجر المقطم حتى ينقل به الأحجار اللازمة لإنشاء القناطر . كما قام بإنشاء خط حديدى قصير فى ضواحى الإسكندرية بين المكس ومحاجر الدخيلة وسافر جالواى لاقناع الحكومة البريطانية بتدبير الأموال لإنشاء الخط ولكنها كانت مشغولة بخط الفرات أضف إلى ذلك أن باتريك كامبل القنصل البريطانى فى مصر عارض الفكرة بحجة أن تصبح مصر مركز حركة نقل ثقيلة بين أوروبا والهند[٣٢].

ورغم أن محمد على لم يرفض مشروع الخط الحديدى إلا أنه وافق أن تقوم إحدى الشركات الخاصة بإدارة خط ملاحى نهرى يتكون من عدة صنادل تجرها الخيول على طول ترعة المحمودية ووافق على أن ينشئ توماس وأجهورن خطاً ملاحياً بالمراكب الشراعية بين العطف والقاهرة وتعاون مع شركة شبه الجزيرة والشرق للملاحة البخارية فسمح لها بإنشاء خط ملاحى على طول ترعة المحمودية يتكون من صنادل تجرها رفاسات بخارية كما سمح باستخدام سفينتين بخاريتين فى النيل ١٨٤١ ـ ١٨٤٢ ، ووافقت شركة شبه الجزيرة أن تقوم بتجارة الترانزيت بين

بريطانيا والهند ، وفى عام١٨٤٥ أنشىء محمد على مصلحة المرور ، واضطرت شركة شبه الجزيرة والشرق أن تبيع له سفنها التجارية فى النيل وعددها ثلاث سفن[٣٣] .

أما عن سبب إنشاء مصلحة المرور هو خوف محمد على من التدخل البريطانى فى البلاد ، ولذلك استولى على المواصلات البرية والنيلية التابعة للبريطانيين ووضعها تحت يد الإدارة المصرية[٣٤] .

الأطماع البريطانية ١٨٤٨ ـ ١٨٧٩ :

حرص المسئولون البريطانيون على التقرب من عباس باشا (١٨٤٨ـ١٨٥٤) ولا سيما بعد أن لمسوا كراهيته للفرنسيين ورغبته فى استبعادهم من الإدارات المختلفة، ولذلك بذلوا جهدهم لمساندته لدى الباب العالى وإزالة الخلاف بين الطرفين وقد طالب ستراتفورد كاننج السفير البريطانى فى الاستانة بضرورة دعم وتأييد عباس ، على الرغم من قناعته بأنه من الصعب التحكم فى سلوكه ، أو تحديد علاقته بالسكان فى مصر إلا أنه من المؤكد أنه أظهر الكراهية الشديدة للفرنسيين وهو يريد استئصال نفوذهم الذى استفحل وكان هذا سببا كافيا للوقوف بجانبه[٣٥] كما ألح كاننج على حكومته بالتمسك بعباس فى مصر وضرورة بذل الجهد لإقناع الباب العال بذلك ، ورغم قناعة كاننج بأن عباس له العديد من الأخطاء ، ولكنه من وجهة نظره يكفيه ميزة مراعاة المصالح البريطانية أكثر من أى حاكم فى مصر ، ولذلك فلا بد أن يشعر السلطان العثمانى أن محاولة عزل عباس تعتبر عملا عدائيا ، سوف تعتبره بريطانيا موجها لها[٣٦] .

وعندما شعر المسئولون البريطانيون بتحركات أرتين بك ضد عباس فى الأستانة تخوفوا من أن تستخدمه فرنسا لإعادة نفوذها فى مصر ووصفوه بأنه «أداة للفرنسيين»[٣٧] وكان أرتين بك يدس بالفعل لعباس باشا ويطالب باستبعاده من حكم مصر[٣٨] ولذلك حذر المسئولون البريطانيون عباس من دسائس أرتين بك[٣٩] هذا وقد لخص نوبار بك أسباب الخلاف بين عباس والسلطان العثمانى فى رسالة إلى

السفير البريطانى فى الأستانة فى عدة نقاط منها حرص عباس على زيادة أعداد الجيش بما يتعارض مع فرمان ١٨٤١ بألا يتعدى ١٨ ألف رجل ، وقد دافع نوبار عن وجهة نظر الباشا بأن الجيش المصرى فى حاجة إلى مضاعفة عدده نظراً لوجود بعض الاضطرابات فى الجزيرة العربية وإنه لا بد من تأمين مصر ضد الأخطار الخارجية ولا سيما الحبشة أضف إلى ذلك أن مصر فى حاجة إلى قوة بوليسية على غرار البوليس البريطانى وكان رد كاننج لنوبار بأنه لا بد وأن يحاول عباس إقناع السلطان بحاجته إلى زيادة قواته ، كذلك أن يسمح بسفر أبناء محمد على ممن يرغبون فى التوجه إلى الأستانة(٤٠) .

هذا وقد بذلت الحكومة البريطانية جهداً كبيراً لتنمية تجارتها مع مصر والسودان فى عهد عباس وتم إلغاء احتكارات سنار وأطلقت حرية تجارة الصمغ والسنا وبقية منتجات هذا الإقليم مما أفاد التجار البريطانيون الذين زاد نشاطهم بصورة ملحوظة(٤١) .

ولما وجد عباس أن اليونانيين هم المشترون الرئيسيون لمحاصيل المناطق الداخلية فى مصر فقد قرر طردهم جميعًا من البلاد فتم منح معظمهم الحماية الأجنبية وأصدر السفير البريطانى فى الأستانة منشوراً دورياً طالب فيه بالسماح للرعاية اليونانيين العاملين فى البيوت التجارية البريطانية أو فى خدمة الرعايا البريطانيين بالعمل فى التجارة(٤٢) مما يدل على اهتمام بريطانيا بالتجارة مع مصر والحرص على استمرارها ولا سيما غرفة تجارة مانشستر التى حرصت على مراقبة الأوضاع فى البلاد(٤٣) .

ونظراً لتصاعد النفوذ البريطانى بشكل غير مسبوق فقد اهتم الإيطاليون أيضًا بالعمل مع البريطانيين فنجد أليس بوتشيانى التاجر الإيطالى الذى مكث فى مصر حوالى ستين عاما يعرض خدماته على المسئولين البريطانيين معربا عن رغبته فى العمل معهم(٤٤) .

ورغم توتر العلاقة بين عباس والمسئولين البريطانيين فى بعض الأوقات ، إلا أن بريطانيا حرصت على مساندته وذلك لتحقيق مصلحة أكبر ألا وهى الموافقة على مد

الخط الحديدى لخدمة مواصلاتها مع الهند ، وانتهز موراى القنصل البريطانى معارضة الأستانة لعباس للتقرب منه ، فألح عليه لإتمام الخط الحديدى ، وأبرم ستيفن بك ناظر الخارجية مع مندوب ستيفنسن عقدا بإنشاء الخط الحديدى وذلك قبل صدور فرمان السلطان بالموافقة على الخط ، ونص العقد على إنجاز الخط خلال ثلاث سنوات وأن يكون عند إنشائه ملكا للحكومة تتولى تشغيله وصدرت الأوامر بإنشاء الخط الحديدى من مصر والإسكندرية وإنشاء ثلاثة مكاتب أحدها فى الإسكندرية والثانى فى القاهرة والثالث فى وسط هذا الطريق لترتيب اللوازم الخاصة بهذا الخط وتعيين مديرين ممن عرف عنهم الكفاءة لتسهيل وتشغيل المهندسين الذين حضروا من انجلترا لنفس هذا الأمر (٤٥) .

هذا وقد قام عباس باشا بإستيراد القاطرات من بريطانيا وفرنسا وبلجيكا وألمانيا(٤٦) وعندما شعر الفرنسيون بجدية المشروع وإصرار باشا مصر على تحقيقه أسرع الأب انفتان زعيم السان سيمون والذى رفض محمد على تنفيذ مشروعه فى وصل البحرين بالكتابة إلى زميله دوفور فيرونى عضو جمعية الدراسات فى ليبزج يبدى مخاوفه بأن الهدف من مشروع الخط الحديدى هو القضاء على مشروع القناة(٤٧) وأوضع عباس لبلمرستون عن أسباب تدهور العلاقة بينه وبين فرنسا وذلك « لأنها تريد تقوية نفوذها فى مصر » على حد قوله(٤٨) .

وجدير بالذكر أن عباس أرسل يستأذن السلطان العثمانى فى الخط الحديدى من القاهرة إلى السويس ولكنه رفض ولذلك شجعه المسئولون البريطانيون على إتمامه فهو الوحيد من وجهة نظرهم القادر على ذلك(٤٩) .

وكان موراى قد مهد لهذا المشروع لدى عباس واقنعه بضرورة إصلاح الطريق بين السويس والقاهرة ورصفه بالحجارة فجعله معبداً يسير فيه العربات بسهولة وكان هدف موارى سرعة نقل البريد البريطانى إلى الهند(٥٠) .

وكان المسئولون البريطانيون يدركون أن السلطان العثمانى سوف يعارض المشروع ولا سيما أن عباس وقع العقود دون استئذان(٥٢) وبدأ بالفعل فى إعداد

العمال والتلاميذ لاستخدامهم كموظفين للمهندسين البريطانيين من أجل تنفيذ المشروع(٥٢) وحاول عباس إرضاء السلطان فأرسل إليه يطمأنه بأن عوائد مصر سوف تكون كافية لإتمام الخط الحديدى ولا سيما بعد أن أبدى المسئولون فى الاستانة قلقهم من التكلفة(٥٣) هذا وقد امتد القلق من عدم إمكانية تنفيذ هذا المشروع إلى بريطانيا فأعرب تجار غرفة تجارة مانشستر عن تخوفهم من عدم اتمامه خوفًا من معارضة السلطان العثمانى ولكن بلمرستون سارع على التأكيد على إتمام المشروع مؤكداً إنه « لا توجد نوايا لإيقافه »(٥٤) ولا جدال أن البدء فى تنفيذ المشروع واختيار ستيفنسون قد أثار استياء وغضب السلطان العثمانى واعتبره دليلا على العصيان وعدم الطاعة(٥٥) ورغم تأييد المسئولين البريطانيين فى الأستانة للمشروع إلا أن السلطان العثمانى صرح بأن بريطانيا لا يهمها سوى مصالحها فى الهند(٥٦) وأرسل الصدر الأعظم رسالة إلى عباس ينبه فيها إلى خطورة اتصالاته مع المسئولين البريطانيين وأن مختار بك مبعوثه فى الأستانة أكد على عزمه على إتمام المشروع معتمداً على تأييد السفير البريطانى كاننج كما حذره بأن هذا الخط الحديدى ليس خطاً عادياً وإنما هو خط خطير ولذلك لا ضرورة ملحة لإتمامه ولا سيما أن المسافة بين القاهرة والإسكندرية ليست بعيدة وأكد مختار بك ضرورة حماية عباس لمصالح وحقوق الباب العالى(٥٧).

صمم عباس على تنفيذ المشروع وفق ما قرره ستيفنسون الذى رأى مد الخط من الإسكندرية إلى القاهرة ثم من القاهرة إلى السويس ورأى بدء الخط من الإسكندرية لعدة أسباب أن المواصلات النهرية غير متاحة إلا خمسة أشهر بسبب الفيضان وانخفاض مياه النيل ، كذلك توفر الإسكندرية سهولة فى نقل المهمات والآلات إلى داخل البلاد ، أما إذا تم البدء من السويس فإن ذلك سوف يتكلف نفقات أكثر لأن طبيعة الأرض رملية وحاول عباس إرضاء الدولة العثمانية فأكد أن إدارة السكة الحديد سوف تكون مصرية ولن يعطى امتياز الترانزيت والبريد لدولة أجنبية وذلك بسبب اعتراضات القنصل الفرنسى وأنه سوف يتم تصنيع الأدوات فى بريطانيا وسافر نوبار باشا إلى لندن حاملا معه العقود الرسمية للتصديق عليها وشراء

المهمات وبدأ العمل فى شهر ابريل ١٨٥٣ ووصل الخط من الإسكندرية إلى كفر العيسى قبالة كفر الزيات ، ثم وصل إلى الأخيرة ١٨٥٤ واستخدمت السخرة وسيق الفلاحون للعمل فى المشروع(٥٨) .

هذا وقد تميز عهد عباس بوقوع أزمة التنظيمات العثمانية الخيرية وهى الأزمة التى أثارها الباب العالى حتى يستطيع بسببها إلغاء الامتيازات التى منحت لمصر فى تسوية ١٨٤٠/١٨٤١ والعودة إلى وضع الباشوية أو الولاية العادية كإحدى المقاطعات البسيطة الخاضعة للدولة العثمانية ، واستطاع القائمون فى مصر اجتياز أزمة التنظيمات بسلام والاحتفاظ بالوضع القائم(٥٩) .

هذه الأزمة أدت إلى تدخل بريطانيا لصالح والى مصر فقد أرادت الدولة العثمانية أن تطبق التنظيمات أى مجموعة القوانين التى سنت وصدرت مستندة على القواعد التى تقررت فى خط شريف كلخانه الصادر فى ٣ نوفمبر ١٨٣٩ وكان منها ما يتعلق بإعطاء الضمانات لتأمين الشعوب الخاضعة للدولة مهما اختلفت أجناسهم وتنظيم دفع الضرائب ، أما عن الأنظمة الإدارية على أساس تدعيم السلطة المركزية فى الأستانة وتوثيق الإشراف المركزى من عاصمة الأمبراطورية على إدارة الولايات بحرمان الولاة من كل سلطة لهم وحرمانهم من حق القصاص أى حرمانهم من إصدار أحكام الإعدام وتنفيذها دون الرجوع للأستانة وطالب الباب العالى عباس بتنفيذ التنظيمات بحذافيرها فرفض لأن معنى ذلك حرمانه من سلطاته الداخلية(٦٠) وتمسك عباس بحق توقيع عقوبة الإعدام مما أدى إلى غضب السلطان العثمانى(٦١) الذى اجتمع فى الأستانة بمستشاريه لمناقشة الطلب المقدم من عباس بشأن إعادة سلطاته وامتيازاته التى أعطيت له ولمصر من قبل ، هذا وقد ساندت بريطانيا عباس فى مطلبه بينما التزمت فرنسا وروسيا الصمت ولم تكن لديهم النية لمساندته (٦٢) وقد أيد السفير البريطانى فى الأستانة حق عباس فى توقيع عقوبات الإعدام وذلك لمنع اغارات العربان ولإقرار الأمن ولرفاهية البلاد ، وتأمين سلامة المسافرين ولمنع حدوث الثورات فى العاصمة(٦٣) .

أرسل السلطان العثمانى بعثة فؤاد أفندى للتفاهم مع عباس الذى تمسك بضرورة تطبيق العقوبات فى العاصمة ولكن البعثة لم تؤت ثمارها فسرعان ما اتهم عباس بأنه تعمد إهانة فؤاد أفندى مما أدى إلى حدوث أزمة ثانية(٦٤) .

هذا وقد فند عباس لبعثة فؤاد بك أسباب تمسكه بمسألة القصاص وضرورة تطبيقها فى مصر وذلك لأن بلاده تضم عناصر مختلفة من البدو والزوار والرحالة ولابد من تأمينهم على أرواحهم وهذا لن يتأتى إلا بتوقيع عقوبة القتل دون الرجوع للآستانة لطلب القصاص وخلال هذه اللقاءات أكد عباس أنه تابع للسلطان خاضع له وهو « ملكنا الكبير » على حد قوله(٦٥) ومن المسائل التى أثارها عباس أن مسألة القصاص ذاتها أوضحتها الشريعة الإسلامية فيجوز قبول الدية فلا يعدم القاتل إذا دفعها ، كذلك وأن التنظيمات أخفقت فى أكثر من ولاية(٦٦) .

وعندما شعر عباس بتأزم الموقف بينه وبين الدولة العثمانية أرسل المبعوثين إلى لندن لإقناع الخارجية البريطانية بمزيد من الدعم لمواقفه وأوفد نوبار باشا لعرض وجهة النظر المصرية(٦٧) . وخوفا من استفحال النفوذ البريطانى دعا هوبير قنصل النمسا حكومة بلاده على ضرورة مساندة عباس فى الأستانة وأكد أنه وجد منه معاملة طيبة ، وأنه يبدو أن الدعاية السيئة سببها أقاربه هى التى أثرت على سمعته فى الأستانة ، كما أكد أن عباس اهتم بتنمية الاقتصاد المصرى وهو يحاول كسب ود الدولة العثمانية والدول الأوروبية وأكد أن مصر أفضل حالا فى ظل عباس الأول حتى ولو طبق عليها التنظيمات وأن مكائد أرتين بك ضد عباس واضحة فهو صاحب مكائد ووصفه باللؤم وأكد أن مصالح النمسا ، فى ظل حكم عباس مرعية ولا بد من مساندته(٦٨) .

ودعا عباس المسئولين النمساويين فى الأستانة بضرورة مساعدة عباس ودعم موقفه لدى السلطان العثمانى(٦٩) هذا وقد حذر هوبير من تزايد نفوذ موراى وأكد أن مصالح بلاده الاقتصادية هى التى تهمه فى المقام الأول ولا سيما مد الخط الحديدى ، وأيد عدم تطبيق التنظيمات فى مصر لأن ذلك سوف يضر بمصالح

النمسا نظرا لكثرة اعتداءات البدو ، فهم فى حاجة دائمة للتأديب ، كذلك لتأمين تجارة الترانزيت إلى الهند وتأمين الطريق إلى السودان(٧٠) .

أما موقف القنصل الأمريكى فى مصر فقد أعرب عن رغبة بلاده فى أن تتسم العلاقة بين مصر وأمريكا بالود والصداقة وصدرت التعليمات من الحكومة بضرورة حماية التجارة وتنمية العلاقات بين مصر وأمريكا فمصر جزء من أفريقيا وهى واحدة من أهم مراكز ربط أوربا وأمريكا وآسيا والأمريكى الذكى هو الذى يستفيد من وجوده فى مصر لمراقبة الطريق إلى أوروبا وآسيا وأفريقيا (٧١) .

لم يكتف عباس بإتصالاته السابقة وإنما اتصل أيضًا بقنصل أسبانيا بتراكى وشكا له من نوايا الدولة العثمانية تجاهه وإنها تسعى لعزله فوعده القنصل الأسبانى ببذل المساعى لدى الحكومتين النمساوية والبروسية لتوضيح موقفه فى الأستانة .

هذا وقد انتهت أزمة التنظيمات بين عباس والسلطان العثمانى الذى أصدر فرمانا بشأن تطبيق التنظيمات ، فترك لعباس حق القصاص من غير موافقة الباب العالى على أن يكتفى بإرسال إعلام شرعى لهذه الأحكام ولحاضرها بعد نفاذ الحكم فى الأستانة قبل الباب العالى أن يظل القصاص من حق عباس مؤقتًا لمدة سبع سنوات أما بالنسبة لإشراف الباب العالى المباشر على شئون الإدارة فإن ذلك لم يتحقق وقد وصف القنصل الفرنسى عباس باشا بعد انتهاء هذه الأزمة « لم يكن يوما من الأيام فى مثل هذه القوة والمتانة التى له الآن »(٧٢) . وقد أكد هذه الحقيقة نوبار باشا فى مذكراته(٧٣) وسوف تبدأ العلاقات فى التحسن بين عباس والسلطان ولا سيما بعد حرب القرم وتعهد عباس بإرسال الإمدادات والفرق والسفن اللازمة للدفاع عن أملاك السلطات ضد أى اعتداء تقوم به روسيا(٧٤) .

كذلك تحسنت العلاقات بين فرنسا وعباس بسبب جهود القنصل الفرنسى ساباتييه التقرب من باشا مصر ، مما أثار غيرة بايت القنصل البريطانى فسعى لتحذير الباشا من هذا التقارب خوفا من تغلغل النفوذ الفرنسى فى مصر مؤكد له أن البريطانيين لا يريدون سوى مصلحته فجاء رد عباس مطمئنا بأنه لا يتبع خطى جده

وأنه ينظر إلى بريطانيا على أنها الحليف الطبيعى والبلد المخلص الحريص على مصالحه[٧٥] ».

وأخيراً رغم حرص بريطانيا على تقوية علاقتها مع عباس باشا إلا أن هذا لم يمنعها من مراعاة مصالحها والتمهيد لتأمين مركزها فى مصر فقد أرسلت فى بداية حكم عباس بعثة سرية أرسلت من الهند برئاسة ضباط بريطانيين تجولوا فى ربوع البلاد بحجة عملهم كأطباء لهم اهتمامات بالشئون الصحية ، ولكنهم فى واقع الأمر وضعوا عدة تقارير عن جميع المدن المصرية وسواحل البحرين المتوسط والأحمر وأهم التحصينات والقلاع وزودوا تلك التقارير بخرائط مفصلة ومعلومات عن مصر ولم يتطرق الشك فى أعضاء هذه البعثة[٧٦].

وبتولى سعيد باشا الحكم ١٨٥٤ ـ ١٨٦٣ فتح أبواب البلاد للفرنسيين ، واعتبرهم أولى بالرعاية وفى عهده زادت البيوت التجارية الأوروبية بدرجة كبيرة وقد بلغ التقارب الفرنسى المصرى ذروته عندما منح سعيد الامتياز الأول لتأمين شركة عامة لحفر القناة ثم الامتياز الأول لتأمين شركة عامة لحفر القناة ثم الامتياز الثانى والذى منح بمقتضاه الشركة الأراضى الواقعة حول القناة لمدة ٩٩ سنة وذلك فى يناير ١٨٥٦ [٧٧].

وجدير بالذكر أن المسئولين البريطانيين حاولوا التقارب من سعيد باشا قبل تولية الحكم فوجهوا إليه الدعوة لزيارة بريطانيا فى عام ١٨٥٢ وصدرت الأوامر للضباط البريطانيين بترتيب هذه الزيارة[٧٨] رغم تحذيرات البريطانى جون لأركنج والذى أقام فى مصر أكثر من أربعين عاما ، بأنه من الصعب أستمالة سعيد لأنه يميل لفرنسا وسوف يبذل قصارى جهده لإقرار نفوذها فى مصر[٧٩].

عملت بريطانيا جاهدة على محاربة مشروع قناة السويس واعتبرته مشروعا فرنسيا صرفا ، وتخوفت من إنشاء الاستحكامات الفرنسية على القناة فور الانتهاء منه، وهناك احتمالات بأغلاق القناة أمام بريطانيا ، وقد حاول دى ليسبس إزالة هذه المخاوف فأكد بأن المشروع سيعود بالفائدة على الجميع لا سيما بريطانيا ورغم ذلك

شن سفراء بريطانيا فى الأستانة حملة لتوضيح خطورة المشروع وأنه لا بد وأن يؤدى إلى تحكم فرنسا فى طريق الملاحة العالمية [٨٠] وانساق سعيد وراء ديليسبس ، ولم يكتف بمنح امتياز قناة السويس ، وإنما تعهد بالتنازل عن الأراضى اللازمة لإتمامه ، كما تعهد بحفر قناة للمياه العذبة من النيل إلى القناة ، وتوفير الأعداد المطلوبة من الفلاحين لوضعهم تحت تصرف الشركة وأعفيت واردات الشركة من الرسوم الجمركية ، وبدأ سعيد فى الاقتراض لتنفيذ مشروعه [٨١].

وهكذا اتصف سعيد بضعف الإرادة والأنصياع لآراء الأوروبيين ، كما اتسم عهده بالإسراف والاقتراض من البيوت المالية الأوروبية وارتفع النفوذ الفرنسى فى عهده وعمل الفرنسيون فى كافة المجالات وعندما اعتزم توسعة ميناء السويس عهد إلى شركة ديسو الفرنسية بذلك وفى عهده دخلت مصر حرب المكسيك إكراما لنابليون الثالث وسيطر الأوروبيون على المشاريع الهامة فعندما أنشأ شركتين للملاحة البحرية والنيلية كان معظم المؤسسين من الأوروبيين والماليين الأجانب من مختلف الجنسيات ومنحت شركة الملاحة الداخلية امتيازا مدته خمسة عشر عاما وعرفت باسم الشركة المصرية للملاحة التجارية ، أما الشركة الثانية فهى الشركة المجيدة تأسست عام ١٨٥٧ وكان رئيسها مصطفى فاضل ومجلس إدارتها خليط من الأجانب ، وكان الغرض منها تسيير البواخر فى البحر الأحمر ثم المحيط الهندى والخليج العربى ، وكانت تقوم بالملاحة بين السويس وثغور الحجاز واليمن ومصوع وسواكن [٨٢].

قضى إسماعيل السنوات الأولى من حكمه وهو يعمل على توسيع نطاق استقلال مصر ، والحصول على المزيد من المزايا من الباب العالى حتى يصل بالبلاد إلى الاستقلال التام ، وبينما هو يعمل على الحد من الهيمنة العثمانية كان لا يحمى مصر من التغلغل الأجنبى المالى والسياسى [٨٣] وحرص إسماعيل على التودد للسلطان عبد العزيز فزار الأستانة ، وكان من أهم نتائج هذه الزيارة هو تغير نظام توارث الحكم فجاء فرمان ٢٧ مايو ١٨٦٦ بأن يتولى الحكم أكبر أنجاله بدلا من

أكبر أفراد الأسرة ، كما نص الفرمان على زيادة الجيش المصرى إلى ثلاثين ألف[٨٤]. فى ٨ يونيو ١٨٦٧ حصل على لقب خديو فارتقى إلى مرتبة تقرب مراتب الملوك والسلاطين ، ولم يمضى وقتا طويلا على إصدار هذا الفرمان حتى تدهورت أحوال ومالية مصر ، وأخذت الصحف الأوروبية تنشر أنباء هذا الوضع المالى فى مصر وديونها المتراكمة[٨٥] وهو ما دفع الباب العالى إلى التفكير فى ضرورة الحد من توسع إسماعيل فى الاقتراض وقد حاول سير هنرى اليوت السفير البريطانى الدفاع عن مصالح إسماعيل فى الأستانة ولكن الصدر الأعظم أكد له إسراف والى مصر ، كما صرح له بأن الباب العالى يشعر بالإحباط من موقف بريطانيا المستمر فى الدفاع عن إسماعيل لا سيما وأن فرمان ١٨٤١/١٨٤٠ أعطى للسلطان الحق فى تبعية مصر له وهو يعتبرها من أهم ولايات الدولة[٨٦].

وعلى الرغم من تبنى السفير البريطانى فى الأستانة لوجهة نظر إسماعيل إلا أن الدول الأوروبية وبريطانيا نفسها اتفقت على ضرورة ضمان حق الماليين الذين استدان منهم خديو مصر[٨٧] مع الإبقاء على الوضع الراهن فى البلاد ، وأن يتم التعاون فيما بينها لحل الخلاف القائم بين الخديو والباب العالى[٨٨] وفى ٢٩ نوفمبر ١٨٦٩ أصدر الباب العالى فرمانا يمنع إسماعيل من الاقتراض إلا بعد استئذان السلطان[٨٩].

ورغم التوتر الذى ساد بين الباب العالى وإسماعيل إلا أن الأخير سعى لتحسين العلاقات وإزالة التوتر فزار الأستانة بصحبة إسماعيل باشا صديق وزير المالية ونوبار باشا وزير الخارجية فنال فى عام واحد فرمانا ثبت الامتيازات السابقة ونسخ القيود الواردة فى فرمان ١٨٦٩ وكان من أهم نتائج هذا الفرمان التوسع فى عقد القروض ثم صدر صور فرمان يونيو ١٨٧٣ الذى أكد المزايا التى منحتها الدولة العثمانية لمصر منذ ١٨٤١ كما أكد حقها فى سن القوانين والاقتراض وعقد الاتفاقات الجمركية والمعاهدات وحق بناء السفن[٩٠].

راقبت بريطانيا تزايد النفوذ الفرنسى ولا سيما مع استمرار أعمال حفر القناة

ولذلك ضغط المسئولون البريطانيون فى الأستانة على الباب العالى للحد من النفوذ الفرنسى[91] كذلك دارت المراسلات بين المسئولين الفرنسيين والبريطانيين أى بين ستنتون والمسيو أوتريه ثم التأكيد فيها على ضرورة مراعاة مصالح بريطانيا[92] التى قدمت احتجاجات بشأن استخدام السخرة فى حفر القناة ، كذلك سعت لتحديد مساحة الأراضى الممنوحة لشركة القناة ، وأكـد المسئولون البريطانيـون فى تقاريرهم بأن دى ليسبس لم يكن يطمع فقط فى شق القناة وإنما فى احتلال مساحة كبيرة من الأراضى وإنه يسعى لتحويل مصر إلى مستعمرة فرنسيـة ، هذا وقد اتخذت الإجراءات مع شركتى القناة ومساجير لتأمين طريق بريطانيا فى السويس ضمانا لمصالحها[93] .

وجدير بالذكر أن نوبار باشا حرص على تقليص امتيازات شركة القناة واعتمد على بريطانيا فى مساندته من أجل ذلك ، وشن حملة ضد الشركة واستطاع التوصل مع دى ليسبس على ضرورة إلغاء السخرة وإعادة الأراضى التى نص عليها الامتياز إلى الحكومة المصرية[94] هذا فى الوقت الذى حصلت فيه بريطانيا على ضمان مواصلاتها مع الهند ولذلك اهتمت بما يتم من إصلاحات فى ميناء السويس والزعفرانة ومدى عناية مصر بالفنارات والتقارير المقدمة من المهندسين عن حالتها ، كذلك طالب البريطانيـون فى تقاريرهم بضرورة توفير المياه الصالحة للشرب فى السويس[96] ، وامتد هذا النظام إلى موانى البحر الأحمر وتلقى أدوارد ستنتون تعليمات من حكومته بضرورة إجراءات المزيد من التحريات عن حالة الفنارات فى البحر الأحمر وإعداد البيانات المطلوبة[97] .

ولم يقتصر اهتمام بريطانيا بدراسة وتأمين موانى البحر الأحمر ، وإنما امتد الاهتمام إلى ميناء الإسكندرية فقدم المسئولون البريطانيون التقارير عنه وطالبوا بضرورة تحسين سبل الإنارة فيه حتى لا تتعرض السفن للأخطار[98] كما عهد الخديو لشركة جرنفلد البريطانية فى عام ١٨٧٠ بتوسيع ميناء الإسكندرية مقابل عدة ملايين ، كما عقد معاهدة ١٨٧٣ بتوسيع تبادل البريد[99] .

وهكذا تزايد النفوذ البريطانى فى مصر ، وحرصت بريطانيا على تأمين مواصلاتها فى البحر المتوسط والبحر الأحمر تمهيدا لبسط سيطرتها على مصر ، وساعد فى ذلك انشغال فرنسا بهزيمتها فى الحرب السبعينية وانقسام الرأى العام والسياسيين بها إلى فريقين فريق يرى الانتقام من ألمانيا لاستعادة الألزاس واللورين ، وفريق يرى ضرورة التوسع فيما وراء البحار حتى يتم إعداد القوات والجيش ، ونتج عن تراجع النفوذ الفرنسى أن أصبح لإنجلترا الصوت المسموع ساعد على ذلك الأزمة المالية التى مرت بها البلاد فانتهزت الفرصة لشراء أسهم قناة السويس وهو يمثل فوزا عظيما لبريطانيا ، فقد انتهز المسئولون البريطانيون فرصة تلكؤ الماليين الفرنسيين فى الشراء فقاموا بشراء الأسهم مما أحدث ردود فعل كبيرة وأجرى داركور السفير الفرنسى فى لندن عدة اتصالات بالمسئولين البريطانيين ولا سيما اللورد دربى الذى أكد له أن الحكومة الإنجليزية سوف تعطى الضمانات اللازمة وأن هذا الإجراء الذى اتبع لخدمة مصالح انجلترا التجارية(١٠٠) وقد حذر القائم بالأعمال الفرنسى فى لندن وزير خارجية بلاده بأن اللورد دربى له نظرة طموحة لمصالح بريطانيا فى مصر(١٠١).

أما عن موقف ألمانيا فقد رحبت الصحافة الألمانية بشراء بريطانيا لأسهم القناة ووصفته بأنه « هزيمة ثانية لفرنسا بعد هزيمتها الأولى فى سيدان » ، وإن كانت بعض الصحف قد عبرت أيضاً عن استياءها من ذلك القرار واعتبرته إنذارا يوحى بأن بريطانيا سوف تتحكم فى مصر ، وسوف يكون لها السيطرة على السكك الحديدية والمنشآت الهامة كما سيطرت من قبل على جبل طارق ، ولم تكتف بريطانيا بشراء اسهم القناة ولكنها بدأت تتدخل فى شئون البلاد الداخلية بواسطة المستشارين الرسميين الذين بعثتهم بحجة دراسة اضطراب مالية مصر(١٠٢).

هذا وقد ازداد التوتر بين إسماعيل وبريطانيا بمجئ بعثة كيف عضو مجلس العموم البريطانى فى عام ١٨٧٥ وكان هدفها هو إجراء تحقيق مبدئى وتعيين مراقب إنجليزى مستشارا ماليا للخزينة المصرية فعارض إسماعيل هذا الإجراء ولعب أوتريه

القنصل الفرنسي دورا في إثارة شكوك إسماعيل حول النوايا البريطانية ولكن بازدياد مالية البلاد ارتباكا اضطر الخديو عام ١٨٧٦ إلى إنشاء صندوق الدين ومهمته بأن يكون خزانة فرعية للخزانة العامة يتسلم المبالغ المخصصة للدين من المصالح المالية مما عرض البلاد للتدخل الأجنبي[١٠٤]. وفي ١٨ نوفمبر صدر مرسوم بفرض نظام الرقابة الثنائية على المالية المصرية وتوقعت الدول الأوروبية قيام بريطانيا باحتلال مصر ، ولا سيما ألمانيا التي رحبت بهذا التدخل واعتبرته بديلا عن صدام بريطانيا مع روسيا بسبب التنافس على البسفور ولكن في ذلك الوقت كان بنيامين دزرائيلي يفضل بسط السيطرة على الأستانة لا قناة السويس[١٠٥].

وفي ٥ أغسطس ١٨٧٨ أصدرت لجنة التحقيق العليا التي شكلت لبحث قدرة مصر على الاستمرار في وضع الديون وأرباحها تقريرها المبدئي الذي أوصى بتنازل إسماعيل عن الحكم وتسليم أراضيه للدولة وقبوله مرتبا سنويا وإجراء بعض الإصلاحات في الإدارة المالية واضطر الخديو لقبول قرار اللجنة وكلف نوبار بتأليف الوزراء وتعيين رفرز ويلسون وزير للمالية[١٠٦] وقد استاء إسماعيل من ضغط الدول الأوروبية عليه ولا سيما بريطانيا ، وطالب باستقالة الوزارة التي شكلت منتهزا فرصة السخط الشعبي عليها ، وبدأت فرنسا وبريطانيا تفكر في إجباره للتنازل عن الحكم[١٠٧].

ومما يجدر ذكره أن التفكير في عزل إسماعيل بدأ مبكرا ونوقشت الفكرة في الأستانة بواسطة السفير هنري اليوت الذي اقترح تعيين مصطفى فاضل بدلا منه وذلك في أغسطس ١٨٦٩[١٠٨] ولكن عالي باشا لم يرحب بإقالة الخديو ، وأوضح أنه من الصعب زحزحته من منصبه وأن الكثيرين لا يرحبون بإحلال مصطفى فاضل بدلا من شقيقه ، كما أنه من الصعب إقناع السلطان بذلك ، لأن إسماعيل له العديد من المؤيدين في الأستانة[١٠٩] وكان وصول مصطفى فاضل إلى الأستانة خلال هذه الفترة من الأسباب التي شجعت على طرح هذه الفكرة[١١٠].

ولا جدال أن افتتاح المحاكم المختلطة في أوائل ١٨٧٦ كان أول لغم وضع

لإسماعيل على حد وصف نوبار باشا [١١١] وقد لعبت بريطانيا دوراً هاماً فى إنشاء هذه المحاكم[١١٢] واقترحت اختيار قضاة بريطانيين من بين أعضائها[١١٣] .

وأخيراً يمكننا القول أن بريطانيا مهدت لنفسها ليس لاحتلال مصر فحسب وإنما لسلب أملاكها فى أفريقيا ففى السودان أرادت تثبيت نفوذها ، أوعزت إلى الخديو تعيين صمويل بيكر حاكماً لمديرية خط الاستواء ، ثم خلفه جوردون ، وفى شرق أفريقيا اكتفت بالإعتراف بنفوذ مصر على الصومال الشمالى بمقتضى معاهدة ٧ سبتمبر ١٨٧٧ ولكنها أجبرت الخديو على التراجع عن سواحل الصومال المطلة على المحيط الهندى[١١٤] وعندما نجحت مصر فى مد إدارتها حتى مملكة أوغنده وبسطت حمايتها عليها بفضل جهود شاليه لونج رفضت بريطانيا الاعتراف بذلك ، ورغم ما قدمته مصر لبريطانيا أثناء الحرب الحبشية الإنجليزية من تسهيلات ومدد إلا أن هزيمة مصر بعد ذلك فى الحبشة قوبلت بالارتياح من بريطانيا وإزداد طموحها لاحتلال مصر وقد تم ذلك بعد خلع الخديو إسماعيل بسنوات قليلة[١١٥] .

(هوامش الفصل الأول)

(١) Bulletin de l'institut d'Egypte t7 session 1927 - 1925 le Caire 1925

Douin , Georges , L'ambassade d'Elfi Bey à londres . Octobre - Decembre 1803 pp. 102 - 104 .

(٢) عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر القاهرة ١٩٨٧ ، جـ٢ ص٣٠٤ .

(٣) المرجع السابق ص٣٠٤ .

(٤) Douin G : op. cit., p. 106 .

(٥) Ibid , p. 11 .

(٦) Ibid , p. 120 .

(٧) جلال يحيى : مصر الحديثة ١٨٠٥ ـ ١٨٤٠ د. ت ، ص١٠٥ .

(٨) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق ص ٣١٩ .

(٩) جلال يحيى : المرجع السابق ص ١٠٧ ، ص ١٠٨ .

(١٠) الهام ذهنى : مصر فى كتابات الرحالة الفرنسيين فى القرن التاسع عشر ، القاهرة ١٩٤٤ ص٢٢ .

(١١) حلال يحيى : المرجع السابق ص ١٠٩ .

(١٢) يدعى دومينجو باديا لبليخ أسبانى الأصل عمل فى خدمة فرنسا وقد وضع مؤلفًا بعنوان .

Aly Bey , Voyage D' Ali Bey en Afrique et en Asie pendant les anneés 1803 - 1804 - 1805 - 1806 Paris 1815 .

(١٣) جمال زكريا : تاريخ الجزيرة العربية مصادر تاريخ الجزيرة العربية ، الكتاب الأول ، الرياض ١٣٦٩ ، مقالة بعنوان « الدوافع السياسية لرحلات الأوروبيين إلى نجد والحجاز فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، ص٩ وانظر إلهام ذهنى : فرنسا والخليج من منتصف القرن الثامن عشر حتى بدايات القرن العشرين ، القاهرة ١٩٩٣ .

(١٤) عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، جـ١ ص٦٨ .

(١٥) جلال يحيى : المرجع السابق ص ١٦٤ .

(١٦) المرجع السابق ص٢٠٤ ـ ص ٢٠٨ .

(١٧) Mengin , Felix : Histoire d'Égypte sous le Gouvernement de Mohammed Aly Paris 1923 .

(١٨) فاروق أباظة : عدن والسياسة البريطانية فى البحر الأحمر . القاهرة ١٩٧٦ ص١٢ .

(١٩) عبد الرحمن الرافعى : عصر محمد على . القاهرة ١٩٨٢ ص٢٩ .

(٢٠) فاروق أباظة : المرجع السابق ص١٣٩ .

(٢١) مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان .

(٢٢) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق ص ٢٩٣ ص ٢٩٩ .

(٢٣) المرجع السابق ص ٣٠١ .

(٢٤) أحمد عبد الرحيم مصطفى : عصر حككيان القاهرة ١٩٩٠ ص ١٠ .

(٢٥) عبد الرحمن الرافعى ، المرجع السابق ص٣ .

(٢٦) هيلين أن ريفلين : الاقتصاد والإدارة فى مصر فى مستهل القرن التاسع عشر ترجمة أحمد عزت عبد الكريم ، القاهرة ١٩٦٨ ص٢٦٧ .

(٢٧) أحمد الشربينى : تاريخ التجارة المصرية فى عهد الحرية الاقتصادية ١٨٤٠ ـ ١٩١٤ القاهرة ١٩٩٥ ص٢٠ .

(٢٨) المرجع السابق ص٢١ .

(٢٩) أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ص ٤٥ ص٤٨ .

(٣٠) فاطمة علم الدين : تطور النقل والمواصلات الداخلية فى مصر فى عهد الاحتلال ١٨٨٢ ـ ١٩١٤ ، القاهرة ١٩٨٩ ص٢٤١ .

(٣١) محمد أمين حسونة : مصر والطرق الجديدة . القاهرة ١٩٣٨ ، ص٥٦ .

(٣٢) فاطمة علم الدين : المرجع السابق ص٢٤١ .

(٣٣) المرجع السابق ص٢٤١ .

(٣٤) أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ص١٢ .

(٣٥) F. O. 78/814. Sir Stratford Canning February 26, 1850.

(٣٦) F. O. 78/816. Sir Stratford Canning October 21, 1850 No. 275 Confidentiel.

(٣٧) Ibid November 13, 1850 No. 290.

(٣٨) F. O. 78/817. Sir Stratford Canning To Viscount Palmerston No. 44. most confidential constantinople. February 5, 1850.

(٣٩) Ibid No. 82. constantinople March 14, 1850.

(٤٠) F. O. 78/850. Enclosure in November 4, 1850. Sir stratford Canning. No. 287..

(٤١) F. O. 78/818. Sir Stratford Canning No. 77. July 9, 1851.

(٤٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابث ص٥٨ .

(٤٣) Fo. 78/851. October 28, 1807. Sir canning No. 262.

(٤٤) ولد اليس فى تسكانيا وجاء إلى مصر ١٧٩٥ ليلتحق بخدمة القنصل البريطانى جورج بولدوين وأصبح كاتبا وعندما دخلت القوات الفرنسية مصر اضطر للهرب ، وعندما نزلت حملة فريزر ساهم فى إطلاق سراح الأسرى البريطانيين وتخليصهم من الأسر .

(٤٥) فاطمة علم الدين : المرجع السابق ، ص ٤٣

(٤٦) محمد أمين حسونة : المرجع السابق ص١٢٥

(٤٧) محمود منسى : قناة السويس بين أتباع السان سيمون وفرديناند دى ليسبس ، القاهرة ١٩٧١ ، ص١٥٠ .

(٤٨) F. O. 78/886. Abbas Pacha to Viscount Palmerston September 1815.

(٤٩) F. O. 78/886. Oriental club 17 July 1851 Colonel el Mesuroer to E Hammand Espuis

(٥٠) أمين سامى : تقويم النيل عصر عباس باشا الأول ومحمد سعيد باشا ، القاهرة ١٩٣٦

(٥١) F. O. 78/885. Londres . Sept 8, 1851 Nubar bey to lord palmerston.

(٥٢) Ibid Service Club sept 30, 1851, Captain Scowelle to Addington .

(٥٣) F. O 78/889. Londres october 30. 1851 Nubar bey à son Excellence lord Palmerston .

(٥٤) Ibid Manchester Chamber of commerce lewis williams. H. U. A. October 27, 1851 .

(٥٥) F. O 78/886 Murray to captain lord Russel. Alex October 19, 1851.

(٥٦) F. O 78/876 to Murray sept 24, 1851 .

(٥٧) Ibid traduction d une lettre Vizirielle à son Altess Abbas Pacha Constantinople le 4 sept 1851 .

(٥٨) محمد أمين حسونة : المرجع السابق ، ص١٢٠ ، ص١٢٥ .

(٥٩) محمد فؤاد شكرى : تاريخ وحدة وادى النيل السياسية فى القرن التاسع عشر ١٨٢٠ ـ ١٨٩٩ ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص٢٨ .

(٦٠) المرجع السابق ، ص٣٣ .

(٦١) F. o. 78/891 Stephen Report of his Intervisit with the sultan February 16, 1852, Pera .

(٦٢) F. O. 78/90 Constantinople February 26, 1852. Stratford Canning to Earl Granville No. 46 .

(٦٣) F. O. 78/891. Memorandum Mars 13. 1852 .

(٦٤) Ibid Constantimople March 29. 1852. Canning to Malmesburg No: 64 .

(٦٥) F. O. 78/892. Abbas Pacha to Prime ministre at costantinople .

(٦٦) محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ، ص ٣٣ .

(٦٧) F. O. 78/922. Londres le 7 Janvier 1852 Nubar à lord Granville .

(٦٨) الأرشيف النمساوى محفظة ٢٥ يناير ١٨٥١ ـ ٩أكتوبر ١٨٥٢ .

Rapport de consul General U. Huber à la chancellerie d'état No. 44 le Caire le 28 Janvier 1851 .

(٦٩) Ibid Du chargé d' affaire a Constantinople De Kleezl an consul General Huber a Alex. Constamtnopl 4 Fevrier 1851 .

(٧٠) Ibid Rapport du consul general Huber au ministre des affaires etrangeres Prince De shwazenberg .

(٧١) الأرشيف الأمريكى محفظة ١٨٤٨/١٠/٢٢١٤ إلى ١٨٦٨/٤/٨ ملف (٢).

Richars Jones Consul general of the U. S. Alex. Egypt instructions No. I Depatment state. Washington 17 February 1853 .

(٧٢) محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ص ٣٥ ، ص٤٣ .

(٧٣) Memories de Nubar Paba Introduction et notes de Mirrit Boutros ghali Bey .

(٧٤) F. O. 78/932. Constantinople May 30, 1853 lord stratford De Redcliff to the earl clarendon No. 75 .

(٧٥) F. O. 78/966, Cairo January 2, 1853. Payet to the earl of Malmesburg No. 2 confi .

(٧٦) Hanotaux , G : Histoire de la Nation Egyptienne de 1801 a 1882, Paris 1936 TV/ p. 242 .

(٧٧) F. O. 78/923, June 21, 1852 Admiralty .

(٧٨) F. O. 78/923, June 21, 1852 Admiralty .

(٧٩) F. O. 78/922, Extract of a letter from Alex Unclossed in letter from John larking Februarty 1852 .

(٨٠) أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص ١١٥ .

(٨١) المرجع السابق ، ص ١١٥ .

(٨٢) عبد الرحمن الرافعى : عصر إسماعيل ، القاهرة ١٩٨٢ ، جـ١ ، ص ٣٨، ص٤٣.

(٨٣) المرجع السابق ، ص ٧٧ .

(٨٤) المرجع السابق ، ص ٨٩ .

(٨٥) الوثائق الأوروبية محفظة ٢٩ يناير ١٨٦٣ ، ٢٦ يوليو ١٨٨٢ .

F. O. 78/04 Read to lord stanley .

(٨٦) F. O. 78/2072 August 3. 1869 Constantinople Sir Henry Elliot to the earl of clarendon No. 329 .

(٨٧) F. O. 78/2077 Constantinople Sir Henry Elliot to Earl clarendon No. 384 .

(٨٨) Ibid Berlin September 25, 1869 August to the Eart clarendon No. 440 .

(٨٩) عبد الرحمن الرافعي : عصر إسماعيل ، ص٨٥ .

(٩٠) أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص١٢٨ .

(٩١) F. O. 78/1895 March 7, 1865 W, Stuart to earl Russel N 109 .

(٩٢) Ibid 78/1898. Alex November. 1865 Edward stanton to Earl Russel No. 41 .

(٩٣) Ibid Results of the opposition of the Majesty's governement to the suez canal . Scheme .

(٩٤) أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص١٥ .

(٩٥) F. O. 78/2040. January 21, 1868 Guest to Stanley .

(٩٦) Ibid, February 1869 stanton to lord stanly .

(٩٧) F. O. 78/2041. January 24, 1868 Guest to Stanley .

(٩٨) F. O. 78/2065. November 300, 1869 Consul Stanley .

(٩٩) أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص٥١ .

(١٠٠) D. D. F. 1 serie 2. (1871-1900) 1. Juillet 1875 , 31 December 1875, Paris Le Marquis d' Harcourt, Ambassadeur de France a lon-

dres à M le Duc De cazes ministre des affaires etrangéres londres 3 December 1875 t, P. 28 .

(١٠١) Ibid M Gavard, Chargé d'Affaires étrangéres à Londres a M dus, Decazes ministre des affaires étrangeres le 19 December 1876 p. 32 .

(١٠٢) Ibid. De sage chargé d' affaires etrangerés a Berlin a M le due Decazes ministre des affaires etrangéres Berlin 3 December 1875 No. 52 P. 29 .

(١٠٣) Ibid De vogue ambassadeur de France a Vienne a M le duc Decazes ministre des affaires etrangéres Do No. 87 Confidentiel 28 December 1875 P. 35 .

(١٠٤) أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص٥١ .

(١٠٥) المرجع السابق ، ص ١٣٢ .

(١٠٦) المرجع السابق ، ص ١٣٧ .

(١٠٨) F. O 78/2077. Henry Elliot to lord Clarendon No. 359 . confidentiel .

(١٠٩) Ibid. No. 352 .

(١١٠) Ibid. Np. 213 .

(١١١) أحمد عبد الرحيم مصطفى : المرجع السابق ، ص١٢٠ .

(١١٢) F. O. 78/2342. Alex. Stanton to the Earl Derby D No. 39 .

(١١٣) F. O. 78/2040 Stanton to stanly .

(١١٤) إلهام محمد ذهني : بحوث ودراسات وثائقية فى تاريخ أفريقيا الحديث ، القاهرة ٢٠٠٠ .

(١١٥) المرجع السابق .

الفصل الثانى

تعريف بالرحالة البريطانيين

- الرحالة البريطانيون فى القرن ١٨
- الرحالة البريطانيون فى القرن ١٩
- الرحالة البريطانيات

اهتمت بريطانيا بالشرق منذ القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وتجلى هذا الاهتمام فى تأسيس كراسى اللغات الشرقية ، وإدخال تعليم اللغة العربية فى أكسفورد فى عام ١٦٣٦ حيث كلف إدوارد بوكوك بتدريسها ، كما أدخلت الأحرف العربية فى المطبعة الملكية البريطانية ، أضف إلى ذلك الاهتمام بالمخطوطات وتكوين مجموعات ثمينة منها ، فقد استطاع تشارلز روبسون[١] جمع مجموعات كبيرة من المخطوطات ،وأدى هذا النشاط إلى نمو المكتبات الكبرى فى بريطانيا كما تأثر الأدب البريطانى بالشرق ولعل خير مثال لذلك ما دونه شكسبير عن تاجر البندقية وقد جاءت كتاباته متأثرة بدور اليهود فى تجارة الليفانت مع بريطانيا ، كذلك ألف الكاتب الإيرلندى[٢] هاملتون مجموعات أدبية تأثر فيها بشهرة الأمير فخر الدين المعنى[٣] .

وجدير بالذكر أن بريطانيا لم تكن وحدها فى هذا الميدان فقد اهتمت فرنسا بالشرق اهتماماً كبيراً فقد تم تأسيس الأكاديميات فيها منذ القرن السابع عشر نذكر منها الأكاديمية الفرنسية للفنون ، وأكاديمية المخطوطات التى تأسست فى عهد كولبير وأكاديمية العلوم[٤] . وقد أرسلت هذه الأكاديميات المبعوثين إلى الشرق ومصر لدراسة التراث الإسلامى ، والمؤلفات العربية والإسلامية ثم ظهرت أكاديميات مماثلة فى الدول الأوروبية ولا سيما فى أسبانيا حيث تأسست أكاديمية العلوم فى لشبونة فى عام ١٧٢٢ ، وفى استكهولم فى عام ١٧٣٩ ، كذلك أسست أكاديمية فيلادفيا فى عام ١٧٤٤ فى أمريكا الشمالية[٥] .

وهكذا جذب الشرق بأكمله انتباه الأوروبيين فظهرت العديد من الدراسات عن الدولة العثمانية أو الإمبراطورية على حد وصفهم ، وعن الإمبراطورية الصينية والهند[٦] .

ثم تزايد الاهتمام بالشرق ومصر فى القرن الثامن عشر واتخذ الشرق عند الانجليز شكلاً غير الذى أخذه عند الفرنسيين فكانت الهند إبان القرن الثامن عشر وحتى مطلع القرن العشرين هى أساس تفكير البريطانيين فلابد من تأمين الطريق لها

ولا سيما بعد هزيمة فرنسا فى حرب السنوات السبع ، بينما كان الشرق بالنسبة لفرنسا هو الهند ومصر فالهند تمثل هيبتها المفقودة ومصر هى البديل المثالى[٧] ولذلك تجددت فكرة غزو مصر[٨] سواء من قبل السفراء الفرنسيين فى الأستانة أو من خلال تقارير القناصل والرحالة فى مصر وقد تركزت كتاباتهم جميعًا على ضرورة مراعاة مصالح فرنسا التجارية وإيضاح الفوائد التى ستعود عليها من جراء الغزو وغلفوا ذلك كله بشعار « واجب فرنسا الحضارى» والتزامها الثقافى إزاء الشعوب المتخلفة ، وتم الغزو بالفعل فى عهد حكومة الإدارة ، وتم تجميع كل هذه التقارير فى ملف كامل عرض على نابليون بصفته القائد الموكل إليه هذه المهمة[٩]. وخلال القرن الثامن عشر تدفق أيضًا العديد من الرحالة الفرنسيين على مصر ، وجاءت مؤلفاتهم أساسا ومرشداً لما دونه علماء الحملة الفرنسية فظهر ما عرف بالتحقيقات العلمية الدقيقة عن مصر[١٠].

أما عن الرحالة البريطانيين الذين زاروا مصر فى القرن الثامن عشر فيمكن أن نطلق عليهم اسم « الرحالة العابرون » وكانوا إما تابعين لشركة الهند الشرقية أو تجاراً يعملون بترخيص من الشركة وقد انصب اهتمامهم على البحر الأحمر فقط ، ومنهم رحالة مستقرون ، إما تجار شركة الليفانت أو أصحاب مناصب رسمية[١١].

أضف إلى هؤلاء مجموعات الشباب التى كانت تزور الشرق فقد كان العرف السائد فى بريطانيا فى القرن الثامن عشر ، أن يزور الشرق الشبان الذين لم يقبلوا على التعليم فى الجامعات ، فيتم إرسالهم فى رحلة يطلقون عليها « الجولة الكبرى » وتكون عادة برفقة قسيس ، وتبدأ الرحلة باوستند فى بلجيكا ، ولاهاى فى هولندا ، ثم الإمارات الألمانية وتنتهى الرحلة فى جنيف أو لوزان فى سويسرا . وفى مطلع القرن الثامن عشر اتسعت الرقعة لتشمل كالية وباريس ، وفى أواخر القرن الثامن امتدت الجولة الكبرى مع ظهور الإضطرابات فى أوروبا ونشوب الثورة الفرنسية ، وأصبحت تشمل الإمارات الإيطالية حتى نابولى ، وذلك لتعليم الدراسات اليونانية واللاتينية فى موطنها الأصلى ، وكانت تلك الجولات برعاية قس يصاحبهم ومعه مكتبة كما

اتسعت الجولة لتشمل اليونان ، وجنوب البحر المتوسط وسوريا وفلسطين ومصر . وهكذا نلاحظ أن الرحالة البريطانيين كان معظمهم من المترفين ، مرتادى النوادى فى لندن أى من الطبقة الأرستقراطية ولكن رغم ذلك وفد على مصر بعض من الرحالة المهتمين بالآثار تمولهم جمعيات علمية وشركات كبرى يضعون بين أيديها ما تسفر عنه دراستهم فعلى سبيل المثال أوفدت هيئة كشف مجاهل أفريقيا التى تأسست فى عام ١٧٨٨ عدداً من المكتشفين مروا جميعًا بمصر ، كما أرسلت شركة الهند الشرقية غيرهم لاكتشاف الطريق البرى إلى الهند وكان هناك أيضاً رحالة من المنصرين الذين تمولهم جمعيات الإنجيل الإنجليزية ومنها جمعية لندن التنصيرية التى تأسست منذ عام ١٧٩٥ ونشطت فى الهند والصين وأفريقيا غير أن عددهم كان قليلا فى القرن الثامن عشر[١٢] .

ثم جذبت مصر انتباه الرحالة البريطانيين فى القرن التاسع عشر وكان معظمهم من أبناء الطبقة المتوسطة ، أو طبقة الموظفين الذين كانوا فى طريقهم إلى الهند ، أو من رجال الجيش أو من الصحفيين وأصبحت مصر قبلة لهم حتى فاق عدد من زارها خلال العقدين الأولين من القرن التاسع عشر عدد من زارها خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر والسبب فى ذلك يرجع لانتهاء الحروب النابوليونية فى أوروبا تلك الحروب التى حجزت الرحالة البريطانيين خلال العشرين سنة الأولى من القرن التاسع عشر عن الوصول إلى سواحل البحر المتوسط وأصبح الشرق هدفًا أساسياً للبريطانيين لدراسته بمنهج بعيد عن الخيال فقام العديد من الرحالة بزيارته لا لمجرد إشباع الفضول والشغف بكل ما هو جديد ، وإنما لفت الشرق بصفة عامة ومصر بصفة خاصة الأنتباه لموقعها الاستراتيجى الهام وبثرواتها وبمظاهر التقدم والتحديث فيها منذ عهد محمد على حتى نادى البعض باحتلالها ، كذلك كان من أهداف الزيارة إشباع فضول الرأى العام الغربى الذى بات مولعاً بكل ما يتعلق بمصر ولا سيما بعد نشر رحلات ومقالات الفرنسيين عنها فبدأ الاهتمام الواقعى بمصر ، كذلك كان لآثار مصر أهمية كبيرة ، يتضح ذلك من إنشاء القاعة المصرية فى متحف لندن فى عام ١٨١٢ ، كذلك شجعت الجمعية الجغرافية البريطانية

الرحالة على المجئ إلى مصر ، وفى عام ١٨٣٦ أسس دكتور وولن الجمعية المصرية وكانت مركزا للقاء الرحالة ولجمع المعلومات المتعلقة بمصر وتسجيلها وتيسير الدراسة والأبحاث من خلال مكتبة تضم أهم الكتب عنها ، كما أولت الأكاديميات الأهتمام بمصر ولا سيما أكاديمية الفنون فى لندن التى اهتمت بالآثار والرسوم(١٣).

ومن الطريف أن العديد من المؤلفات ظهرت عن الأزياء المصرية القديمة ، والأساطير الفرعونية ، والعمارة الإسلامية ، إلى جانب الاهتمام بالحياة اليومية فى مصر وهو ما دفع الناقد الفنى الشهير جون راسكين يطالب بالخروج من « دائرة الاهتمام بمصر والتعرف على مخلوقات أخرى غير العرب والجمال »(١٤).

فى نهاية القرن التاسع عشر وبعد الاحتلال البريطانى لمصر عام ١٨٨٢ انتشرت الكتب المرشدة عن مصر مثل كوك كتبه واليس بادج ، وتضمنت قوائم طويلة يمكن أن يتزود به رحالة النيل من أدوات قياس وأسماء فنادق وأماكن وآثار ، كذلك دليل ماريز الذى اهتم بارشاد السائحين الراغبين فى الإقامة فترة طويلة عن استئجار المنازل(١٥) وأخيراً يجب ألا نغفل أن أحوال بريطانيا الداخلية وما تمتعت به من استقرار كان من أهم أسباب مجئ الرحالة إلى مصر ، ولا سيما وإنها تمتعت لفترة طويلة بالثراء وانتعاش التجارة مما نتج عنه الاهتمام بالأدب والسفر وتطور علم الأنساب والأنثروبولوجى وقد امتد هذا الاستقرار لفترة طويلة ولا سيما فى العصر الفيكتورى ويمكن القول أن الشعب البريطانى كان يشعر بتفوقه على غيره من الدول الأوروبية(١٦) وقد لعب التوسع البريطانى واكتشاف ما وراء البحار ، دوراً فى التصدى للمنافسة الفرنسية حتى يستقيم الميزان فى أوروبا To Redress the balance (١٧) .

الرحالة البريطانيون فى القرن الثامن عشر :

زار مصر العديد من الرحالة البريطانيين فى القرن الثامن عشر ، إلا أنهم لم يقيموا فيها لفترات طويلة ، وإنما مروا عليها أثناء ذهابهم إلى الهند أو أثيوبيا ، فلم

تكن مصر هى هدفهم الرئيسى خلال تلك الفترة ، كما كان الحال بالنسبة للفرنسيين الذين قدموا وصفًا شاملاً عنها كان نواة وأساسًا لعلماء الحملة الفرنسية[١٨] ولذلك يمكن أن نطلق على الرحالة البريطانيين خلال هذه الفترة «الرحالة العابرون» ـ كما ذكرنا من قبل ـ لأنهم كانوا إما تابعين لشركة الهند الشرقية أى تجارًا ، أو مكتشفون ، أو أصحاب مناصب رسمية ، وقد تناقصت إعدادهم بعد إغلاق شركة الليفانت لقنصليتها فى القاهرة فى عام ١٧٦٧م[١٩] .

١ ـ الحاج يوسف أو جوزيف بتس :

تختلف رحلة جوزيف بتس عن غيره من الرحالة البريطانيين فى القرن الثامن عشر ، فهو لم يتبع شركة الليفانت أو شركة الهند الشرقية ، وإنما تبع سيده الجزائرى الذى أسره ، وترجع أهمية رحلته أنها أفادت غيره من الرحالة البريطانيين ، فاعتمدوا على ما كتبه ودونه على حسب ما ذكره ريتشارد بيرتون .

ولد جوزيف بتس فى أكسون فى بريطانيا ، وقد دفعه الفضول وحب المعرفة والذكاء للسفر فى عام ١٦٧٨ وكان فى الخامسة عشر من عمره ، ولكنه وقع فى أسر أحد البحارة الجزائريين فاتخذه عبداً ، ثم اعتنق جوزيف بتس الإسلام ، ولقب بالحاج يوسف بسبب رحلته إلى الحجاز لأداء الفريضة مع سيده ، وقد اعترف هو نفسه فى مؤلفه بأنه لم يجبر على اعتناق الإسلام ، سلك جوزيف بتس مع سيده طريقًا بريًا من الجزائر إلى الإسكندرية ورشيد ومنها أبحر فى النيل وزار مدن البحر الأحمر ولا سيما السويس متجهًا إلى الحجاز ، وعاد إلى الجزائر ومكث فيها عدة سنوات ، ثم تمكن من العودة إلى موطنه الأصلى بريطانيا حيث بدأ جولة جديدة فى أوروبا فزار إيطاليا وألمانيا وهولندا وأصدر فى عام ١٧٠٤ كتابا بعنوان « حقائق عن الإسلام » أى بعد رحلته بأكثر من عشرين عامًا وقد ذكر الرحالة البريطانى ريتشارد بيرتون بأن مؤلف جوزيف بتس أفاد منه الرحالة كما تأثر به علماء الحملة الفرنسية ، وأكد أن نابليون بونابرت قرأه وهو على ظهر المركب التى نقلته إلى مصر إلى جانب ما قرأه للرحالة الفرنسيين[٢٠] .

٢ ـ بوكـوك :

زار بوكوك مصر فى الفترة من ١٧٣٧ إلى ١٧٤٢ ، وتجول فى المدن المصرية ، واستطاع الوصول إلى أسوان ومنطقة البحر الأحمر ، وتفقد الأديرة القبطية فيها ، وزار شبه جزيرة سيناء ونشر مؤلفه فى لندن فى عام ١٧٦٣[٢١] .

٣ ـ جيمس بروس

يرجع الفضل لجيمس بروس فى حل كثير من الغموض الذى أحاط نهر النيل ، وقد قام بروس بعدة جولات فى أوروبا ، ومنها سافر إلى سورية ثم إلى الإسكندرية فوصلها عام ١٧٦٨ ، ثم اتجه إلى القاهرة ، وتوغل فى مدن مصر الجنوبية وقنا والصعيد والقصير خلال عام ١٧٦٩ ، كذلك طاف بمدن البحر الأحمر وزار جدة ومنها حصل على خطابات توصية من شريف مكة للتوجه إلى الحبشة واتجه بروس إلى شرق أفريقيا ، واتصل بحكام الحبشة ، وقد تضمنت ملاحظاته عن الحبشة معلومات هائلة فى الجغرافيا والتاريخ ، والأنثوجرافية ، والعلوم هذا وقد زار اكسوم وجوندار ، ثم قدم مؤلفاته إلى جورج الثالث ملك بريطانيا هذا وقد أدت معرفة بروس بالطب إلى تقربه من حاكم الحبشة الذى أنعم عليه بإحدى القرى وجعله رئيسًا للخيالة وحاكمًا لإحدى المقاطعات وأعطاه حرية التجول فى أنحاء البلاد[٢٢] وقد نشر بروس رحلته فى سبعة مجلدات مدعمة بالخرائط وأعطى وصفًا كاملاً لبحيرة تانا والجزر المنتشرة فيها[٢٣] .

٤ ـ لوزينيان

خلال فترة الاضطرابات التى مرت بمصر وتولى علـى بك الكبير مقاليد الأمور، قام لوزينيان بزيارتها وقدم وصفًا عنها وعن على بك الكبير ، ثم نشر كتابه بعد عودته بعدة سنوات فخانته ذاكرته فى كثير من أسماء الشخصيات والبلدان[٢٤] .

٥ ـ آنتس :

شهدت مصر مجيء رجال الدين البريطانيين لنشر مذهب الكنيسة الإنجليكانية فجاء أنتس من لندن إلى القاهرة فى عام ١٧٧٠ وتتبع آثار بروس فى الحبشة ، ولكن بعثته الدينية فشلت ، لأنه لم ينجح فى تحويل أقباط مصر عن مذهبهم ولاقى المصاعب فى الصعيد ولا سيما فى البهنسا فرحل عن مصر عام ١٧٨١ ووضع مؤلفا عن العادات فى المنطقة[٢٥].

جدير بالذكر أن محاولة تحويل أقباط مصر عن مذهبهم الأرثوذكسى قد فشلت خلال القرن الثامن عشر سواء من جانب البريطانيين أو الفرنسيين وتعتبر بعثة الأب كلود سيكار[٢٦]. من أشهر البعثات التنصيرية الفرنسية ، وكان هدفها الرئيسى تحويل الأقباط إلى المذهب الكاثوليكى ، ولكنه لم يلق استجابة منهم ولذا جاء مخطوطه الذى دونه عن رحلته مليئًا بالسخرية من الكنيسة القبطية وفيه العديد من المبالغة والتعصب فالمذهب الأرثوذكس يحوى العديد من الخرافات والأقباط فى نظره جهله ولا سيما الرهبان فى الأديرة الذين يحفظون أساطير القديسين الأقباط ، وقد وصف رهبان أديرة البحر الأحمر بأن عقولهم فارغة والحقيقة أن فشل الأوروبيين فى مهمتهم أدى إلى الغلو فى مهاجمة الأقباط والرهبان فالكتابات التى دونوها متشابهة تدور كلها حول الجهل والخرافات[٢٧].

٦ ـ فـاى :

زار فاى مصر وهو فى طريقه من بريطانيا إلى الهند فى عام ١٧٧٨ ودون ملاحظاته ومشاهداته عن الاسكندرية والقاهرة والسويس ووضع مؤلفه بعنوان رسائل من الهند[٢٨].

٧ ـ كابـر :

عمل فى خدمة شركة الهند الشرقية وله دراسة عن طريق المواصلات إلى

الهند عبر مصر ، وكانت له خبرة بالطرق البحرية الموصلة بين أوروبا والهند ونشر رحلته فى عام ١٧٨٣ (٢٩).

٨ ـ بلدوين :

زار مصر ، وكتب عن أحوالها السياسية وانحصرت كتاباته عن تجارة الرقيق فى مصر والاسكندرية ونشر كتابه الأول فى عام ١٧٩٠ ويعد تقريرا عن أحوال تجارة الرقيق الأبيض أى المماليك (٣٠) أما كتابه الثانى (٣١) فقد نشر فى لندن فى عام ١٨٠١ (٣٢).

هذا وقد وفد على مصر العديد من الرحالة نذكر منهم بروان الذى زارها فى عام ١٧٩٢ وهو فى طريقه إلى الحبشة وسجل مشاهداته عنها (٣٣) ، كذلك نذكر جلجهورن وهو استاذ للتاريخ فى جامعة سانت اندروز ، زار مصر وهو فى طريقه إلى سيلان ، واتصل يبلدوين ، وروزيتى ، وقدم عدة مقترحات (٣٤) بشأن مواصلات بريطانيا بين الهند ولندن عبر طريق البحر الأحمر ومصر ، وقد نشرت تلك المقترحات فى لندن عام ١٨٢٥ (٣٥).

يلاحظ مما سبق أن رغم كثرة أعداد الرحالة البريطانيين الذين زاروا مصر خلال القرن الثامن عشر ، إلا أن إقامتهم كانت قصيرة ، ورغم أنه كان من بينهم الجغرافيون والمستكشفون ، والتجار ، ورجال الدين إلا أن مؤلفاتهم لم تصل إلى مستوى ما دونه الفرنسيون (٣٦).

هذا وقد شهدت مصر قدوم رحالة من جنسيات مختلفة نذكر على سبيل المثال فردريك نوردن الدانمركى (٣٧) وهورنمان الألمانى (٣٨) والراهبان الروسيان هيبولت فيكنسكى (٣٩) وبارسكى (٤٠) أما عن أشهر الرحالة المسلمين الذين زاروا مصر خلال القرن الثامن عشر نذكر منهم أبو القاسم الزيانى وله مؤلف هام الترجمان الكبرى فى أخبار المعمورة براً وبحراً وتعد رحلته مصدراً هاماً للحجاج المغاربة المارين بمصر (٤١).

الرحالة البريطانيون فى القرن التاسع عشر :

شهد القرن التاسع عشر وفود العديد من الرحالة البريطانيين كانت مصر هدفهم الرئيسى من الزيارة فلم يمروا عليها مرور العابرين وإنما أقام العديد منهم فيها لعدة سنوات نذكر منهم :

١ ـ وليم هامتون William Hamilton :

زار مصر ونشر كتابه « مصريات » بعد ثمانى سنوات من زيارته ، وأصبح الكتاب مصدراً رئيسياً للبريطانيين ولا سيما فى مجال الآثار ، وكان الغرض من كتابه سد الثغرات التى تركها الدانمركى نوردن وغيره عند الحديث عن الآثار المصرية ، وقد أخرج كتابه بأسلوب اليوميات ، ولم يهتم وليم هاملتون بالحياة المصرية ، ولم يلتفت إلى الحياة الاجتماعية وإنما انصب اهتمامه بالآثار ورغم أهمية مؤلفه إلا أنه لا يرقى إلى ما سجله شامبليون وهكذا دون ملاحظاته فى فصول حسب الموضوع دون أن يتبع تسلسل الأحداث فقد كان هدفه الرئيسى هو تدوين المعلومات عن آثار مصر فانحصرت جهوده فى المجال الأثرى[٤٢].

هنرى صولت Henry Sault :

زار صولت مصر فى عام ١٨٠٦ وعين قنصلاً لبريطانيا فى مصر وقد اهتم اهتماماً كبيراً بالآثار المصرية فجمع عدداً كبيراً من القطع الأثرية لحساب أحد أثرياء بريطانيا ، وقد ساعده فى ذلك أحد الإيطاليين ويدعى جيوفانى بلزونى الذى وصل إلى مصر فى عام ١٨١٥ لبيع رافعة لنقل مياه النيل ، غير أن مشروعه أخفق ، فوطد صلته بصولت ونجح فى القيام ببعض الاكتشافات الأثرية ، ففتح منفذاً إلى معبد أبى سمبل ، وأزاح الرمال عن مدخل الهرم الأوسط ، كما كشف عن مقبرة سيتى الأول فى وادى الملوك ووضع بلزونى مؤلفا ترجم ونشر فى باريس فى عام ١٨٢٦[٤٣] أما هنرى صولت فقد نشر مؤلفه وهو يحوى ملاحظاته عن مصر والهند وأثيوبيا والبحر الأحمر[٤٤].

ويؤخذ على بلزونى أساليبه فى التنقيب عن الآثار فقد وصفت بأنها «متهورة» غير علمية لأنه هدم العديد منها أثناء الكشف ، وإنه لم يتورع فى إشعال النيران فى عظام الموميات ومخلفاتها لإضاءة بعض الأماكن التى كان يقوم بالتنقيب فيها ولكن رغم هذه السلبيات إلا أنه قدم مجموعة رائعة من الآثار المصرية إلى المتحف البريطانى فحقق بذلك الهدف من زيارة صولت ومن الطريف أن بلزونى لقب بشمشون الجبار ، ومارد بادوا وذلك لأنه حين احتدم الخلاف بينه وبين العمال النوبيين فى معبد أبى سمبل استغنى عنهم وأخذ بحفر بيديه حتى كشف المعبد[٤٥].

٣ ـ جون جاردنر ويلكنسون J. G. Wilkinson :

وصل جاردنر إلى مصر فى عام ١٨٢١ ، وأمضى اثنى عشر عاما فى القاهرة، وقد أفاد من فك رموز اللغة الهيروغليفية على يد شامبيليون مما أعطاه دفعة قوية لعلم المصريات ، وأدت جهوده فى التنقيب ، إلى الكشف عن عدداً من أجمل مقابر طيبة مولها روبرت هاى الثرى الاسكتلندى ، وقد نشر جاردنر جهوده فى مجال الحفائر فى الفترة من ١٨٢٨ حتى ١٨٣٤ فى كتاب بعنوان «طبوغرافية طيبة والمسح العام للقطر المصرى» ويعتبر كتابه أول تنقيح لما ورد فى وصف مصر لعلماء الحملة الفرنسية وفى عام ١٨٣٧ نشر كتابه « المصريون القدماء عاداتهم وتقاليدهم»[٤٦] هذا وقد زود جاردنر مؤلفه بعدد كبير من الرسوم معظمها من إنجاز بونومى وهو من أبرع الرسامين خلال هذه الفترة ، وقد تعاون الاثنان وأصبحا من أهم ناشرى علم المصريات الجديد وبذلك يمكننا القول بأنه إذا كان صولت يعد من جامعى الآثار فإن جاردنر يعتبر رائد علم الآثار فقد قضى فى أحد مقابر طيبة فترة طويلة ينقب عن المقابر عاكفًا على إعداد الرسوم وتصنيف المقتنيات فى سجلات أى أنه لم يهدم الآثار مثلما فعل بلزونى من قبل وإنما تعامل معها بفن واحترام ولذلك ارتفعت قائمة جاردنر على رأس قائمة الرواد الأثريين ومعظم رسوم كتاب جاردنر رسمها الفنان بونومى وهو من أبرع رسامى الهيروغليفية[٤٧].

٤ - وليم رو ويلسون Rae Wilson :

زار مصر وغلبت على كتاباته روح الحقد والسخرية ونشر كتابه فى لندن عام ١٨٢٣ بعنوان رحلات إلى مصر والأراضى المقدسة[٤٨] .

٥ - مادين Madden :

عاش الجراح مادين فى مصر فى الفترة من ١٨٢٤ حتى ١٨٢٧ ووضع مؤلفًا بعنوان رحلات فى تركيا ومصر والنوبة وفلسطين وقدم وصفا لمدينة القاهرة ولا سيما وأنه أعجب بها كثيراً ووجد أنها تفوق استانبول جمالا[٤٩] .

٦ - أدوارد وليم لين E. W. Lane :

ولد إدوارد لين فى هيرفورد فى ١٧ سبتمبر ١٨٠١ وهو الأبن الثالث لثيوفلوس لين الكاهن بكاتدرائية هيرفورد . أظهر تفوقًا فى الرياضيات والأدب فقرر والده إرساله إلى جامعة كامبريدج بهدف الانضمام إلى الكنيسة فى فترة لاحقة ، ولكنه ما لبث أن تخلى عن هذه الفكرة ولحق بأخ أكبر له فى لندن حيث كان يعمل فى مجال الطباعة الحجرية والنقش ، وانكب ينهل من منابع اللغة العربية حتى أنهك صحته وأصيب بعارض حمى فكان لا بد له من الانتقال إلى الخارج طلبا للشفاء ، فاختار الشرق لكى تتاح له فرصة الشفاء والمثابرة على دراسته . وصل لين إلى مصر فى نهاية عام ١٨٢٥ وكان لم يزل بعد فى الرابعة والعشرين من عمره وعقد العزم على دراسة اللغة العربية وطبائع الشعب المصرى على حد سواء ولذلك ارتدى الزى التقليدى المصرى ، وعهد إلى استاذين تعليمه اللغة العربية وأحكام الشريعة . واختلط بالناس وعاش وسطهم ، متخذا لنفسه أسمًا عربيًا . وامتنع عن أكل كل ما حرمه الدين الإسلامى ، وارتاد منازل القاهرة وأسواقها وجوامعها حتى أكتسب ثقة المصريين وتمكن من التغلغل إلى أعماقهم متناسيا أنه إنجليزى ، ولقد حذا حذوا لين العديد من الرحالة السابقين مثل الأمريكى فرنسيس باركمان الذى عاش مع هنود أمريكا الشمالية ، وارمينيوس فامبرى الذى تنقل بين تتار آسيا الوسطى،

ولكن ميزة لين أنه استمر مدة أطول ممن سبقوه هذا وقد عاد لين إلى بريطانيا فى عام ١٨٢٨ ولم يجد ناشرا لنشر مؤلفه « فى وصف مصر » ثم رأى السفر إلى مصر ثانية لتحسين مؤلفه فعاد إليها فى عام ١٨٣٣ وبقى فيها عامين ، اكتسب خلالهما معرفة بها فوضع مؤلفه عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم[٥١] الذى صدر فى عام ١٨٣٦ فى جزءين زوده برسوما رسمها بنفسه فحقق مؤلفه الثانى نجاحا سريعًا منقطع النظير ، ثم عاد لين إلى مصر ثانية فى عام ١٨٤٢ بعد أن وضع فى بلاده العديد من المؤلفات وبقى فى مصر فى هذه المرة سبع سنوات يعد العدة لإصدار المعجم العربى وقد صدر الكتاب بعد وفاته فقد قضى لين عشرين عاما يدقق ويمحص قبل أن يسمح بنشره وأخرجه فى خمسة أجزاء وتوفى فى عام ١٨٧٦ فى الخامسة والسبعين من عمره أما الجزء المتبقى من المعاجم فتم نشره ١٨٧٦ ، ١٨٩٠ بإشراف حفيده ستانلى بول ورغم عدم تقدير أية جامعة بريطانية لما أنجزه لين فقد نال درجة الدكتوراه فى الأدب فى الذكرى المئوية لجامعة ليدين ، كما انتخبه المعهد الفرنسى عضوا مراسلاً ، ومنحته الحكومة البريطانية فى سنواته الأخيرة مخصصات ملكية تمنح عادة للأسرة المالكة[٥٢] .

لقد خطط لين ليكون مختلفا عن غيره بتقديم العديد من اللوحات والرسوم ولا يزال المتحف البريطانى يحتفظ بأصول وصف مصر الذى قام جيسون طومسون أستاذ التاريخ بالجامعة الأمريكية بالقاهرة بنشره بعد أن عانى من الإهمال[٥٣] .

وجدير بالذكر أنه طرأ تغيير فى مؤلفات البريطانيين والتى انحصرت حتى العشرينات من القرن ١٩ فى معالجة الآثار المصرية القديمة ، وبمجئ لين طرأ تغيرا كبيرًا فحياة المصريين بدأت تجذب الانتباه وتأخذ شكلا جديدا للدراسة الجادة وبعد نشر مؤلف لين المصريين المحدثين فى عام ١٨٣٦ اتسع زوار مصر من السياسيين والمبعوثين والتجار والسائحين[٥٤] وأخيرًا لقد تزوج لين بجارية مصرية تدعى نفيسة كانت فى الأصل يونانية أهداها روبرت هاى له فتعهدها بالرعاية إلى أن تزوجها وامتد بها العمر وباعت مخطوطاته لمكتبة المتحف البريطانى[٥٥] .

٦ ـ روبرت هاى Robert Hay :

روبرت هاى اسكتلندى جاء مصر خلال ١٨٢٨ ـ ١٨٣٦ وأعجب بأسلوب الحياة الشرقية ، تعلم اللغة العربية ، فضل سكنى الأحياء الشعبية ووضع مؤلفا هاما بعنوان « صور من القاهرة »[٥٦] واتخذ هاى لنفسه وزوجه وأعضاء بعثته من أحدى مقابر طيبة مقرا له وزودها بالأرائك والنرجيلات ووضع فيها العديد من المؤلفات والمعاجم ، وقد رسم هاى شوارع القاهرة ، ومساجدها ، وأسبلتها ولا سيما سبيل أم عباس هذا وما زال مؤلف هاى محفوظًا فى المتحف البريطانى وقد مول روبرت هاى العديد من الحفائر[٥٧] .

٧ ـ جيمس أوجستس سانت جون St John :

زار سانت جون مصر فى نوفمبر ١٨٣٢ ، اهتم خلال رحلته بتسجيل أحوال مصر الاقتصادية ، التقى بالعديد من الشخصيات فتقابل مع محمد على وبعض المسئولين فى حكومته ، كما التقى بقناصل الدول الأوروبية والقنصل الأمريكى ، وأجرى العديد من اللقاءات مع البريطانيين العاملين فى خدمة محمد على وقد ذكر فى مقدمة مؤلفه بأن هدفه من زيارة مصر هو رصد للعادات والتقاليد المصرية كما سجل هو نفسه عن أسباب زيارته « لقد سمعت وقرأت عن مصر ، ولكن أردت بهذه الزيارة أن أقدم إضافة جديدة لها دون غيرى » كما اعترف بأنه أفاد من المقابلات واللقاءات التى أجراها مع الأوروبيين وغيرهم ووصفهم « مصادرى من المشاهدين الذين كانت شهادتهم ضياء لى » .

وكل ما قدمه سانت جون من وصف للإدارة والأقاليم فى مصر ومن وصف لأحوال البلاد الاقتصادية اتسم بالسرعة بأنه جاء سريعا ، ويشعر القارئ من خلاله بأنه لم يتعمق فى الدراسة ولا سيما عندما يسجل ملاحظاته عن الآثار والمدن المصرية[٥٨] .

٨ ـ البارود كيزون Kuzon :

زار مصر وفلسطين فى عام ١٨٣٣ بحثا عن المخطوطات الأثرية فى مكتبات الأديرة القديمة وأسفرت رحلته عن كتاب ظهر فى لندن عام ١٨٤٩[٥٩] بعنوان «زيارات لأديرة الشرق الأدنى» لاقى نجاحا منقطع النظير وطبع عدة مرات حتى عام ١٨٩٧ وقد رسم كيزون فى مؤلفه صورة للمجتمع المصرى والحياة الاجتماعية فيه[٦٠] .

٩ ـ الكسندر كنجليك Alexandre Kinglake :

زار كنجليك مصر فى عام ١٨٣٤ واستغرق إعداد مؤلفه عنها عدة سنوات رغم قلة عدد صفحاته ، وقد أهدى مؤلفه أيوثن إلى صديقه اليوت وربيرتون ليتخذا منه مرشداً لهما فى رحلاتهما إلى الشرق وقد اعترف كنجليك بأن مؤلفه سطحى الطابع وأنه لم يحاول فيه أن يستمد أية معلومات من غيره من المؤلفين وإنما قصد بتأليفه أن يسجل انطباعه عند زيارة الشرق وأن يوضح الفارق بينه وبين الغرب ومؤلف كنجليك أقرب إلى القصة ولذلك أطلق عليه اسم أيوثن الذى يعنى باليونانية الفجر وقد ظهر مؤلفه إلى النور فى عام ١٨٤٤ وتم إعادة طبعه عدة مرات[٦١] .

١٠ ـ وربيرتون Warburton :

من أكثر الشخصيات تعصباً ضد مصر دعا فى هذه الفترة المبكرة من القرن ١٩ لاحتلالها فهى فى نظره على وشك الوقوع وهى تلقى العون بالتدريج من الثروات التى تجود بها عليها انجلترا غير مدركة ما سيترتب على ذلك من نتائج وهى مع مرور الأيام تنزلق رويداً رويداً فى شرك الأغلال الذهبية ورأى بيرتون بأن مصر هى طريق الأطماع البريطانية إلى الهند[٦٢] وأطلق على مؤلفه الهلال والصليب[٦٣] .

١١ ـ جون بورنج John Bowring :

يعتبر بورنج من أهم السياسيين الذين زاروا مصر وترجع شهرته إلى التقرير الهام الذى قدمه إلى بلمرستون وزير الخارجية البريطانية فى عام ١٨٣٩ وكان عنوانه

«تقرير عن مصر وكريد» وقد طبعته الحكومة البريطانية وقدمته إلى البرلمان فى عام ١٨٤٠ (٦٤).

سافر بورنج فى عام ١٨٣٥ إلى فرنسا لبحث العلاقات التجارية بين البلدين ، ثم تجول فى سويسرا ، وإيطاليا ، والشام ، ومصر وبعض الإمارات الألمانية لنفس السبب ، ثم رفع بعد عودته إلى البرلمان البريطانى تقارير شاملة بنتائج ما قام به من بحوث ورغم ما قدمه بورنج من خدمات جليلة إلا أنه ظل بعيداً عن البرلمان بعد أن خسر معركته الأنتخابية ، ولكن سرعان ما عين مرة ثانية فى عام ١٨٤١ ، وفى عام ١٨٤٩ عين قنصل فى كانتون فى الصيف ، ثم حاكما على هونغ كونغ فى عام ١٨٥٤ وفى العام التالى زار سيام لعقد معاهدة تجارية بين البلدين ثم اعتزل بورنغ العمل ، ولكنه عاد مرة ثانية فى عام ١٨٦١ وأوكل إليه بحث العلاقات التجارية بين بريطانيا وإيطاليا وهو آخر عمل عهدت به الحكومة إليه قبل أن يكون وزيراً مفوضاً ومبعوثاً فوق العادة لحكومة هاواى فى أوروبا وقد توفى بورنغ فى عام ١٨٧٢ (٦٥).

والذى يهمنا من الرحلات وزيارات بورنغ هو زيارته لمصر موفد من قبل الحكومة البريطانية لوضع تقرير عن حالتها ، وما ينتظر أن تكون عليه فى المستقبل ، ولذلك أظهر منذ قدومه نشاطا واسعاً وعكف على جمع المعلومات والإحصاءات عن البلاد ومنتجاتها واعتمد فى تقريره على السلطات المحلية فاتصل بموظفى الحكومة من المواطنين والأجانب ، وحصل على بيانات وإحصاءات من القنصلين كامبل القنصل العام ، وثوربورن قنصل بريطانيا فى الإسكندرية كما اتصل بقناصل الدول الأوروبية ولم تقتصر مهمة بورنغ على إعداد التقارير ، وإنما اهتم بتقوية علاقته مع محمد على مما آثار مخاوف كوشليه القنصل الفرنسى الذى كتب لحكومته بأن هدف بورنغ هو مكافحة النفوذ الفرنسى فى مصر (٦٦).

١٢ ـ وليم ثاكرى W. Thackeray :

زار مصر فى عام ١٨٤٦ له مؤلف بعنوان من « كورن هيل إلى قلب القاهرة

الكبرى » سخر فيه من الشرق ومحمد على ووجه الاتهامات إلى الفرنسيين وسخر منهم وكتب أن إنجازات نابليون فى مصر لا تذكر ولا تزيد عن هزيمة المماليك ودعا إلى ضرورة أن تنتهز بريطانيا الفرصة لكى تتسلل إلى مصر وتأخذ مكانة الفرنسيين وأهم ما جذبه فى مصر العمائر والفنون(٦٧) .

١٣ ـ جون جرين و وفرانسيس فريث :

زار المصوران (٦٨) مصر وأحدثت المجموعات التى تم تصويرها ضجة كبيرة فى لندن وقد عاش جون جرين فترة فى باريس وتأثر بالمصورين الفرنسيين ولا سيما جاك مانديه داجير J. Mande Daguerre الذى برع فى التصوير الفوتوجرافى وكان قد قدم إلى مصر فى عام ١٨٣٩ مع زميله هوراس فرنبيه ونجح فى التقاط أقدم صورة فوتوجرافية لمشهد الحريم فذاعت شهرته ، وحاول جون جرين أن يحذو حذو زميله الفرنسى فنشر مجموعة من الصور بلغت المائة بعنوان « النيل ، آثاره ومناظره ، استطلاعات فوتوجرافية » طبعها فى باريس ١٨٥٤ ثم نشر كتابه فى عام ١٨٥٥ «حفائر طيبة نصوص هيروغليفية ووثائق لم يسبق نشرها » وسمح له سعيد باشا بالتنقيب عن الآثار فى مدينة هابو(٦٩) أما زميله فرانسيس فريث فقد زار مصر ١٨٥٦ ـ ١٨٥٩ ونشر كتابه فى جزئين عن مصر وفلسطين وطبع منه ألف نسخة لاقت نجاحا كبيرا مما دفع الصحف البريطانية إلى الثناء عليه ولا سيما صحيفة التايمز وقد قام فريث بتصوير هرم سنفرو ، وتمثال ممنون ، والمعابد الجنائزية إلى جانب العديد من الصور عن مدينة هابو(٧٠).

١٤ ـ ريتشارد بيرتون R. Burton :

ولد ريتشارد بيرتون فى عام ١٨٢١ وهو من أصول انجليزية وأيرلندية وربما فرنسية ، وهو أول أوروبى يكتشف بحيرة تنجانيقا نشر ٤٣ مجلدا من رحلاته ، وترجم إلى الإنجليزية من العربية والفارسية وغيرها ثلاثين كتابا بما فيها النص الأصلى لألف ليلة وليلة ، اتقن العديد من اللغات واللهجات ، وبرع فى الإنجليزية

والإيطالية واللاتينية واليونانية إلى جانب اللغات الشرقية ، التحق بجامعة أوكسفورد ثم تركها فى عام ١٨٤٢ ليعمل ضابطا بالجيش البريطانى فى الهند أثناء المعارك التى خاضتها القوات البريطانية ضد الوطنيين فى السند ، ثم زار مصر وهو فى طريقه إلى الحجاز عام ١٨٥٣ وفى عام ١٨٥٤ انتقل إلى هرر وخطط مع ثلاثة ضباط بما فيهم المكتشف سبيك لكشف منابع النيل توغل فى شرق أفريقيا فى الفترة ما بين ١٨٥٧ و ١٨٥٨ فقد أسندت إليه الجمعية الجغرافية البريطانية اكتشاف ساحل أفريقيا الشرقى وفى عام ١٨٥٧ وصل مع سبيك إلى زنجبار ومنها إلى بجامايو وطابورة ثم وصل بحيرة تنجانيقا تم اكتشافها فى عام ١٨٥٨ ثم قام بيرتون بعدة رحلات إلى الولايات المتحدة الأمريكية وإلى غرب أفريقيا وكتب عنها خمسة كتب لاقت رواجا واهتماما من علماء الأنثروبولوجيا (٧١) .

والذى يهمنا أن بيرتون قام برحلته إلى مصر فى عام ١٨٥٣ أى فى أواخر عهد عباس ، فكانت مصر تمر بمرحلة جديدة وخطيرة وترجع خطورة مؤلف بيرتون « أنه حرض حكومته على احتلال مصر فكتب أن مصر موشكة على الوقوع » لا بد من وضع اليد عليها(٧٢) .

وبعد وفاة بيرتون قامت زوجته أيزابيل بيرتون بإعادة نشر مؤلفاته وقد ذكرت فى مقدمة إحدى الكتب بأنها فكرت فى كيفية رد الجميل له وكيفية تمجيده فوجدت أن أفضل عمل هو تعريفه لمواطنيه وما قام به من رحلات فى جهات عديدة فقد توفى بيرتون عن ٧٠ عاما فى أكتوبر ١٨٩٠ وخلال ٤٨ سنة الأخيرة من عمره عاش من أجل « مجد بريطانيا والسلالة البشرية على حد قولها »(٧٣) .

وأخيراً عند ختام الحديث عن الرحالة البريطانيين ينبغى ألا نغفل العديد من الرسامين الذين زاروا مصر لعل أشهرهم دافيد روبرتس الذى زار مصر فى عام ١٨٣٧ ووضع عنها كتابا بعنوان الأراضى المقدسة ومصر والنوبة ضمنه مجلدات ثلاثة فضلا عن مجلده عن مدينة القاهرة ، وقد ساهم دافيد روبرتس فى تعريف أوروبا بالعمارة الإسلامية ، وجرى عرض لوحاته فى لندن وسائر المدن البريطانية وطلبت الملكة

فيكتوريا رؤية لوحاته ، التى ضمت مساجد القاهرة ، والمعابد الفرعونية وقد أبدع فى رسم أطلال معبدى الأقصر ودندرة ومعبد ادفو ، كما قام برسم عدة لوحات لمحمد على ، وسعيد باشا ثم زار مصر جون فردريك لويس فى عام ١٨٤١ ، ورسم العديد من الرسومات عنها ، فظهرت فى عام ١٨٥٠ لوحاته عن الحريم التى هزت الأوساط الفنية ، وفى عام ١٨٥٢ عرضت لوحته «كاتب عمومى بالقاهرة» التى حظيت بشهرة كبيرة . وفى عام ١٨٥٨ زار مصر فردريك جو دول بتوصية من روبرتس ورسم مائة وثلاثين لوحة زيتية عن الحياة اليومية والمعاصرة فى القاهرة والريف المصرى ثم عاد إلى مصر من جديد فى عام ١٨٧٠ ، وغير هؤلاء كثير من المصورين البريطانيين مثل جوزيف كارسون وتوماس سيدون وجون فيد الذين خلفوا ثروة من اللوحات المصورة[٧٤] .

الرحالة البريطانيات :

زار مصر العديد من البريطانيات وبذلك نلاحظ أنه فى القرن التاسع عشر ظهرت عدة مؤلفات عن مصر حاولت فيها البريطانيات تقديم صورة للحريم فى ذلك الوقت ، وبذلك تفوقن على الرجال الذين لم يعرفوا سوى الغوازى والعوالم من نساء مصر ، لأن السيدات المحترمات المحجبات مصونات فى حريمهن وكانت زيارة البريطانيات تتم بشتى الطرق وغالبًا ما يكون الخدم طرفا لها فهن الوسطاء وكان الفضول من الجانبين إذا أن سيدات الحريم كن يتشوقن أيضًا لرؤية النساء السافرات الأجنبيات الائى يتمتعن بالحرية المطلقة فى السفر والخروج .

من الأسماء التى لمعت للبريطانيات نذكر ما يلى :

١ ـ هاريت مارتينو Harriet Martineau :

زارت هاريت مارتينو مصر وفلسطين فى عام ١٨٤٦ وألفت كتابها الذى نشر فى لندن عام ١٨٤٨ ولفت الأنظار ، وعنوانه الحياة الشرقية حاضرها وماضيها[٧٥] ، وتعتبر هاريت كاتبة محترفة تضم أعمالها روايات وكتبًا ومقالات فى التاريخ

والاقتصاد والإجتماع ، وفى المسائل الدينية والرحلات ، ولها ترجمة لأوجست كونت بعنوان الفلسفة الوصفية نشرت فى عام ١٨٥٣ ، كرست كل اهتمامها لقضية تحرير الرقيق ، ورأت أن مصر تستحق الدراسة العميقة والزيارة والتأمل وجاء اهتمامها أيضاً بالآثار المصرية القديمة وفى مؤلفها عن مصر ، لم تهتم بمصر المعاصرة إلا فى فصل موجز تشكو من انعدام المعلومات والإحصائيات ولم يرق لها نظام الحريم ، ولم تر فيه سوى نوع من العبودية(٧٦) .

٢ ـ صوفيا لين بول Sophia Poole :

ولدت صوفيا فى عام ١٨٠٤ وتوفيت ١٨٩١ فى هارفورد وهى صغرى أولاد القس ثيوفيلوس لين ، تزوجت فى عام ١٨٢٩ من القس أداورد ريتشارد بول وأنجبت أدوارد ستانلى ١٨٣٠ ـ ١٨٦٧ وريجينالد ستيورات ١٨٣٢ ـ ١٨٩٢ وقد كرس الأول حياته مثل خاله أدوارد لين للدراسات العربية فأكمل إتمام القاموس الذى وضعه لين وكتب سيرته وفى عام ١٨٤٢ قررت صوفيا بعد وفاة والدتها أن تصحب أخاها وزوجته ومعها أبناءها إلى مصر(٧٧) وعاشت صوفيا فى القاهرة سبع سنوات زارت خلالها حريم محمد على ، كما حصلت على معلومات وافرة عن الحياة الأسرية فى المجتمع الإسلامى نشرت رسالتها « أمرأة إنجليزية من مصر ١٨٤٤ ـ ١٨٤٦ »(٧٨) ترجع أهمية رسائلها أنها أظهرت تعاطفاً مع نساء مصر ، كما اتسمت بالموضوعية . هذا وقد ساعدت صوفيا شقيقها على تدوين ملاحظاته عن مصر كما شجعها فى نفس الوقت لكى تخوض تجربة الكتابة وقد وضع شقيقها تحت تصرفها مجموعة ضخمة من مذكراته غير المنشورة والتى سمح لها بالاقتباس منها فى رسائلها وعللت ذلك » لكى يخفف من رهبتى فى الكتابة والنشر ويهون على تدوين انطباعتى وملاحظاتى دون تقيد وحرج ، كما وعدها بأن يختار بنفسه الخطابات التى يراها صالحة للنشر وفى الوقت نفسه حرصت صوفيا على أن تبرز قيمة عملها ورسائلها التى دونتها عن مصر بأنها كانت بسبب قناعة أدوارد لين بأهميتها فسجلت « أخشى أن يظن القارئ أن عاطفته نحوى قد أثرت فى حكمه ،

ولكن يحدونى الأمل فى أن يلقى حسن القبول لما تتضمنته من مادة قيمة من قلم إنسان تكاد تكون مصر مألوفة له مثل الفته لانجلترا ، وبالفعل بدأت صوفيا فى تدوين سلسلة من الرسائل لصديقه وهمية أو لكل امرأة انجليزية يهمها أن تعرف شيئًا عن مصر[٧٩].

لقى الكتاب قبولا فى أوساط لندن فوصفه الرحالة كنج ليك فى مقال نشر فى إحدى الصحف البريطانية[٨٠] بأنه يفوق فى غزارة مادته عن الحريم الشرقى أى مصدرا آخر وقد أصدرت الجزء الأول للطبعة الأولى فى عام ١٨٤٤ فى لندن بعنوان المرأة الإنجليزية فى مصر وفى عام ١٨٤٥ ظهرت طبعة أمريكية لهذا الجزء الأول ، أما الجزء الثانى الذى يضم وصفًا لاحتفالات زفاف زينب هانم ابنة محمد على باشا فقد طبع فى لندن عام ١٨٤٦ ولم تصدر أى طبعات أخرى للكتاب منذ ذلك الحين[٨١] .

٣ - فلورنس نايتنجيل :

جاءت فى زيارة مصر بصحبة بعض الأصدقاء فى عام ١٨٤٩ لتستجم من انهيار عصبى انتابها بعد أن رفضت الزواج من شخص تعلقت به تعلقًا شديدًا ولكنها رفضت الزواج منه ، كما تقول لأنها فزعت من قضاء بقية حياتها معه ، فقد كانت ثائرة على الأوضاع الاجتماعية التى تحتم عليها نوعا من الحياة المترفة[٨٢] وقد ذكرت فى مؤلفها بأنها كانت تجد السعادة فى المعابد المصرية ، وأنها أثناء وجودها بين آثار القرنة فى غرب الأقصر ، سمعت صوت الرب يناديها فلا حب ولا زواج ، وبعد مغادرة فلورانس لمصر بسبعة أعوام قامت حرب القرم فكرست حياتها للتمريض ورفعت من شأن هذه المهنة إلى أعلى المستويات هذا وقد وضعت مؤلفها عن مصر ونشر فى عام ١٨٥٤[٨٣].

٤ - لوسى داف جوردن Lady Duff Gordon :

أصيبت بالسل وهى فى سن الأربعين فكان عليها أن تعيش فى مناخ جاف ،

فجاءت إلى مصر لتبقى فيها بعيدا عن زوجها وأطفالها ، تقطع النيل ذهابا وإيابا مع اختلاف الفصول وراء النسيم الجاف ، وتحملت قدرها بشجاعة مذهلة ، واختارت صحبة البسطاء من السقائين ، وسيدات الحريم ، والأطفال ، وكانت تأكل معهم فى مركبها فى طبق خشبى واحد ، وقد اتسم ما دونته عن مصر بالرقة والإنصاف بعثت برسائلها إلى زوجها ، وتعاطفت مع المصريين حتى أنها كتبت عن فترة حكم إسماعيل بأنها لو لم تكن معتلة لقاومت مظالمه ، أما مؤلفها رسائل عن مصر [٨٤] فهو مفعم بالحيوية والأوصاف النابضة للشعب الذى عاشت وسطه ، فقد تعلمت العربية وعاشت بين المصريين وتركت وراءها ذكرى عطرة ، لم تحظ بها سيدة أوروبية مرت بمصر وكانت تشيد بسياسة التسامح الدينى فى مصر وفى الوقت نفسه هاجمت الاتجاه الأوروبى لتنصير المسلمين واعتبرت ذلك سخفا وخطأ كبيراً ، ودافعت لوسى عن العقيدة الإسلامية التى وصفتها بأنها منطقية ، وهى تشجع على العمل وتدعو للتخلص من الكسل ، كما أكدت أن نصوص التوراة وسفر الأولين وسفر التثنية تنطوى على وثنية لم تجد لها أثراً فى القرآن الكريم وناشدت لوسى بألا تذاع آرائها حتى لا ينتقم منها اليهود كما أحرقوا غيرها[٨٥] .

٤ ـ أميليا إدواردز Amelia , Edwards :

زارت مصر خلال ١٨٧٣ ـ ١٨٧٤ ، اهتمت خلال تلك الفترة بدراسة علم المصريات وبذلت جهدا كبيرا فى الحفائر ووضعت كتابا بعنوان « ألف ميل صعودا فى النيل »[٨٦] وهو عمل ضخم من مجلدين قدمت وصفا لمدن الوجه القبلى ولعادات المصريين الاجتماعية[٨٧] وتعتبر أميليا أدواردز كاتبة محترفة ذات شخصية قوية تعيش بقلمها الذى أعطاها استقلالا ماديا اغناها عن الحياة الزوجية التقليدية وأكسبها حرية مطلقة فى التصرف جاءت إلى مصر وقامت بالرحلة النيلية المعتادة من القاهرة إلى أعالى الصعيد ووصفت مشاهداتها فى مؤلفها ، واكتسبت فى هذه الرحلة ولعاً بالآثار المصرية وانتابها خوف على مصير هذه الروائع التى سوف تنتهى إلى الفناء ، إذا تركت وشأنها للنهب والسلب العشوائى وكانت تحزن للتدمير

والتخريب الذى أصاب المعابد والتماثيل ولهذا عندما عادت إلى بريطانيا أسست فى عام ١٨٨٢ وبمساعدة ريجينالد ستيورات بول[٨٨] والذى كان يعمل فى المتحف البريطانى « صندوق تمويل الكشف الأثرى بمصر » وتركت كل اهتماماتها ، وكرست حياتها لجمع المال والعناية والكشف الصحيح على أيدى خبراء مختصين عن الآثار المصرية التى كانت تعتبرها تراثا لا لمصر وحدها بل للإنسانية جمعا ، ومن الضرورى إنقاذها بأى ثمن ، وقد تبنت الأثرى فلندرز بترى[٨٩] وساعدته بنفوذها وحينما توفيت أوصت بخمسمائة جنيه لجامعة لندن لإنشاء كرسى للآثار واللغة المصرية القديمة ، وكان بترى أول أستاذ يعين حسب رغبتها وهذا أول كرسى فى المصريات يؤسس فى بريطانيا [٩٠].

وجدير بالذكر أن أميليا أدواردز لم تكن أول من نبه لخطورة اندثار الآثار المصرية وضرورة حمايتها فقد لفت شامبليون العالم الأثرى الفرنسى انتباه محمد على لأهمية الآثار وكتب مذكرة بهذا الشأن عندما زار مصر فى عام ١٨٢٨ [٩١].

هذه وقد شهدت مصر فى القرن التاسع عشر مجئ العديد من الرحالة الفرنسيات التى نخص بالذكر منهم سوزان فولكان المصاحبة لبعثة السان سيمون فى عام ١٨٣٤ والتى لم تطل إقامتها بسبب إنتشار الطاعون فى عام ١٨٣٥ وقد عملت بالتمريض مع كلوت بك فى أبى زعبل ، ووضعت مؤلفًا عن ذكرياتها فى مصر[٩٢] أما الكونتيسة دى جسباران فكانت من أنصار محاربة تجارة الرقيق وقد زارت مصر فى عام ١٨٤٨ وسجل بواسى باربى رحلتها[٩٣] وفى عام ١٨٥٧ زارت مصر الممثلة راشيل على أمل الشفاء من مرضها إلا أنها توفيت فى قنا عام ١٨٥٨ بعد أن نشرت رسائلها عن مصر[٩٤] وفى عهد إسماعيل زار مصر كل من الكونتيسة جولييت دى روبرسا التى سجلت مشاهدتها وانطباعاتها فى عام ١٨٦٣ [٩٥] كذلك لويز كوليه الصحفية والأدبية[٩٦] ، وأخيراً مدام أولمب إدوارد التى أحدثت كتاباتها عن مصر ضجة كبيرة فى باريس وإن كانت قد اتسمت بالمبالغة والإثارة وعدم الموضوعية [٩٧].

وأخيراً لقد شهدت مصر وفود أعداد كبيرة من الرحالة الفرنسيين منهم الأثرى

والأديب والضابط والمؤرخ والفنان وغيرهم كما شهدت مجئ العديد من الأوروبيين لعل أشهرهم بوركهاردت السويسرى الذى زار مصر عام ١٨١٢ وركز اهتمامه بالقبائل العربية فقدم وصفا عنها[٩٨].

تنوعت وظائف الرحالة البريطانيين فنجد من بينهم الأثرى والأديب ، والمستشرق ، والمصور وأصبحت أخبار الاكتشافات الأثرية فى مصر تتصدر صدور الصحف البريطانية التى أولت اهتماماً كبيراً بالحضارة المصرية القديمة كما تأثر الشعراء والأدباء بتلك الحضارة ففى ميدان الشعر وضع شيلى قصيدته المعروفة باسم أوسيما ندياس فى عام ١٨١٨ مستوحياً الإلهام من رأس تمثال رمسيس الثانى وهذا يذكرنا بتأثر الأدباء الفرنسيين أيضاً بالآثار المصرية يتضح ذلك من رواية تيوفيل جوتيه التى أحدثت ضجة فى فرنسا وعنوانها أمسية كليوباترة كذلك ألف قصيدة بعنوان قدم مومياء تخيل فيه أنه وقع فى غرام فتاة صغيرة حينما عثر على قدم مومياء رقيقة لفتاة فى مقتبل العمر لم تطأ قدمها أرضاً قط ، ولم تلمس إلا أرق الحصر المصنوع من أعواد النخيل ، كذلك نشر قصيدة بعنوان « حنين بين مسلتين »[٩٩].

(هوامش الفصل الثانى)

(١) رجل دينى عمل فى حلب من ١٦٢٤ : ١٦٣٠ .

(٢) ١٦٤٦ ـ ١٧٢٠ .

(٣) ليلى الصباغ : الجاليات الأوروبى فى بلاد الشام فى العهد العثمانى ، بيروت ١٩٨٩ ، جـ٢ ص٩٠٠ ـ ص٩٠٥ .

(٤) تأسست الأكاديمية الفرنسية ١٦٣٥ أسسها ريشيليو وأضمت أكاديمية الرسوم وقد شجع ملوك فرنسا الفنانين منذ عهد فرانسو الأول ، أما أكاديمية المخطوطات فقد أصبح لها صنعة رسمية منذ عام ١٧٠١ وكان برنامجها المحدد هو الحب عن التاريخ ودراسة الأمم القديمة ، كما تأسست أكاديمية العلوم فى عام ١٦٦٥ وأولى الملك لويس الرابع عشر اهتمامه بالأكاديمية الملكية للتصوير والعمارة .

(٥) إلهام محمد ذهنى : التراجمة الفرنسيون ومبعوثو الأكاديميات فى أسكالات مصر فى القرن الثامن عشر . مقالة ضمن أبحاث المؤتمر الدولى . الترجمة ودورها فى تفاعل الحضارات جامعة الأزهر كلية الدراسات الإنسانية ص١٠٧٨ ص١٠٨٠ .

(٦) Carré, Jean " Vóyageurs et écrivains Français en Egypte le Caire 1922 tomel P. 41 .

(٧) ثروت عكاشة : مصر فى عيون الرحالة والفنانين والأدباء (القرن التاسع عشر) القاهرة ١٩٨١ جـ٢ ص٣٩ .

(٨) أثرت فكرة غزو منذ القرن القرن ١٧ وما يليها الأب كوبان ثم تجددت فى عهد لويس الرابع عشر إذ عرض عليه ليبينى مشروعاً لغزو مصر كذلك نادى السفراء الفرنسيون فى الأستانة بهذه الفكرة ثم نمت من جديد بعد هزيمة فرنسا فى السنوات السبع وأثناء حرب الاستقلال الأمريكية وفى عهد الثورة الفرنسية .

(٩) Roux , Charles . les orgines de l éxpedition d Egypte . Paris 1910 DP 304 - 305 .

(١٠) إلهام محمد ذهنى : مصر فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين فى القرن الثامن عشر ، القاهرة ١٩٩٢ ص٧٤ ـ ص ٧٥ .

(١١) محمد أنيس : النشاط الأوروبى بمصر وجيرانها فى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى: المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثانى ، العدد الثانى فى ١٩٤٩ ص١٢٦ .

(١٢) ثروت عكاشة : المرجع السابق ص٢٩١ ص٢٩٢ .

(١٣) المرجع السابق : جـ٢ ص٢٩٥ ص٢٩٧ .

(١٤) المرجع السابق جـ٢ ص٢٩٥ ـ ص٢٩٦ .

(١٥) المرجع السابق ص٣٤ .

(١٦) عبد العزيز نوار : التاريخ الأوروبى المعاصر أوروبا من الحروب البروسية إلى الحرب العالمية الثانية ١٨١٥ ـ ١٨٤٥ ، القاهرة ١٩٧٧ ص٣٥ .

(١٧) William , Bary : Modern Africa G. B. 1972 P. 44 .

(١٨) إلهام ذهنى : المرجع السابق ، مصر فى القرن ١٨ ص٦٠ .

(١٩) محمد أنيس : المرجع السابق ص٧٥ .

(٢٠) رحلة جوزيف بتس (الحاج يوسف) إلى مصر ومكة المكرمة والمدينة المنورة ، ترجمة عبد الرحمن الشيخ ، القاهرة ١٩٩٥ ص٨ ص١٢ .

(٢١) Pocoke , R. A description of the east and some countries . London 1763 .

(٢٢) Bruce , James : travels to discover the source of the Nile 1768 1773 Edinburg 1805 .

(٢٣) إلهام ذهنى : المرجع السابق ، دراسات وبحوث ص٣٠ .

(٢٤) Lusiguan : A history of the Revolt of Ali Bey against ottoman porte London1983 .

(٢٥) انظر محمد أنيس : المرجع السابق ص١٢٥ .

A Description of the maners .

(٢٦) Sicard , Claude : Nouveaux memoires des missions de la compagnie dans le levant . Paris 1723 ti p6 .

(٢٧) إلهام ذهنى : المرجع السابق ، رحالة (١٨) ص٦٠ .

(٢٨) Letters from india .

(٢٩) Capper , J. obsveration on the Passage to India through Egypt London 1783 .

(٣٠) Baldwin : Slave trade in Egypt and Alexandria , 1790 .

(٣١) Political recollections relative to Egypt London 1801 .

(٣٢) محمد أنيس : المرجع السابق ص١٢٦ .

(٣٣) Browne : travels in Africa Egypt and syria London 1799 .

(٣٤) Cleghorn , H : Cleghorn Papers : London 1925 .

(٣٥) محمد أنيس : مرجع سبق ذكره ص١٢٦ .

(٣٦) إلهام ذهني : مرجع سبق ذكره رحالة قرن ١٨ ص٨١ .

(٣٧) زار نوردن مصر فى الفترة من ١٧٥١ و١٧٥٥ ووصف اضطرابات البدو فيها ووضع مؤلفا بعنوان :

Norden , E : Voyage d Egypte et de Nubie Paris 1795 .

(٣٨) زار هورنمان مصر ١٧٩٨ ـ ١٨٠٠ ووضع مؤلفا بعنوان :

Horneman , E the Journal of Hornemann Travel in 1797 - 1798 London 1808 .

(٣٩) زار الراهب الروسى هيبولت مصر فى عام ١٧٩٨ تجول فى دير سانت كاترين ، دمياط ، الإسكندرية أو القاهرة نشرت الجمعية الملكية للتاريخ والآثار الروسية التابعة لجامعة موسكو رحلته فى عام ١٨٧٧ .

(٤٠) نشرت الأكاديمية الملكية للعلوم فى سانت بر سبورج رحلة الراهب فازيلى إلى مصر ، وقد قدم فيها وصفا للقاهرة خلال الفترة من ١٧٢٦ إلى ١٧٢٩ . وقد أخطأ فى تحديد بعض المواقع فلم يتعرف على طيبة كما أخطأ فى النيل وفروعه انظر :

Volkoff , Oleg : Vogageurs Russes en Egypte Le Caire 1972 PP. 51 - 56 .

(٤١) قام أبو القاسم بثلاث رحلات إلى الشرق الأولى لأداء فريضة الحج والثانية كان

ضمن سفارة مغربية أرسلها مولاى محمد بن عبد الله إلى استانبول عام ١٧٨٥ لم الرحلة الأخيرة فى عهد مولاى سليمان ١٧٩١ . انظر : يونان لبيب ، محمد مزين : تاريخ العلاقات المصرية المغربية منذ مطلع العصور الحديثة حتى ١٩١٢ ، القاهرة ١٩٩٠ ص١٢٥ .

(٤٢) ثروت عكاشة : المرجع السابق جـ٢ ، ص٢٩٨ .

(٤٣) Belzoni : le Jeune Voyage en Egypte et Nubie Paris 1926 .

(٤٤) Salt Henry : twenty four Views in Hellena , the cape Lndia, ceylon and red sea, Abysinia and Egypt. London 1809 .

(٤٥) ثروت عكاشة : المرجع السابق جـ٢ ، ص ٢٩٨ .

(٤٦) Wilkinson J. P. Gardner : Manners and Customs of the Ancient Egyptians London 1837 .

(٤٧) ثروت عكاشة : المرجع السابق جـ٢ ، ص ٢٩٩ .

(٤٨) Wilson : trevels in Egypt and holy land London 1823 .

(٤٩) Madden : travels in turkey , Nubia and palestine in 1824 London 1827 .

(٥٠) Francis Parkman - Aminius Vambery .

(٥١) Lane, E W : The Manners and Customs of modern Egyptians .

(٥٢) إدوارد وليم لين : عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم (مصر ما بين ١٨٣٣ ـ ١٨٣٥) ترجمة سهير دسوم ، القاهرة ١٩٩١ ص٨ ، ص ٩٠ .

(٥٣) ثروت عكاشة : المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٣٢٥ .

(٥٤) المرجع السابق : ص ٣٠٠ .

(٥٥) Lane, E : Description of Egypt American University . Cairo. 2001 .

(٥٦) Hay , Robert : Illustrations of Cairo 1840 .

(٥٧) ثروت عكاشة : مرجع سبق ذكره جـ٢ ص٣٠٠ .

(٥٨) St john , James Augustus : Egypt and Mohamed Aly or travels in the

of the nile london 1934 vel ! pp i - 12 .

(٥٩) ثروت عكاشة : المرجع السابق ص ٣٢٢ .

(٦٠) Kurzon the R : visit to the Monastries of levant London 1849 .

(٦١) Kinglake , Alexandre : Eothen London 1844 .

(٦٢) ثروت عكاشة : مرجع سبق ذكره جـ٢ ص٣٥٥ .

(٦٣) Warburton , R. E : The Crescent and te Cross London 1844 .

(٦٤) محمد فؤاد شكرى ، عبد المقصود العنانى ، سيد محمد خليل : بناء دولة مصر محمد على (السياسة الداخلية) القارئ ١٩٤٨ ص٣٦١ .

(٦٥) المرجع السابق ص٣٦٤ .

(٦٦) المرجع السابق ص٣٦٤ ص٣٧٤ .

(٦٧) Thackeray , W : Ajourney from Corn hill to grand Cairo 1846 .

(٦٨) تقديم التصوير الفوتجرافى على يد داجير ونيسفور فييس فى فرنسا .

(٦٩) ثروت عكاشة : مرجع سبق ذكره جـ٢ ص١٩٨ .

(٧٠) ثروت عكاشة مرجع سبق ذكره جـ٢ ص٣٩٨ .

(٧١) ريتشارد بيرتون : رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز ترجمة عبد الرحمن عبد الله الشيخ، القاهرة ١٩٩٤ ص١٣ .

(٧٢) ثروت عكاشة مرجع سبق ذكره جـ٢ ص٣٩٨ .

(٧٣) طبع عدة طبعات ونشرت زوجته ايزابيلابيركون مؤلفاته .

Personal Narrative of a pilgrimage to Al Madena and Mecca N. Y 1963 .

(٧٤) ثروت عكاشة : المرجع السابق ص٤٤٠ ص٤٤٤ .

(٧٥) Martineau , Harriet : Eastern life Present and Past London , 1848 .

(٧٦) ثروت عكاشة مرجع سبق ذكره ص٣٦٩ .

(٧٧) صوفيا لين : حريم محمد على رسائل من القاهرة ١٨٤٢ ـ ١٨٤٦ ، ترجمة د. عزة كرارة ، القاهرة ١٩٩٠ ص١٠ .

(٧٨) Poole, Sophia : An English Woman in Egypt letters from Cairo Written during a Residence there in 1842 - 1843 - 1844 London 1844 .

(٧٩) صوفيا لين بول : مرجع سبق ذكره ص٣٠ .

(٨٠) فى صحيفة quarterly Review

(٨١) صوفيا لين بول : مرجع سبق ذكره ص٢١ ـ ص٢٨ .

(٨٢) صوفيا لين بول : مرجع سبق ذكره ص١٤ .

(٨٣) Nightingale, Florence : Letters from Egypt . London, 1854 .

(٨٤) صوفيا لين بول : مرجع سبق ذكره ص١٤ .

(٨٥) Duff, Gordon, lady : Letters from Egypt .

(٨٦) ثروت عكاشة : المرجع السابق ، ص ٣٧٩ ـ ص٣٧٦ .

(٨٧) Edwards, Amelia : The Thousand miles up the nile London 1878 .

(٨٨) ابن صوفيا لين .

(٨٩) Flinders Petrie .

(٩٠) ثروت عكاشة ص ٣٦٩ .

(٩١) إلهام محمد ذهنى : مرجع سبق ذكره رحالة ١٩ ص٨٠ .

(٩٢) Souvenirs d'une fille du peuple .

(٩٣) Boisy , Barbey : la Comtesse Agenor De Gasparin .

(٩٤) نشرت رسائل راشيل فى مجلد La Revue سجلت فيها مشاهداتها فى مصر العليا .

(٩٥) Carre, J : Op. cit., P. 30 .

(٩٦) زارت مصر أثناء احتفالات فتح قناة السويس وكان لها نشاط سياسى كبير فى فرنسا، كما قامت بزيارة إيطاليا والتقت بكافور ومازينى وغاريبالدى ثم زارت مصر مع مجلة ديبا .

(٩٧) تعتبر مدام أولمب من أشهر الكاتبات أسست جريدة بايـون ١٨٦٥ ثـم جريدة Cosomopolite فى عام ١٨٦٧ ، اهتمت بمصر والدولة العثمانية كتبت ملاحظاتها عن الحكومة والفلاحين ، انتقدت كافة الأوضاع ذكرت المعلومات عن

مصطفى فاضل باشا وغيره من أسرة محمد على ومؤلفها بعنوان :

Le Mysteres de L'Egypte devoillés .

(٩٨) ولد يوهان لود فيج بوركهاردت فى لوزان بسويسرا عام ١٧٨٤ وهو مكتشف محترف زار بريطانيا ١٨٠٦ وعرض خدماته على جمعية تشجيع اكتشاف أفريقيا الداخلية ، تعلم اللغة العربية درس القرآن ، اعتنق الإسلام واتخذ اسم إبراهيم بن عبد الله الشامى ، تجول فى صحبة القبائل ، زار مصر ١٨١٢ ومكة ١٨١٤ ، ثم جاء إلى مصر ١٨١٧ وتوفى فيها وله عدة مؤلفات منها :

- Travels in Arabia 1813 - 1815 .
- Notes on the bedouins and the wahhabis

(٩٩) إلهام ذهنى : مرجع سبق ذكره ص١١٨ .

الفصل الثالث

أحوال مصر السياسية والاقتصادية كما سجلها الرحالة البريطانيون

أولاً : الأحوال السياسية .

ثانياً : أحوال مصر الاقتصادية .

أولاً : أحوال مصر السياسية :

لم يبدأ الرحالة البريطانيون حديثهم عن أحوال مصر السياسية منذ عهد محمد على فحسب ، وإنما بدأ معظمهم الكتابة عن تلك الأحوال منذ مجئ الحملة الفرنسية على مصر ، ونلمس فى معظم ما دونوه الفخر والزهو بانتصارات نلسون ، فى موقعة أبى قير البحرية والإشادة بشخصيته وفى الوقت نفسه لم يهتموا بإلقاء الضوء على المقاومة الشعبية المصرية ضد الحملة الفرنسية ، وأكتفوا بالإشارة إلى إعدام سليمان الحلبى ، وتصوير البشاعة والقسوة التى أتبعت فى قتله من إحراق يده والتمثيل بجثته ، وندد ويلسون بما سمعه عن رغبة الفرنسيين فى إرسال هيكله العظمى إلى باريس[1] .

سجل الرحالة البريطانيون الفوضى « التى أعقبت رحيل الحملة الفرنسية» ، والصراع الدائر على السلطة بين المماليك ومحمد على ، ولا سيما محمد بك الألفى وكان من أهم المرشحين للتعاون معهم ، إلا أن هذا الصراع حسم فى نهاية الأمر لصالح محمد على ، الذى اتفقت الآراء على استبداده بالسلطة فى البلاد ، ولكنها اتفقت أيضًا على أنه نجح فى أحداث العديد من التغيرات الهامة فى مصر ، فقد نجح فى « تحريرها » من التبعية العثمانية تحريرا شبه كاملا ، ومن وجهة نظر أدوارد لين أن ذلك « يعتبر إنجازاً » [2] ويمكن تعليل هذا الحماس ، بكراهية الأوروبيين للدولة العثمانية ورغبتهم فى تقطيع أوصالها وانتزاع أملاكها سواء فى أوروبا أو فى آسيا وأفريقيا ، ولا ننسى أيضاً رغبتهم فى استعمار تلك المناطق .

أثنى رو ويلسون فى مؤلفه على محمد على ، وحرصه على استتباب الأمن فى البلاد ، وأكد أنه يتسم بالمهابة والأحترام ، فالجميع رهن أشارته ، الضباط ، الخدم ، العبيد ، وهو من وجهة نظره يحظى بهيبة تفوق بابا روما ، ولذلك يشعر السلطان العثمانى بالغيرة منه على حد قوله[3] .

نال محمد على إعجاب أدوارد لين وذلك لأنه كان يهدف لتكوين إمبراطورية قوية مستقلة عن الباب العالى ، كما كان يطمح فى إدخال سبل الحضارة الأوروبية

إلى مصر في كافة المجالات ، ورغم هذا الإعجاب إلا أنه لم يستطع إخفاء رأيه في والى مصر فهو ميال لإراقة الدماء ، والقسوة هي صفته الرئيسية ولكنها قسوة بعيدة عن الوحشية[٤] ويتفق رأى لين هذا مع غيره من الفرنسيين فقد سجل بريس دافين بأن الفلاحين لقبوا محمد على « بظالم باشا » وأنه يستوحى المثل القائل إنما الشعب مثل السمسم ينبغى أن تسحقه لتخرج منه الزيت أما زميله شولشيه فقد أطلق عليه « وحش الروملل »[٥].

هذا وقد حاول لين تبرير سياسة محمد على بأن الظروف التى وجد عليها مصر عندما تولى الحكم هي التى الزمته بذلك ، كما أنه برر مذبحة القلعة فسجل «بأن هذه الوسيلة الفظيعة لنشر الأمن في البلاد»[٦].

جذبت حملة فريزر اهتمام البريطانيين ، وحاول ويلسون تبرير إرسالها مؤكداً بأن بلاده أصبحت شريكة في الصراع الدائر على الدولة العثمانية وبقدر حرص ويلسون على تسجيل عظمة ومكانة فريزر رغم هزيمته ، إلا أنه لم يستطع إغفال الحديث عن المقاومة الشعبية التى واجهتها القوات البريطانية في رشيد ، فوصف ما تعرضت له هذه القوات في المدينة بأنه « الكارثة » ، كما حاول تبرير هزيمتها بالاستعدادات التى أجريت في رشيد ، لمواجهة الحملة ، فقد تم تقوية أسوارها ، وأصبحت على أهبة الاستعداد لملاقاة القوات الزاحفة ، ويشعر ويلسون بالأسف للهزيمة ، كذلك لرحيل القنصل البريطاني بريجز الذى سرعان ما عاد إليها ، وقد أثلجت عودته صدور البريطانيين على حد قول ويلسون لأنه كان حريصاً على تجديد وتقوية العلاقة مع مصر[٧].

وفى عام ١٨١٠ وصلت السفينة أفريقيا التابعة لمحمد على إلى بريطانيا ، وكان الهدف من هذه الزيارة تنمية التجارة بين البلدين ، وقد عادت محملة بالهدايا، وقد وافق محمد على على إمداد بريطانيا بما تحتاج إليه من الخيول وذلك خلال معاركها في أوروبا ضد نابليون[٨].

أشار الرحالة البريطانيون لسياسة محمد على التوسعية ، ولكى نلاحظ أن هذا

الاهتمام جاء أقل مما سجله الفرنسيون وذلك لأن الكثير منهم كان يرافق قوات محمد على سواء فى الجزيرة العربية أو فى السودان ، والشام ولذلك نجد أن ما سجله إدوارد لين عن حملة الحجاز يتركز فى الإشادة بالدولة السعودية الأولى ، والإعجاب بالشيخ محمد بن عبد الوهاب دون الدخول فى تفاصيل عن المعارك أو خطط سير القوات ، ويصف لين الشيخ محمد بن عبد الوهاب بأنه مؤسس الدعوة الوهابية ويبالغ فى هذا الوصف فيذكر أنه أحد شيوخ مقاطعة نجد فى شبه الجزيرة، والحقيقة أن محمد بن عبد الوهاب مصلح دينى بدأ فى العيينة ثم انتقل إلى الدرعية . هذا وقد أثنى لين على قدرة محمد على عبد الوهاب على استمالة محمد بن سعود حتى أنه أصبح زعيماً سياسياً ودينياً لهذا المذهب الجديد وقد انتشرت الدعوة فى عهده ، وشملت الجزيرة العربية كلها فى عهد خلفائه ، ولم يغفل لين ذكر أسماء أئمة وحكام الدولة ولا سيما الإمام عبد العزيز ثانى حكام الدولة ، ثم سعود الذى وصفه بأنه « أعظم الزعماء الوهابيين » وهو محق فى هذا الوصف لأن الدولة السعودية فى عهده بلغت أوج امتدادها ، كذلك أشار لين إلى آخر حكام الدولة الإمام عبد الله بن سعود الذى استسلم بعد حرب ضروس مع قوات محمد على وقد تم إرساله إلى مصر ومنها إلى الأستانة حيث تم قطع رأسه . ولم يغفل لين أن يوضح بأن سبب حملة محمد على ضد الوهابيين هو تقويض الدولة السعودية ومذهبها السياسى ودافع لين عن دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب وسجل « أن معظم علماء مصر يعتبرون الوهابيين على مذهب السنة » والوهابيون إصلاحيون مؤمنون بقواعد الإسلام ، والأحكام الواردة فى القرآن الكريم ، أى باختصار هى عقائد المسلمين الأولين ، ولذلك فهم يحرمون بناء المقابر ، والأضرحة الضخمة ، ويقومون بهدمها ، وهم يدينون كان مظاهر التبجيل الفائقة حيال الأولياء المؤمنين ، ويذهبون إلى حد إعلان أن كل المسلمين الآخرين من « الزنا دقة وذلك للاحترام المبالغ الذى يظهرونه للرسول »(٩).

بالغ لين فيما ذكره لأن الإمام محمد بن عبد الوهاب نفسه أظهر الاحترام للرسول « صلى الله عليه وسلم » فى مؤلفاته وفى رسائله وربما تأثر لين بالدعاية

المضادة للدعوة الوهابية التى أشاعها ولاة العراق والشام عندما فشلوا فى التصدى للدولة السعودية الأولى .

وقد انبرى عبد الرحمن الجبرتى فى الدفاع عن الدعوة الوهابية ونفى الشائعات التى أطلقت حولها(١٠) .

وجدير بالذكر أنه من بين البريطانيين نجد من اهتم بالدفاع عن الدعوة الوهابية فنجد ويلسون يشيد بمحمد بن عبد الوهاب ويشرح للقارئ البريطانى فى مؤلفه بأن الوهابيين يحرمون إرتداء الحلى والحرير وكل الزينة الغالية ، كذلك يمتنعون عن تدخين التبغ ، ويكتفون بشرب القهوة ، وقد أكد بأن من بينهم العديد من رجال الفكر ، الذين اهتموا بجمع الكثير من الكتب القيمة وخاصة التاريخية من مناطق عديدة فى شبه الجزيرة . هذا وقد اعتبر ويلسون حروب محمد على فى الحجاز نوعًا من الخدمة يؤديها للدولة العثمانية ليعيد لها الأماكن المقدسة فى مكة والمدينة(١١) .

وجدير بالذكر أن هذا الثناء على دعوة محمد بن عبد الوهاب نجده أيضاً بين الرحالة الفرنسيين فقد سجل ميشو إعجابه بمؤسسها ، وأكد أن الوهابى على حق ، أنه مجدد ، وأتباعه يتبعون الطريق السليم ، وأن مبادئه مستمرة لم تمت بانهيار وهزيمة الدولة السعودية الأولى(١٢) .

اهتم إدوارد سانت جون بالحديث عن ضم محمد على للسودان والترتيبات التى أجريت للحملة ، ودعا لمباركة تلك الخطوة ، ولا سيما وإنه يتقدم جنوبا حتى وصل إلى دنقلة فى شمال السودان ، ونجح فى ضمها ، لم أخذت قواته تستعد للتوغل جنوبا لضم المزيد من الأراضى(١٣) .

يلاحظ أن الرحالة الفرنسيين المصاحبين للقوات المصرية فى السودان قدموا وصفاً تفصيليًا للمعارك التى دارت ، فذكر كايو الإشتباكات بين قوات محمد على والمماليك فى دنقلة ، ونجاح تلك القوات فى التوغل جنوباً حتى سنار لتقضى على مملكة الفونج بها(١٤) كذلك قدم الفرنسيون ولا سيما دى لاتور وصفا للقوى

السياسية فى السودان ولا سيما مملكة الفور فى غرب السودان والتى ظلت صامدة فى عهد محمد على ولم يتم ضمها إلا فى عهد الخديو إسماعيل كما ألقى الضوء على أهم الصادرات والواردات فيها[١٥].

هذا وقد تزايدت أعداد البريطانيين العاملين فى السودان ولا سيما فى عهد الخديو إسماعيل ونذكر منهم السير صمويل بيكر الذى دون فى كتابه الإسماعيلية عن مدى اتساع حدود مصر فى السودان وأفريقيا فسجل « أن مصر وحدها هى التى تستطيع تمدين أفريقيا النيلية بإنشاء حكومة نظامية ، وحسبها أن تمد حدودها إلى خط الاستواء ، وبذلك تضمن حياة السائحين فى تلك الأقطار ، واليوم قد أصبح امتداد حدودها الجنوبية إلى خط الاستواء أمرا واقعًا ، فانفتحت أفريقيا الوسطى للحضارة والعمران »[١٦].

لا جدال أن توسعات محمد على فى شبه الجزيرة العربية والشام سببت القلق للحكومة البريطانية ، فنظرت إليها بحذر وريبة ، إلا أن سياسته التوسعية لقيت قبولا من بورنج الذى نظر إليها رضا على عكس حكومته ، وقد سجل أن محمد على يريد أن تمتد دولته حتى شواطئ دجلة والفرات وسوف يعمل على استتباب الأمن ، وتأمين الطريق البرية بين مصر وتلك المناطق وبين الاسكندرية ومدن مصر الداخلية مما يؤدى فى النهاية إلى انتشار التجارة البريطانية فى بلاد الشرق[١٧].

لقى عصر عباس اهتماما من قبل الرحالة البريطانيين ، ولا نلمس فيما دونوه روح العداء له ولسياسته كما فعل الفرنسيون وذلك لأن موراى القنصل البريطانى وطد صلته به ، لتنفيذ مشروع الخط الحديدى ، بينما استبعد عباس الفرنسيين من الآدارات المختلفة ، ولذلك نجد بواتو بصفة بالغباء والاستبداد[١٨].

أشار بيرتون لاستعدادات عباس لإمداد الدولة العثمانية بالجنود للوقوف بجانبها فى حربها ضد روسيا ولاحظ اتساع حركة التجنيد ، ومناداة المصريين بالجهاد ضد روسيا وسجل بيرتون « أن الحماس كان حقيقًا للوقوف بجانب الدولة العثمانية » وجاء وصف بيرتون حقيقيًا وذلك لأن زيارته لمصر جاءت مواكبة لتلك الفترة من

نهاية عصر عباس وقد أعجب بيرتون بالحماس الشعبي[19].

لم يعجب الرحالة البريطانيون بعهد سعيد والخديو إسماعيل لاعتمادهما على الموظفين الفرنسيين في الإدارات المختلفة ، ولا ننسى أيضاً أن مشروع قناة السويس تم في عهد سعيد الذي حرص دي لسبس على توطيد صلته به كذلك كانت بريطانيا تتحين استغلال ما آلت إليه أوضاع مصر في عهد إسماعيل لتضع يدها على البلاد وقد اتفقوا في ذلك مع ما ذكره الفرنسيون ولا سيما بريس دافين بأن أبناء الباشوات الذين نشأوا في أوروبا ، لم تظفر منهم مصر بمواطن ممتاز فقد انهكوا أجسامهم في المجون وأخذوا جميع عيوبنا دون أن يكتسبوا واحدة من صفاتنا وفضائلنا[20].

اهتم الرحالة البريطانيون بالحديث عن سياسة محمد على الداخلية واهتمامه بإدارة الدولة فقدموا وصفا للنظام الإداري فيها .

النظام الإداري :

يحترم محمد على الشريعة الإسلامية ، ولكنه في الوقت نفسه كان حريصا على توسيع سلطانه التي أصبحت بلا حدود على حد وصف لين . والقلعة هي مركز الحكم وفيها الديوان العالي الذي يبحث في الشئون المتعلقة بالحكومة قبل الشروع في تنفيذها ، ويترأسه في غياب الباشا نائبه ويلقب بكتخدا [21]وقد أوضح بورغ أن هذا المنصب يشبه منصب رئيس الوزراء[22] وقد وكل محمد على إلى حبيب افندى هذا المنصب وكان من أشهر الشخصيات وأتيح للعديد من الرحالة البريطانيين مقابلته . وقد عدد لين المجالس الدواوين المتخصصة لتنظيم شئون الحكومة: أهمها الجهادية ، البحرية ، التجارة ومهمة الأخيرة النظر في المعاملات التجارية الحديثة ودراسة مطابقتها للقرآن والسنة . أضف إلى ذلك ديوان المدارس ، الأبنية ، الأشغال ، ثم مجلس الشورة الذي يتم اختيار أعضائه من قبل محمد على ويشكلون اللجنة التي ترأس الحكومة العامة ترفع إليهم العرائض الموجهة إلى الباشا ودواوينه والمتعلقة بالمصالح الخاصة [23] ومجلس المشورة له سلطة استشارية ومشورته مقصورة

على مسائل الإدارة والتعليم والأشغال العمومية ، هذا وقد أسس المجلس الخصوصى فى عام ١٨٤٧ للنظر فى سن اللوائح والقوانين[٢٤] ولا جدال أن إنشاء حكومة قوية فى مصر أدى إلى القضاء على الفوضى فى البلاد وقد هيأت لمحمد على القيام بالعديد من الإصلاحات ولا سيما بعد أن توطدت دعائم الأمن فى البلاد رغم سلبيات الحكم المطلق وكل الهيئات التى أسسها محمد على لم تكن سوى مجالس تنفيذية، لأنه لم يكن فى ذهنه إنشاء نظام دستورى[٢٥] .

أما عن التقسيم الإدارى فى مصر فقد عدد بورغ عدد المديريات بأنها ستة عشر مديرية ، وتشمل مديريات الوجه البحرى ، قليوب ، الشرقية ، المنصورة ، دمياط ، الغربية ، منوف ، البحيرة ، أما مديريات الوجه القبلى فتشمل أطفيح بنى سويف الفيوم ، المانيا ، أسيوط ، جرجا ، قنا ، أسنا[٢٦] .

ورغم ما قدمه بورغ إلا أن وصف الرحالة الفرنسيين للتقسيم الإدارى جاء أقرب إلى الدقة فقد ذكر كادلفين بأنه فى عام ١٨٠٨ قسم أقاليم مصر إلى سبع ولايات أربع منها فى مصر السفلى وتكونت الولاية الأولى من البحيرة ، القليوبية ، الجيزة والولاية الثانية من المنوفية والغربية ، والثالثة المنصورة ، والرابعة الشرقية ، أما مصر الوسطى فقد شملت ولاية واحدة تكونت من بنى سويف والفيوم والمنيا ، أما ولايتا مصر العليا فامتدت من شمال قنا إلى جنوبى المنيا والثانية من وادى حلفا إلى قنا ، واعتبرت المدن الكبيرة والثغور أقساماً إدارية وأطلق عليها محافظات مثل رشيد ، ودمياط ، والإسكندرية والسويس ، لم أوضح كادلفين التعديلات التى أدخلت على التقسيم الإدارى فى عام ١٨٢٦ حيث قسمت الولايات والأقاليم مأموريات بلغ عددها ٢٤ مديرية[٢٧] وفى عام ١٨٧٢ قدم شارل أدمون وصفاً لهذه المديريات فى عهد إسماعيل فذكر بأنها بلغت أربعة عشر مديريات سبعة فى الوجه البحرى ومديريتان فى مصر الوسطى ، وخمسة فى مصر العليا[٢٨] .

قسمت المديريات إلى مراكز ، والمراكز إلى أخطاط ، وتكون الجهاز الإدارى من :

المديرون : وكان معظمهم من الأتراك ولهم نفوذ كبير ، ويتلقون الأوامر من محمد على[٢٩] وقد أضاف الفرنسيون عند شرح هذه الوظيفة بأن المديرين يسومون الفلاحين المساكين العذاب على حد وصف سان هيلار[٣٠].

المأمور : له نفس مهام المدير ، كما أن له اتصالاته المباشرة مع النظار .

النظار : مهمتهم متابعة تنفيذ الأحكام ، وهم على دراية بعدد فدادين كل قرية ، كما عليهم مراقبة جمع الحاصلات وتشوينها فى شئون الحكومة .

الكاشف : يتلقى أوامره من الناظر وقد وصف لين الكشاف بأنهم يرتكبون الأعمال الوحشية تجاه الفلاحين ، وهم يتصفون بالظلم ، والطغيان .

أما شيخ البلد فله سلطات واسعة على الفلاحين وغالبًا ما يسيء استخدام تلك السلطة[٣١] وقد عقد الفرنسيون مقارنة بين وظيفة شيخ البلد فى مصر والعمدة فى فرنسا فهو المسئول عن حل المنازعات والقضايا وقد وجد بارتلمى سان هيلار أن هذا الجهاز الإدارى يشبه ما كان يسود فى أوروبا فى العصور الوسطى[٣٢].

اهتم محمد على بتنظيم القضاء ، ورغم احترامه لأحكام الشريعة الإسلامية ، إلا أنه حرص على توسيع سلطاته ، فهو الذى يصدر أحكام الإعدام على أتباعه دون تبرير لدوافع الحكم ويرأس قاضى القاهرة المحكمة لمدة سنة واحدة ، ثم يعين مكانه قاض جديد من الآستانة أيضاً ، ويصاحب القضاة قافلة الحاج إلى مكة والمدينة ، ولا بد وأن يكون القاضى عثمانيا ويقصر عمل قاضى القاهرة على تأكيد حكم نائبه الذى ينظر فى القضايا العادية والبسيطة ، ويكلف القاضى الباش ترجمان بالترجمة من العربية إلى التركية[٣٣].

ولا جدال أن محمد على لم يدخل تعديلا أو إصلاحًا فى النظام القضائى عما كان عليه غير أنه جعل للديوان الخديوى اختصاصًا قضائيًا ، وأنشأ فى عام ١٨٤٢ هيئة قضائية جديدة تسمى جمعية الحقانية جعل من اختصاصاها محاكمة كبار الموظفين على ما يتهمون به فى عملهم ، وتحكم أيضاً فى الجرائم التى يحيلها

الدواوين ، وكانت بمثابة محكمة جنايات وجنح كما أنشأ محمد على محكمة تجارية تسمى مجلس التجارة ، للفصل فى المنازعات التجارية بين الأهالى والأجانب(٣٤) .

الأمـن :

تولى حفظ الأمن فى القاهرة موظفان ، الوالى والضابط ، ثم اقتصر الأمر على الثانى ، وتحت أمرته ضباط موزعون فى أنحاء المدينة ، هذا وقد تم تشييد العديد من الأقسام لاحتجاز المتهمين وتعرف الكراكول أو الكلك ، ولا سيما المتهمين بأعمال السرقة والاعتداءات ، ولكل قسم رئيس يقوم بضرب المتهم حتى يقر بذنبه ، وفى حالة اعترافه لا يتعرض لعقاب قاس وغالبًا ما يعترف السارق بسرقته وكانت العقوبة المخصصة لذلك هو أن يعمل المتهم فى الأشغال العامة مقابل أجر زهيد فيقوم برفع النفايات وحفر القنوات وقد وصف لين هذا الإجراء بأنه يتسم بالقسوة . ولرئيس الشرطة صلاحيات كبيرة ، وينتشر العاملون تحت أمرته فى أنحاء العاصمة يترددون على المقاهى ، ويراقبون سلوك المواطنين ، ويستمعون لأحاديثهم ، ويتجول أغا الشرطة ليلاً يرافقه «الشيالجى» أى حامل الشياله وهو مصباح شائع الاستعمال ومن الطريف أن اللصوص يشمون رائحتها فيفرون فى الوقت المناسب(٣٥) .

وتعتبر وظيفة المحتسب من أهم الوظائف التى اعتمد عليها محمد على ، ومهمته الإشراف على أسواق القاهرة ، وعلى مقاييس التجار وموازينهم ، وهو يتجول فى أنحاء المدينة بسيفه ويتبعه الجلادون والخدم وحامل الميزان ، ويراقب أسعار السلع فى المتاجر ، وهو غالبا ما يوقف أحد المارة أو الخدم ليسأله عن السلعة الغذائية التى اشتراها وثمنها . وقد التقى أدوارد لين بشخص جرى تعذيبه بسبب بيع خبز ناقص الوزن ، فكان عقابه أن جعلت فى أنفه حلقة علقت عليها قطعة خبز سميكة الأصبع عرض متر بواسطة خيط ، وقد جرد الرجل من ثيابه إلا من قطعة من الكتان عند خاصرته ، ويداه مربوطتان إلى حديد نافذة جامع الأشرفية ، وبقى هكذا نحو ثلاث ساعات على مرأى من الجماهير ، وذكر لين أسماء بعض المحتسبين مثل

مصطفى كاشف وكان من الأكراد وقد اتهمه بالقسوة ، لأنه كان يشو آذان الرجال، ويقطع شحمة الأذن بسبب مخالفات بسيطة ومن مظاهر تعذيب المحتسب إنه فى أحد المرات قطع أوقيتى لحم من ظهر أحد الجزارين بسبب تلاعبه فى الوزن . وحتى بائع الكنافة لم ينج منه فقد قام بتعريته وجعله يجلس فوق الصينية النحاسية الدائرية حيث تخبز الكنافة ، وابقاه على هذا الحال حتى احترق بشكل مروع وكان المحتسب يعاقب الجزارين الغشاشين عادة بأن يضع فى أنوفهم خطافًا يعلق إليه قطعة من اللحم(٣٦) .

ثانيًا : أحوال مصر الاقتصادية :

١ ـ الزراعة :

يعتبر ما دونه بورنغ فى تقريره هو أهم ما كتب عن أحوال مصر الاقتصادية ، ولا سيما وإنه جمع مادته من مصادرها الأصلية وكانت الزراعة من أهم اهتماماته وقد بدأ الحديث عن حيازة الأراضى الزراعية ، وأكد بأن ملكية الأراضى ليست واضحة المعالم ، والفلاح له حق الانتفاع بالأرض فقط . ثم أشار إلى ظاهرة خطيرة ألا وهى تسحب الفلاحين من أراضيهم بسبب كثرة الضرائب كذلك لفت الأنظار إلى مخاطر زحف مال الصحراء على الأراضى الزراعية فهناك عراك دائم بين الصحراء والأراضى الزراعية على حد قوله ، ولذلك فهو يشعر بالأسف لتراجع مساحة الأراضى المنزرعة وذلك لأن تربة مصر قادرة على العطاء والإنتاج نظر لخصوبتها الشديدة ، ويكفى أن تبتل الأراضى بالمياه فتسرع الخضرة بالظهور ، وهى تنتج أجود أنواع المحاصيل(٣٧) .

ويبدو أن ظاهرة زحف الرمال على الأراضى الزراعية أقلقت الرحالة الفرنسيون أيضًا فنجد كادلفين يحذر من تراجع مساحة الأراضى المنزرعة فى مصر ، وقد عدد فى مؤلفه أهم المخاطر التى تهدد الزراعة ولم يغفل أن يذكر أيضًا الاضطرابات السياسية التى مرت بها مصر كانت من أهم أسباب تقلص مساحة الأراضى(٣٨) ،

وهذه الملاحظات أوردها فولنى منذ بداية القرن الثامن عشر كما أوردها علماء الحملة الفرنسية من قبل وأضافوا إلى تلك الأسباب ومهاجمة أسراب الجراد للمحاصيل الزراعية كما أوضحوا خطورة فيضان النيل وما يسببه من خسائر فى حالة ارتفاع أو نقصان المياه[٣٩].

اهتم أدوارد وليم لين بالحديث عن الزراعة فهى من أهم الأعمال التى تشغل السواد الأعظم من المصريين وتعتمد معظم الأراضى على الفيضان السنوى ، وتروى الحقول الواقعة إلى جواره ، وجوار القنوات الواسعة وغيرها من الأراضى حيث يتم حفر الترع بواسطة الآلات المختلفة وأهم هذه الآلات الشادوف ثم قدم لين وصفا له لإعطاء القارئ البريطانى والأوروبى صورة عنه ، فأخذ يشرح بأنه يتألف من دعامتين من الخشب أو الأسل أو القصب ترتفعان نحو خمسة أقدام ، وتتباعدان نحو ثلاث منها مع قطعة خشبية أفقية تمتد من السطح تتدلى منها رافعة دقيقة من غصن شجرة تحمل فى أحد طرفها ثقلاً معتمداً خاصة على الوحل ، أما طرفها الآخر فيدتدلى منه وعاء مستدير معلق إلى قضيبى نخل طويلين مصنوع من حبال السلال ويتم دفع الماء عل ارتفاع نحو ثمانى أقدام فى حوض مجوف لاستقبال تدفقها ويستلزم الأمر فى مصر العليا عندما يكون النيل فى أدنى مستوياته استخدام أربعة أو خمسة شواديف حتى تم رفعها إلى مستوى الحقول ، كما تعتبر الساقية الآلة الوحيدة المخصصة لرى حدائق مصر تركيبتها وبدائية على حد وصف لين كما أنها تحدث صريراً مزعجاً ، أما التابوت فهو الآلة الثالثة المستخدمة فى مصر ولا سيما فى الوجه البحرى والغرض منها رفع المياه بضعة أقدام ولم يكتف لين بهذا السرد المفصل وإنما قدم بعض الرسومات عن الأدوات المختلفة المستخدمة فى الزراعة ليتأكد من فهم قارئه وأورد التفاصيل الدقيقة عن كل منها[٤٠].

ولا يتم حرث أراضى الرى إلا مرة واحدة فى السنة ، وتزرع بعد جفاف مياهها فى شهر أكتوبر ومطلع نوفمبر ويعرف هذا المرسم بالموسم الشتوى أما الأراضى الشرقية التى لا يصل إليها الفيضان فتنتج ثلاثة محاصيل سنوياً ويتم الرى بواسطة الرى

الصناعى ، أما الموسم الصيفى أو القيظى فيبدأ مع الاعتدال الربيعى وتزرع الأراضى خلاله بالذرة الصيفى أو القطن أو النيلة ويحل أخيراً موسم الضميرة وهو فترة ارتفاع منسوب النيل ويبدأ قبيل انقلاب الشمس الصيفى أو بعده مباشرة وتزرع خلاله بالذرة ثانياً ولا سيما الذرة الشامى(٤١).

أما عن الغلات الزراعية التى استطاع بورنغ حصرها فى عام ١٨٣٤ فهى كما وضح على النحو التالى :-

القمح إنتاجه السنوى ٩٥٠ ألف إردب ، الفول ٨٠٠ ألف ، العدس ٧٠ ألف ، الشعير ٥٦٠ ألف ، الذرة الشامية ١٦٠ ألف ، العويجة ٥٨٠ ألف ، الحمص ٥٠ ألف ، الترمس ٣٥ ألف ، الحلبة ١١٠ ألف ، أما الأرز فهناك نوعان الدمياطى وأنتاجه ٨٠٠ ألف أردب والأرز الرشيدى وإنتاجه ٥٦ ألف إردب ، وإذا كانت دمياط قد تفوقت فى إنتاج الأرز فإن الفيوم تنتج كميات كبيرة من القمح والشعير ، وإن كان إنتاج القمح لا يفى بحاجة البلاد ويتم استيراده(٤٢).

هذا وتتبع مخازن محمد على طريقة فريدة ولكن سهلة لمنع سرقة القمح ففى الوجه القبلى قلما توضع الحبوب فى مكان مسقوف وذلك لندرة سقوط الأمطار ، ولذلك تم تجميع القمح على شكل كومة تختم قاعدتها من كل نواحيها بخاتم من الخشب ولا يستطيع إنسان أن يمس كومة دون أن يشوه ما خلفه الخاتم(٤٣).

ويزرع التبغ فى مصر الوسطى غير أن محصوله من النوع الردئ ، ولذلك يقتصر استهلاكه على أهالى البلاد ، أما الطبقات الموسرة فتستهلك التبغ المستورد من الأقطار السورية(٤٤) ، فقد تفوقت الشام فى تصديره ولا سيما اللاذقية التى قصدها الأوروبيون للحصول عليه وكانت لتجار غرفة تجارة مارسيليا نشاطا ملحوظا فيها(٤٥).

تزرع الحنطة والشعير فى مصر ، ويستخدم المصريون النورج فى فصل حبوب الحنطة والشعير ، وتقطيع القش المخصص للعلف ، وقد اهتم لين بإعطاء وصف للنورج فكتب بأنه يشبه الكرسى ، ويتحرك بواسطة دواليب معدنية صغيرة أو صفائح

معدنية دقيقة يصل عددها إلى إحدى عشرة صفيحة[٤٦].

ويعتبر القطن من أهم الحاصلات دون منافس ، ويرجع الفضل فى زراعته إلى همة محمد على الذى أرغم الفلاحين على زراعته ولولا تدخله وفرض إرادته لربما توقف إنتاجه وقفا تاما ، والفلاح المصرى تحت رحمة عمال الحكومة ، وتحدد السلطات عدد الأفدنة الواجب زراعتها فى كل قرية ، ومتوسط إنتاج الفدان الواحد سبعة قناطير ، وتستخدم الساقية فى الوجه البحرى لريه ، أما فى الصعيد فترفع المياه بالأيدى والتربة المصرية تصلح لزراعة القطن ولا سيما فى الأراضى القريبة من النيل على ألا تكون عرضة للفيضان ويجرى زراعته فى شهرى مارس وأبريل[٤٧].

هذا وقد تم التوسع فى زراعة القطن منذ عام ١٨٢١ وتم إنشاء السواقى لزراعته ، وقد أعجب محمد على بالقطن الذى شاهده فى حديقة محو بك أحد موظفيه ، فتم التوسع فى زراعته عرف باسم قطن محو بك أو قطن « جومل » وهو الفرنسى الذى استقدمه من فرنسا لتنظيم مصانع النسيج ثم أدخل نوعا آخر وهو قطن سى ايلاند الأمريكى ونافس القطن المصرى قطن البنغال وأمريكا[٤٨] كذلك تم التوسع فى زراعة الخشخاش ، واستخرج من زيت الأفيون زيت للوقود ، وقد استدعى محمد على بعض الأرمن من ازمير ليقوموا بزراعته ، وتزرع البذور بعد خلطها بتراب ناعم ، وفى أرض قوية على شكل خطوط ، وتغطى الساق أوراق طويلة بيضاء ، أما الثمرة فلونها ضارب إلى الخضرة وتشبه البرتقالة الصغيرة ،ويحمل بعض نبات الخشخاش أربع ثمرات على أبعاد متساوية وعندما تأخذ كل ثمرة فى النضج يخدش جوانبها قبل مطلع الشمس كل صباح خدوشا صغيرة ، تقطر على الفور سائلا أبيض اللون ، يجمع فى إناء ، ولكنه سرعان ما يسودلونه ويأخذ فى التحول إلى حالة الصلابة[٤٩].

تنتشر فى مصر أشجار الزيتون والنخيل وأشجار التوت الذى توسع محمد على فى زراعته فى وادى الطميلات . وفى الشرقية ينتج وادى الطميلات نحو ثلاثة آلاف فدان من شجر التوت ، ويمكن زراعة ثلاثمائة شجرة فى الفدان الواحد[٥٠] وقد

قدرت عدد الأشجار المزروعة بالتوت نحو ثلاثة ملايين وقد أشار الفرنسيون فى مؤلفاتهم إلى إهتمام محمد على بالتوسع فى غرس أشجار التوت بهدف ابتكار أنواع جديدة من الحاصلات لزيادة ثروة مصر الزراعية ، وكان الهدف أيضاً تربية دود القز، فخصص الأراضى لهذا المشروع فى وادى الطميلات بالشرقية ، كما اهتم ببناء السواقى اللازمة للرى ، وجلب من سوريا ولبنان أكثر من خمسمائة مزارع وصانع ، ثم عمم الغرس فى الدقهلية والغربية ودمياط ورشيد والجيزة وغيرها من المديريات . وقدر عدد أشجار التوت حسب إحصاء كادلفين ثلاثة ملايين شجرة باعتبار ثلاثمائة شجرة فى كل فدان ، وهو ما أحصاه مانجان ، واقترب احصاء الفرنسيين مع ما قدره بورغ فى تقريره(٥١) .

ونظراً لأهمية إدخال التوت فى مصر وجد مؤرخنا العظيم الجبرتى بأن الموضوع يستحق التسجيل ، فذكر فى حوادث جمادى الأولى عام ١٢٣٢ هـ بأنه تم إنفاذ المشروع وإتمام إنشاء السواقى ، وغرس الأشجار وإيفاد الفلاحين إلى الوادى لتعميره ، وبناء الكفور والمساكن لهم وجلبت العمال والمزارعين الاخصائيين فى تربية دودة القز من الشام ولبنان(٥٢) .

هذا وقد تم التوسع فى غرس أشجار النبق والدوم ، والليمون ، والبرتقال ، والخوخ ، وقد قام المستر تريل بعدة تجارب لتنسيق البساتين والحدائق ، فتم التوسع فى زراعة التفاح والجوافة والساج والسفرجل الهندى ، والكركم ، والزنجبيل والجاوى ، أما عن تجاربه فى زراعة البن والشاى فقد باءت بالفشل(٥٣) .

وجدير بالذكر أن الفيوم حافظت على مكانتها فى الإنتاج الزراعى وذاعت شهرتها أيضاً فى زراعة الورد حتى أن الرحالة الفرنسيين وصفوها بأنها حديقة مصر ومزرعة مصر (٥٤) وقد اتفق بورغ معهم فى ذلك الوصف فكتب بأنها « بلاد الورد »(٥٥) .

لم يهتم الرحالة البريطانيون بالحديث عن أهم المحاصيل وأنواع الفاكهة المختلفة فحسب وإنما اهتموا أيضاً بالنباتات المصرية ولا سيما بيرتون الذى تحدث عن نباتات

شبه جزيرة سيناء ولا سيما نبات الداتور الجافة ، ونبات الشيح ووصفه بأنه ذو رائحة نفاذة وهو من أجمل الأعشاب الصحراوية . كما أعجب بأشجار السنط التى يستظل بها الحجاج المغاربة فى طريقهم إلى السويس ولذلك فهى متعددة الفوائد من وجهة نظره(٥٦) .

أما عن المشاريع التى أقيمت لخدمة الزراعة وزيادة المساحة الزراعية فقد أكتفى البريطانيون بالإشارة إليها ، فأشار ويلسون لحفر ترعة المحمودية . ووصفها بأنها من أهم شرايين التجارة والزراعة ، ولكنه انتقد استخدام السخرة فى حفرها ، كذلك أشار إلى مشروع القناطر الخيرية واعتبره من أهم المشاريع التى تم إنجازها(٥٧) ولم يغفل البريطانيون عن تسجيل مشاركة المهندسين البريطانيين فى مصر فى المشاريع المختلفة ولا سيما فى حفر الآبار ورصف الطرق وتوفير المياه بين قنا والقصير(٥٨) .

وأخيراً يلاحظ أن ما دونه البريطانيون من الزراعة جاء معظمه فى فترة حكم محمد على . كما اتسم بالسرعة ، والإيجاز ، باستثناء ما دونه بورنج ، ومعظم ما حصل عليه من إحصاءات جاءت من العاملين الفرنسيين لدى محمد على ، وفى عجالة سريعة جاء تعريفهم بالمشاريع التى أقيمت لخدمة الزراعة ربما لأنها تمت بأيدى منافسيهم الفرنسيين .

٢ ـ الصناعـة :

اهتم محمد على بالصناعة وتمثل هذا الإهتمام فى بناء المصانع المختلفة وأشهرها مصانع الغزل ، ومن أشهرها فابريقة مالطة فى بولاق وقد أطلق عليها هذا الاسم لوجود أعداد كبيرة من العمال المالطين ، وقد زود المصنع بثمان وعشرين آلة للغزل وأربع وعشرون للتمشيط وهى تشبه ما يوجد فى مصنع الخرنفش ، ويحوى المصنع مائتان من الأنوال . وينتج أنواع جيدة من المناديل الملونة للنساء . وقد انتشرت مصانع الغزل فى زفتى والمنصورة ودمياط ودمنهور وفوه ، كما انتشرت فى مدن الوجه القبلى(٥٩) ويعمل فى هذا المصنع عدد كبير من الفرنسيين ولا سيما العمال القادمين من لا نجدوك(٦٠) .

أما مصنع الخرنفش فقدر عدد العاملين به حسب ما أورده سانت جون بنحو ثلاثمائة من الصناع ، وكانت إدارته تحت إشراف الفرنسى جوميل وخبراء من إيطاليا، وأستخدمت البغال لإدارة الآلات وقد أرسل محمد على العمال إلى فرنسا لاكتساب الخبرة(٦١) .

وقد وصف سانت جون المصنع بأنه كان فى شارع ضيق فى وسط العاصمة ، واشتهرت المنطقة بالمجرمين والهاربين من القانون ، وقد زار المصنع المستر موريل البريطانى لتفقد أحواله ، وعقد سانت جون مقارنة بين إنتاج المصنع وإنتاج جنوة . كما حرص سان جون على إعطاء صورة دقيقة للمصنع فبالغ فى الأمر فكان يكتب أسماء الآلات المستخدمة فيه بالإنجليزية ثم بالعربيـة ولكـن بالأحرف اللاتينية مثل فم Fim ، مبسم Mubsum .. إلخ وذلك لإعطاء القارئ البريطانى صورة واضحة عنه(٦٢) .

ومن الطريف أن محمد على الزم نساء الطبقة الدنيا العاملات فى المصنع بالارتداء الأقمشة المصنوعة فيه ، كذلك كان يتم وضع شارة أو علامة وتم معاقبة العاملات إذا ارتدين قماشا لا تحمل علامة المصنع(٦٣) .

وقد استعان محمد على بنظار مهمتهم الإشراف على إنتاج المصنع واشتهر من بينهم على بك ناظر القماش الذى عرف عنه العنف والبطش ، فإذا وجد شخصا يملك نولا خاصا به يقوم بتخصيب قطعة من قماش نوله بالزيت والقار وتعليقه على فرع شجرة ويشعل النار فى القماش ، وتشاء إرادة القدر كما سجل ادوارد لين ـ أن يموت على بك محترقا مع معاونيه بفعل انفجار مستودع بارود عند المنحدر الشمالى للقلعة ، وعند الصلاة عليه فى جامع الحسين رفض المصلون ترديد الشهادتين مما سبب ارتباكا لإمام المسجد(٦٤) .

عدد بروڠ أسباب فشل صناعة الغزل فى مصر فذكر أن مناخ مصر بما يحمله من رطوبة أفسد آلات المصنع واتفق ما ذكـره مـع ما سجلـه الفرنسيـون من أن مناخ مصر المشبع بنترات البوتاسيـوم لم يناسب الآلات البخاريـة مما أدى إلـى

اتلافها ، كذلك أضاف بورنج بأن المحاسبين والماليين سببوا الخسائر لمحمد على[٦٥].

هذا وقد سجل الجبرتى بأن احتكار محمد على لصناعة الغزل والنسيج أحدث تذمراً لدى الناس ففى حوادث عام ١٨٣١م ـ ١٢١٢هـ سجل « بأن محمد على احتكر كل ما يصنع بالمكوك وما ينسج على نولا و نحوه من جميع الأصناف ابريسم وحرير وكتان إلى الخيش والفل والحصير فى سائر الإقليم المصرى »[٦٦].

تم التوسع فى إنشاء مصانع الطرابيش ولعل أشهرها مصنع فوه الذى خصص لإنتاج طرابيش الجنود ، كذلك انتشرت هذه المصانع فى المدن المصرية وعلل سانت جون هذا الإنتشار لرغبة محمد على فى منافسة مصانع مانشستر فى بريطانيا[٦٧].

أما الحرير فقد أسس محمد على مصنعا فى بركة الفيل وتم إحضار العمال من الآستانة وكان معظمهم من الأرمن لخبرتهم فى هذا المجال . وقد قدر بورنج إنتاج وادى الطميلات ومنوف والمنصورة والغربية والشرقية والقليوبية والبحيرة والجيزة خلال عمى ١٨٣١ ـ ١٨٣٣ بنحو ١٦٫٧٤٨ آقة[٦٨].

كما اهتم محمد على بصناعة السجادلخدمة مصالحه فكانت تصنع لحسابه ، وقد تم جلب نماذج من بريطانيا لتقليدها وقد أدار مصنع السجاد جماعة من الشبان الذين تعلموا فى بريطانيا ، ورغم أن صناعة السجاد باهظة الثمن والتكلفة ، إلا أن محمد على كان يؤمن بأنه بعد عدة سنوات سوف تنخفض أسعار السجاد وقد عبر عن ذلك بقوله « سوف يواتينى التوفيق رويدا رويدا »[٦٩].

ازدهرت صناعة النيلة ولا سيما وأن طرق تجهيزها سهلة ، إذ يلق بأوراق النبات فى آنية من الفخار توضع فى حفر وتملأ بالماء ثم تعرض للحرارة ، فيغلى السائل إلى أن يبلغ من التمسك حدا ليستطيع معه تجفيفه ووضعه فى شكل معين ، وقد تم استدعاء الأرمن لتعليم الفلاحين أفضل الطرق لتجهيز النيلة وتم إنشاء مصانع فى شبرا ، وشبين ، والعزيزية ، والشرقية ، ومنوف ، وأشمون ، والمحلة الكبرى ، بركة السبع ، وانتشرت مصانع النيلة فى الوجه القبلى ولا سيما فى الفيوم وبنى سويف .

وجميع المصانع تمتلكها الدولة ، ويديرها وكلاء ونظار ، وتم تجميع النيلة فى القاهرة تمهيدا لتصديرها إلى الأسواق الأوروبية(٧٠).

ومن الصناعات الهامة استخراج الزيوت ومنها صناعة زيت الزيتون الذى يجود إنتاجه فى الفيوم ، كما تنتشر أشجاره فى الوجهين ، كذلك يستخرج الزيت من بذرة الخشخاش ويستخدم فى إنارة المصابيح وتستخدم أوراق النبات كوقود(٧١) .

أما صناعة السكر فقد قام بورنج بزيارة مزارع إبراهيم باشا فى الروضة حيث يستخدم فى مصنعه الفتيان والفتيات الصغار نظار لانخفاض أجورهم ، وقد ازدهرت هذه الصناعة ولا سيما وإن مزارع القصب قريبة من المواصلات النهرية . ولذلك أقيمت معامل السكر فى معظم مدن الوجه القبلى وقد قدر بورنج قيمة ما تم تقطيره من العسل الأسود بأربعة عشر ألف قنطاراً فى عام ١٨٣١ (٧٢).

وتعتبر صناعة تفريخ البيض من أشهر الصناعات التى اشتهر المصريون باتقانها ، وتتم عملية تفريخ بيض الدجاج بواسطة الحرارة الصناعية ، ويعرف المبنى الذى يتم فيه التفقيس الصناعى فى الدلتا « بمعمل الفراخ » وفى الصعيد يعرف بمعمل الفروج ، وتنتشر فى الدلتا معامل الفراخ بحيث تجاوز عددها مائة معمل ، أما فى الصعيد فيبلغ نصف هذا العدد ، ومعظم المشرفين على هذه المعامل من الأقباط ، ويدفع أصحابها الضريبة للحكومة ويبنى المعمل من ألواح الآجر المحروق أو المجفف ويتألف من صفين متوازيين من الأفران الصغيرة لاضرام النار مقسمين إلى ممر ضيق مقنطر ، ويبلغ كل فرن نحو تسع أقدام طولا ، وثمانى أقدام عرضا ، وخمس أقدام ارتفاعا وله حجرة نار مقنطرة من الحجم نفسه ، أو أقل ارتفاعًا ، ويتصل كل فرن بالممر بواسطة فتحة واسعة وتتصل حجرات النار فى الصف نفسه بعضها ببعض ولكل واحدة منها ثقب فى قنطرة يفتح أحيانًا ، وللممر كذلك ثقوب عديدة فى سقفه المقنطر ، يوضع البعض فوق الحصر أو القش فى صفوف متدرجة تصل عادة إلى ثلاثة صفوف فى الأفران ، ويستخدم روث الحيوانات المخلوط بالقش فوق أرض حجرة ، ويحكم اقفال مدخل المعمل ، كما تبنى أمامه غرفتان أو ثلاث مخصصة

للناظر ، والوقود والدجاج المفقس حديثًا ، وتتم عملية الفقس خلال شهرين ، أو ثلاث ويضم كل معمل من اثنى عشر فرخا إلى أربعة وعشرين فرخا وقد قدر عدد معامل فقس البيض فى عام ١٨٣١ فى الدلتا ١٠٥ معملا ، وفى الصعيد ٥٩ معملا[٧٣] .

انتعشت الصناعات الخشبية فى مصر لوجود العديد من الأشجار منها صلبة مثل اللبخ ، وأشجار الجميز ، السنط ، وينتفع من أشجارها فى إقامة الأسوار والحدائق، وبناء السفن النيلية والسواقى، ومن الصناعات القائمة على أشجار النخيل وأوراقه صناعة المقاعد والصناديق وإطارات الأسرة ، ومن الأوراق السلال والحصر والمكانس ، المذبات وغيرها ، أما الحبال المستخدمة فى مصر مصنوعة من الألياف التى تنبت عند أقدام أغصان شجر النخيل ، ويصنع أفضل الحصر من الأسل وهو نبات ذو أوراق اسطوانية[٧٤] .

هذا وتنتشر معامل ملح البارود فى القاهرة وقد انتجت ١٢ ألف قنطار فى عام ١٨٣٢ ، وفى الطرانة ينتج المعمل ٥٠٠ قنطاراً وفى البدرشين الفين وفى الفيوم وبنى سويف ١,٥٠٠ قنطارا ، والأشمونين الفين وبلغ إنتاج هذه المعامل مجمعة فى عام ١٨٣٢ ١٩,٥٠٠ قنطارا[٧٥] .

تركزت صناعة الجير فى الوجه القبلى ولا سيما فى ادفو وذلك لوجود المحاجر ولقربها من النيل فكان يتم نقل أعداد كبيرة منها إلى القاهرة[٧٦] .

هذا وقد اشتهر معمل بولاق لسبك الحديد ، وقد تم تصنيعه على غرار المسابك البريطانية وتولى إدارته أحد الإنجليز ، ويستخدم المسبك لصب الحديد المعد للسفن وسد احتياجات البحرية[٧٧] .

أما عن مصنع الأسلحة فقد أقيم فى القلعة على الطراز الأوروبى وعمل فيه العديد من الفرنسيين ، كما عمل اثنان من البريطانيين فى مصنع الحوض المرصود . وقد جاء وصف بورنج مطابقا لما دونه الفرنسى شولشيه عن هذه المصانع فوصف إنتاجها بالاتقان وقد أسس محمد على خارج القاهرة ثلاث مصانع أنتجت ٣٦ ألف

بندقية وكان يتم تخزين الذخيرة فى كهوف جبل المقطم خوفا من حوادث السطو[٧٨] .

وأخيرا اهتم الرحالة البريطانيون بالحديث عن ترسانة الأسكندرية التى اهتم بها محمد على اهتماما جدا لتحقيق طموحاته وأحلامه التوسعية ، وقد عمل بها العديد من الفرنسيين منهم بيسون الضابط البحرى وسريزى المهندس الفرنسى المكلف ببناء الأحواض وتصنيع السفن الحربية وقد أصبحت ترسانة الاسكندرية من أعظم المنشآت الحربية والبحرية بها العديد من المصانع والورش للحبال ولصناعة الحديد ، ولصناعة أشرعة السفن ، والنظارات ولسبك الحديد ، ولعمل الرايات ، ولقلفطة السفن وغيرها وقد تم إحضار الأخشاب اللازمة لصناعة السفن من الأناضول ، وشيدت السفن البحرية فيها وسفن النقل وعدد بورنج أسماء وأنواع بعض السفن ولا سيما المعاشى لنقل الغلال من الصعيد ، والجيروم وقد استخدمت بين الأسكندرية ورشيد والقنجات للمسافرين[٧٩] .

وجدير بالذكر أن الفرنسيين أشادوا بترسانة الإسكندرية وسجلوا انبهارهم بمدى التقدم الذى وصلت إليه ويرجع السبب فى ذلك إلى كثرة العاملين الفرنسيين بها ولذلك سجل الماريشال مارمون اثناء زيارته للإسكندرية فى عام ١٨٣٤ إعجابه بنظامها وضخامتها وبهرته دقة أعمالها وكفاء عمالها المصريين ، كذلك أفاض كلوت بك فى الحديث عما بلغته البحرية المصرية من التقدم والقوة ، ودلل على ذلك ببراعة السفن المصرية أثناء حرب المورة كما سجل إعجابه بكفاءة العمال المصريين ومهارتهم وحسن استعدادهم[٨٠] .

٢ ـ التجــــارة :

اهتم الرحالة البريطانيون بإلقاء الضوء على تجارة مصر ولا سيما الصادرات والواردات واقتصرت معظم مؤلفاتهم على تجارة مصر الخارجية ولا سيما إلى أوروبا .

شملت الصادرات المصرية إلى أوروبا الحنطة ، والذرة ، والحبوب ، والقطن ،

والكتان ، والنيلة ، والبن ، والبهارات بأنواعها ، والصمغ والسنا ، والعاج ، وريش النعام ، أما صادرات مصر إلى الدولة العثمانية فقد شملت العبيد ولا سيما الأحباش، والأرز ، والبن ، والحناء ، كما صدرت الأرز إلى بلاد الشام ، أما شبه الجزيرة العربية فكان نصيبها من الصادرات المصرة العديد من المنتجات والسلع أهمها الكتان والقطن والمنسوجات الصوفية والحرائر والسجاد الصغير والحلى ، والخرز والصابون ، والأسلحة النارية والأوانى النحاسية[٨١] .

هذا وقد أضاف بيرتون على ما ذكره لين الأدوات المنزلية والشيلان الكشميرية وأغطية الرأس والموسلين ، والدهانات ، والكحل ، وحلقات الحديد ، والخرز التريستى من تريستا وكان يعاد تصديره إلى الجزيرة العربية والحبشة ، وأضيف إلى ذلك الطرابيش والصنادل والثياب[٨٢] .

أما عن أبرز الواردات المصرية من أوروبا فشملت الثياب الصوفية خاصة من فرنسا ، والموسلين العادى والمطبع من المصانع الاسكتلندية والإنجليزية والفرنسية المقلدة للشيلان الكشميرية إضافة إلى ورق الكتابة من البندقية . ومن ألمانيا الأسلحة النارية وشفرات السيوف الحادة ، كما استوردت من فرنسا الأوانى الخزفية المتعددة الأنواع ، ومن الأستانة استوردت المناديل المطرزة ورؤوس البيبان ، والأوانى النحاسية ، ومن آسيا الصغرى السجاد ولا سيما سجاد الصلاة ومن بلاد الشام التبغ والحرائر المقلمة والعبايات والصابون ، ومن الجزيرة العربية البن والبهار ، والعقاقير المختلفة ، والسلع الهندية كالشيلان والحرائر ، ومن الحبشة وسنار ، الكرابيج والتمر الهندى والصمغ ، ومن شمال أفريقيا الطرابيش والبرانس ، والحرامات ، والأحذية المراكشية الصفراء[٨٣] .

قدر بيرتون واردات مصر فى عام ١٨٥٣ ما بين ثلاثين ألف وأربعين ألف دولار ماريا تريزا . وقدر قيمة الواردات من جدة بثلاثمائة ألف استرلينى سنويا ، شكل البن والصمغ العربى نسبة كبيرة منها ، وقد تم استيراد ١٧٤٦٠ بالة أو جوال بن ، و ١٥٫١٣٢ ألف أو ٨٠ ألف جنيه استرلينى ، ويعتبر اللؤلؤ من أهم واردات مصر

من البحر الأحمر ، كذلك الفلفل من ساحل الملبار فى الهند ، وأنابيب الشيش العجمية ، من فارس(٨٤) .

هذا وقد أشار الرحالة البريطانيون للمشاريع التى أقيمت فى مصر لخدمة التجارة مثل خط حديد الإسكندرية السويس ، وإصلاح طريق القاهرة السويس البرى ، وافتتاح قناة الويس وقد اهتم البريطانيون بالخط الجديد وبربط القاهرة بالسويس واعتبروها مشاريع تحقق أمانى وطموحات بريطانيا لأنه أدى إلى اختصار المسافة ما بين الإسكندرية والسويس أى خدم طريق الهند وقد تم تشييد الاستراحات بين القاهرة والسويس لتوفير الراحة للمسافرين . كذلك أشاد الرحالة البريطانيون بتطوير وسائل الاتصال ومد خطوط البرق بين مصر وأوربا وقد تم مد عدة خطوط من رأس التين إلى القاهرة . وتم التوسع فى الخدمة التلغرافية فى عهد إسماعيل فاتصلت مصر بأوربا والهند بالبريد فى الوجهين القبلى والبحرى . وكان ينقل بواسطة الخط الحديد وأقيمت محطات للبريد فى كل مدينة(٨٥) .

وأشاد ويلسون بالعناية بطريق الحج ، وتوفير الاستراحات للحجاج ، ولا سيما المراكز التى أقيمت لإراحة القوافل(٨٦) .

ورغم معارضة بريطانيا لمشروع قناة السويس إلا أن ذلك لم يمنع بيرتون من الإشادة بالمشروع ، لربط الشرق والغرب ، كما أثنى على جهود شركة قناة السويس لتوفير الراحة للمسافرين ولضمان عدم تعرضهم للأخطار ، وأكد أيضًا أن شق القناة أدى إلى تغيير مناخ المنطقة ليس فى مصر فحسب وإنما فى جدة أيضاً (٨٧) .

أما عن تجارة مصر الداخلية فقد اكتفى الرحالة البريطانيون بالحديث عن الطريق الممتد من القصير وقنا وأوضحوا بأنه يمثل خط اتصال بين الصعيد والبحر الأحمر ، كذلك تم إلقاء الضوء على طريق أسنا وأسيوط ، وأشاروا إلى طريق المنيا إلى الواحات ، كذلك طريق بنى سويف إلى الفيوم إلى واحة سيوة ، واهتموا بالحديث عن طريق القاهرة السويس البرى ، وطريق القوافل من بلبيس إلى الصالحية إلى وادى النطرون(٨٨) .

الثروة الحيوانية :

لم نلحظ اهتماما بالثروة الحيوانية ، واكتفى ادوارد لين بالإشارة إلى أهم الحيوانات المستخدمة لخدمة الزراعة(٨٩) بينما نلاحظ إهتمامًا كبيرًا من قبل الرحالة الفرنسيين بثروة مصر الحيوانية ، وهذا الإهتمام لم يكن وليد القرن التاسع عشر فقط وإنما يعود لفترة مبكرة منذ القرن السادس عشر فقد خصص بيلون دى مان الفرنسى مؤلفا تحدث فيه عن أهم الحيوانات التى شاهدها فى مصر وركز إهتمامه على ما هو غريب وجديد على القارئ الفرنسى ولا سيما الزرافة ، وفرس النهر والتماسيح ، إلى جانب الحديث عن الثروة الحيوانية فى مصر ، ثم جاء الإهتمام أيضًا من قبل رحالة القرن الثامن عشر وعلماء الحملة الفرنسية فجاء الحديث عن الماشية والأبقار والأغنام ملفتا(٩٠).

والخلاصة أن الحديث عن الثروة الحيوانية جاء سريعا واهتم بورنج بالحديث عن الثروة السمكية ولا سيما فى بحيرتى قارون والمنزلة(٩١).

[illegible]

على الغلال وأشجار النخيل دخلا لباشا مصر الذى لم يكتف بذلك وإنما عمد على إثراء وتسمين خزينته بنسبة مهمة من عائدات المؤسسات الدينية والخيرية بحجة أنها ثروة مكدسة وفائضة(٩٢).

لم يهمل الرحالة البريطانيون الحديث عن نظام الاحتكار واعتبروه الجانب السيء فى تاريخ محمد على .

وأخيراً يجدر بنا الإشارة إلى ما دون عن المقاييس والموازين المختلفة .

المقاييس والموازين :

عند الحديث عن المقاييس والموازين لا بد من الإشارة إلى جهد إدوارد لين فى التعريف بهما وقد بدأ حديثه بتعريف الفتر وهو المسافة ما بين طرف الإبهام وطرف السبابة إذا فتحها ، أما الشبر فهو المسافة ما بين طرف الإبهام والخنصر ممتدين ، ويستخدم الذراع البلدى لقياس الكتان المصنوع فى مصر والذى يوازى فى بريطانيا ١٢٢ بوصة وثلثى الانش . أما الذراع الهندازى فيستخدم لقياس البضائع الهندية ويوازى ١٢٥ بوصة ، ويستخدم الذراع الاسطمبولى لقياس القماش الأوروبى ويوازى نحو ٢٦ ونصف بوصة(٩٣).

وعند الحديث عن الأراضى الزراعية يعتبر الفدان من أهم وحدات قياس مساحة الأرض وهو يساوى أكرا انجليزيا ويقسم الفدان إلى قراريط جزء من أربعة وعشرين من أجزاء الشيء(٩٤).

والمسافة بين قريتين تسمى فرسخ أو الملكة ، وتختلف فى منطقة الدلتا عن الصعيد ، وتقدر الممكنة فى الدلتا بمسافة ساعدت بين ٢٫٥ وأميال ، والساعد ونصف فى الصعيد بين $\frac{٣}{٤}$ ٣ و $\frac{١}{٢}$ ٤ أو أكثر أمثال .

وتساوى مكاييل الحنطة الأردبة خمس وحدات من مقياس البوشل الإنجليزى، وهو مكيال خاص للحبوب ، والويبة تساوى سدس الأردبة ، والربع تساوى ربع الويبة .

أما عن الموازين فقد ذكر لين أن القمحة تساوى الجزء الرابع وستين من الدرهم أى ربع القيراط ويعادل ثلاثة أربع الحبة الإنجليزية ، كما تساوى الحبة الجزء الثامن والأربعين من الدرهم .

أى ثلث القيراط وما يعادل $\frac{١٢٧}{١٢٨}$ من الحبة الإنجليزية .

القيراط : يوازى أربعة قمحات أو ثلاث حبات وهو يساوى الجزء الرابع والعشرين من المثقال أو $\frac{١٢٥}{١٢٨}$ ٢ إلى ٣ حبات إنجليزية .

الدرهم : يتراوح من $\frac{٥}{٨}$ ٤٧ إلى ٤٨ حبة إنجليزية .

المثقال : يساوى درهم ونصف الدرهم ويتراوح $\frac{٧}{١٦}$ ٧١ و ٧٢ حبة إنجليزية.

الأوقية : تساوى ١١٢ درهما أو الجزء الثانى عشر من الرطل ويتراوح بين $\frac{١}{٢}$ ٧٥١ و ٥٧٦ حبة إنجليزية .

الرطل : يساوى ١٤٤ درهما أو اثنى عشر أوقية .

الأوقية : أو (الوقة) تساوى ٤٠٠ درهم أى رطلين وسبع اتساع .

القنطار : يساوى مائة رطل(٩٥) .

(هوامش الفصل الثالث)

(١) Wilson , Rae : q cit P. 28 .

(٢) إدوارد وليم لين : مرجع سبق ذكره ص ١١٦ .

(٣) Wilson, R : op. cit., P. 46 .

(٤) إدوارد وليم لين : مرجع سبق ذكره ص ١١٦ .

(٥) إلهام ذهني : مرجع سبق ذكره ، قرن ١٩ ص١٥١ ، ص١٥٢ .

(٦) Lane : op. cit., Description P. 116 - 118 .

(٧) Wilson, R : op. cit., P. 21 .

(٨) Ibid., P. 39 .

(٩) إدوارد وليم لين : مرجع سبق ذكره وعادات ص١١٤ ، ص ١١٥ .

(١٠) عبد الرحمن الجبرتي : مصدر سبق ذكره .

(١١) Wilson, R : op. cit., P. 50 .

(١٢) Michaud, M, P. M : Cerespondance D'orient 1834 . Paris 1835, P.
2 2 .

(١٣) St John, : op. cit., P. 51 .

(١٤) Cadalvene , M : I'Egypte et la Nubie . Paris 1841 tl P. 251 .

(١٥) De Lature, Le Comte : Memoires Sur le Soudan 1855 - 1856 P. 40 .

(١٦) عبد الرحمن الرافعي : عصر إسماعيل ص١٧٤ .

(١٧) تقرير بورنج : مرجع سبق ذكره ص٣٦٩ .

(١٨) Poitou, E: Un hiver en Egypte Paris 1860, P. 8 .

(١٩) بيرتون : مرجع سبق ذكره ، ص٧ .

(٢٠) إدريس أفندي : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٥ .

(٢١) Lane : op. cit., P. 91 .

(٢٢) تقرير بورنج : ص٦٢٤ .

(٢٣) إدوارد وليم لين : مرجع سبق ذكرة ص١١٨ .

(٢٤) تقرير بورنج : ص٦٢٤ .

(٢٥) المرجع السابق ص٦٢٥ .

(٢٦) المرجع السابق ص٦٢٦ .

(٢٧) Cadalvene, M : op. it., PP. 104 - 105 .

(٢٨) Edmond ch : I' Egypte a I' exposition universelle de 1867 Paris 1867 P. 271 .

(٢٩) إدوارد ولين لين : مرجع سبق ذكره عادات ص١١٨ .

(٣٠) Saint, Hilaire, B: letters sur I' Egypte. Paris 1857 P. 195 .

(٣١) إدوارد لين : مرجع سبق ذكره عادات ص١١٨ .

(٣٢) المرجع السابق ص ١١٨ .

(٣٢) إلهام ذهنى : مرجع سبق ذكره قرن ١٩ ص٣٥٤ .

(٣٣) إدوارد وليم لين : مرجع سبق ذكره ص١١٧ ، ص١٥٥ .

(٣٤) عبد الرحمن الرافعى : مرجع سبق ذكره محمود على ص١١٧ ، ص٥٢٧ .

(٣٥) إدوارد لين : مرجع سبق ذكره ص١٣٠ ، ص١٣٨ .

(٣٦) المرجع السابق ، ص١٣٨ .

(٣٧) تقرير بورنج ص٣٩٥ ، ص٣٩٦ .

(٣٨) Cadalvene , M : op. cit., t 1 P (v) .

(٣٩) إلهام ذهنى : مرجع سبق ذكره قرن ١٨ ص٥٣٩ .

(٤٠) إدوارد ولم لين : مرجع سبق ذكره عادات ص٣٣٧ .

(٤١) Lane : op. cit., PP. 34 - 35 .

(٤٢) تقرير بورنج ص٤٠٦ ، ص٤١٠ .

(٤٣) المرجع السابق ص٤١١ .

(٤٤) المرجع السابق ص٤١١ .

(٤٥) إلهام محمد ذهنى : بلاد الشام فى كتابات الرحالة الفرنسيين ، دار الكتاب الجامعى ٢٠٠٠ ، ص٤٤ .

(٤٦) إدوارد وليم لين : مرجع سبق ذكره عادات ص٣٤٠ .

(٤٧) تقرير بورنج ص٤١٢ ، ص٤١٣ .

(٤٨) عبد الرحمن الرافعي : مرجع سبق ذكره ، ص٤٩٦ .

(٤٩) تقرير بورنج ص٤١٦ .

(٥٠) Lane : op. cit., P. 36 .

(٥١) إلهام ذهني : مرجع سبق ذكره قرن ١٩ ، ص٣٧٠ وتقرير بورنج ، ص٤١٦ .

(٥٢) عبد الرحمن الرافعي : مرجع سبق ذكره محمد على ص٤٩٦ .

(٥٢) بورنج ، ص٤٢٦ .

(٥٤) إلهام ذهني : مرجع سبق ذكره ، ص٣٧٠ .

(٥٥) بورنج ص٣٩٨ ، ص ٣٩٩ .

(٥٦) بيرتون : مرجع سبق ذكره ص٥٧ .

(٥٧) Wilson, R : op. cit., P. 22 .

(٥٨) بيرتون : مرجع سبق ذكره ص٢٤٥ .

(٥٩) بورنج ص٤٢٦ .

(٦٠) إلهام ذهني : مرجع سبق ذكره ص٣٠٦ .

(٦١) St John : op. cit., vol 2 P. 240 .

(٦٢) Ibid, P. 408 .

(٦٣) إلهام ذهني : مرجع سبق ذكره قرن ١٩ ص٢٠٦ .

(٦٤) إدوارد وليم لين : مرجع سبق ذكره ص٢٠٩ .

(٦٥) بورنج ص٤٤٠ .

(٦٦) عبد الرحمن الرافعي : مرجع سبق ذكره عصر محمد على ، ص٩٣٧ .

(٦٧) St John op. cit., P. 408 .

(٦٨) بورنج ص٤٤٠ .

(٦٩) المرجع السابق ص٤٥٨ .

(٧٠) المرجع السابق ص٤٥٨ .

(٧١) بورخ ص٤٢١ .
(٧٢) المرجع السابق ص٤١٧ ـ ٤٢٠ .
(٧٣) إدوارد وليم لين : مرجع سبق ذكره عادات ص٣٠٢ ، ص٣٢٢ .
(٧٤) المرجع السابق ص٣٢٠ .
(٧٥) بورخ ص٤٦٠ .
(٧٦) المرجع السابق ص٤٦٠ .
(٧٧) المرجع السابق ص٤٦٠ .
(٧٨) إلهام ذهنى : مرجع سبق ذكره قرن ١٩ ص٢٠٨ .
(٧٩) بورخ ص٥١٨ .
(٨٠) عبد الرحمن الرافعى : مرجع سبق ذكره عصر محمد على ص٣٨٣ .
(٨١) إدوارد وليم لين : مرجع سبق ذكره عادات ص٣٢٢ .
(٨٢) بيرتون : مرجع سبق ذكره ص١٤٨ ، ص١٤٩ .
(٨٣) المرجع السابق : ص٦٤ ـ ص٦٦ .
(٨٤) المرجع السابق ، ص ٦٦ .
(٨٥) Edwards, A : op. cit., N2 P. 188 .
(٨٦) Wilson, R :op. cit., P. 65 .
(٨٧) بيرتون : مرجع سبق ذكره ص٦٤ ، ص٦٦ .
(٨٨) مرجع سبق ذكره ، ص٦٦ .
(٨٩) Lane : op. cit., PP. 36 - 37 .
(٩٠) Belon, De Mans : le voyage en Egypte 1547. le Caire 1969 .
وانظر إلهام ذهنى : مصر فى كتابات الرحالة الفرنسيين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، القاهرة ١٩٩١ وإلهام ذهنى مرجع سبق ذكره قرن ١٨ .
(٩١) بورخ : ص٤٦١ .
(٩٢) إدوارد وليم لين : مرجع سبق ذكره ص١٣٦ .
(٩٣) المرجع السابق : ص٥٨٧ ـ ص٥٨٨ .
(٩٤) Lane : op. cit., P. 35 .
(٩٥) إدوارد لين : مرجع سبق ذكره ص٥٨٨ .

الفصل الرابع

المـــدن المصريـــة

- مدن مصر السفلى
- مدن القناة .
- سيناء .
- مدن مصر الوسطى والعليا .

بدأ الرحالة البريطانيون حديثهم عن نهر النيل الذى آثار إعجابهم وانبهروا لرؤيته وقد ذكرت هاريت مارتينو « بأنه من الطبيعى أن يقدس المصريون الأقدمون نهر النيل فقد كان إلها للجماهير ، له فى عيون الكهنة مظهر الألهة ، وكان النيل منبع ما فى أيديهم من خيرات وما فى قلوبهم من آمال « كما كان مكمن القوة الدائبة التى لا تكف عن الحركة الدافقة أمام أبصارهم ، قاهرة معظم ما يصادفهم من صعاب ، وإذا كان النيل عندهم هو قوى الخير ، والصحراء هى قوى الشر ، نشأ فى الجانب الرئيسى فى عقيدتهم الرامز إلى دفن أوزوريس فى النهر المقدس حيث يبعث مرة كل عام لنفح الكون بركاته »[١].

وعقد ويلسون مقارنة بين نهر النيل ونهر التيمس فى لندن مؤكدا أن المصريين وسكان لندن يعتبروت نهريهما من أعذب وأجمل الأنهار[٢] وبالطبع هذه مقارنة غير دقيقة فلا يمكن أن يقارن نهر النيل لامتداده واتساعه بنهر التيمس ولا سيما وأن البريطانيين كانوا أسبق من غيرهم فى اكتشاف منابعه ومعرفة قدره .

هذا وقد أدرك الرحالة الفرنسيون عظمة نهر النيل واسهبوا فى الحديث عنه فيصف ادمون أبو دلتا النيل بأنها قلب وعين العالم [٣] كما أكد العديد منهم بأنه لا يمكن مقارنة النيل بأى نهر آخر ، وقد اتفق معهم فى هذا الرأى العديد من الرحالة المسلمين ، فعندما زار الورثيلانى مصر وصف النيل بقوله « بأنه أشرف الأربعة الخارجة من الجنة فآثار بركته بالعيان فى مائة وترابه وقراه ومدائنه ، بحيث لا يوجد بلد أوسع مزارع وأكثر خصبا من مصر[٤].

تحيط الصحارى الرملية والجبلية بنهر النيل ولا سيما عبر وادى مصر العليا الذى يتسم بالضيق والتعرج ، وتروى مياهه سهل الدلتا ، وليس الأراضى المزروعة مستوية تماما فهى تنخفض نحو الصحارى أكثر منه فى الأراضى المحيطة بالنهر . وتنتشر فيها بساتين البلح ، والقرى وتقاطعها العديد من القنوات ، أما الأمطار الصيفية التى تعرفها الحبشة والبلدان المجاورة فتظهر تأثيرها فى مصر عند ارتفاع منسوب النيل وتغطى الترسبات المهمة المتأتية عن الغمر الطبيعى للمياه أو الرى الصناعى سنويا

الحقول المحيطة بالنيل بعد أن تكون هذه الترسيبات قد اشبعت تماما خاصة خلال ارتفاع منسوب النهر بطبقة غنية من التربة المجروفة من البلدان الجبلية حيث يتدفق على حد وصف أدوارد لين[٥].

أما عن مناخ مصر فهو صحى جدا معظم أوقات السنة ولكنه يفقد هذه الميزة خلال فصل الخريف ، وعلل لين ذلك بسبب غمر التربة بالمياه مما يجعل أواخر أيام هذا الفصل غير صحية فتنتشر الأمراض ولا سيما الرمد والدوسنتاريا . وتهب فى مصر رياح الخماسين فى شهر إبريل وتستمر حتى شهر مايو ، ويضرب الطاعون مصر فى الربيع . كما تهب على مصر خلال فصلى الربيع والصيف رياح السموم الساخنة وبصفة عامة يمكن القول أن طقس الصعيد صحى أكثر من طقس الدلتا رغم ارتفاع حرارته[٦].

قدم الرحالة البريطانيون وصفا للمدن المصرية . وكان من الطبيعى أن تحظى العاصمة باهتمامهم .

القاهـرة :

وصفت صوفيا لين القاهرة بأنها « أم الدنيا » وقد استعارت هذا الوصف مما يطلقه سكان القاهرة على مدينتهم حتى اليوم ، وأضافت أنه على الرغم من تدهور حالها منذ اكتشاف رأس الرجاء الصالح إلا أنها لا تزال أجمل مدن الشرق ، فهى عربية الطابع يوجد داخل أسوارها أجمل نماذج العمارة العربية[٧]، ويبدو أن صوفيا قد تأثرت بما دون عن تدهور أسواق القاهرة بعد حركة الكشوف الجغرافية وإن كانت معظم الدراسات قد أثبتت قدرة القاهرة على الاحتفاظ بأهميتها التجارية .

اتفق وصف الفرنسيين مع ما ذكره البريطانيون عن مدينة القاهرة فهى من أجمل وأعظم مدن الشرق ، حتى أنها تتفوق على مدينتى الاستانة ودمشق فهما لا يملكان سحر القاهرة ، وقد أعطت المدينة للأديب الفرنسى شاتوبريان أحساسا بأنها مدينة من مدن ألف ليلة وليلة فهى من وجة نظره عاصمة العالم[٨].

تحتل القاهرة حوالى خمسة كيلو مترات مربعة ويبلغ عدد سكانها حوالى مائتين وأربعين ألف من مجموع عدد سكان مصر البالغ مليونين حسب تقدير أدوارد لين ، ويحيط بالمدينة سور تغلق أبوابه فى المساء[٩].

اتفقت آراء الرحالة البريطانيين حول شوارع القاهرة بأنها لا تليق بمكانتها وذلك لعدم اتساعها وعبرت امليا ادواردز عن استياءها ولا سيما عندما شاهدت الأزقة الضيقة ، والحارات الصغيرة[١٠]. واتفقت معها صوفيا لين فى الرأى ، فطرقات القاهرة غير مرصوفة ضيقة ، يبلغ اتساعها ما بين خمسة وعشرة أقدام ، وأحيانا يكون عرضها أربعون أو خمسون قدما ولكن لمسافات قصيرة على حد وصفها فالشارع لا يكفى لمرور جملين معا ، وبصفة عامة شوارع القاهرة تمثل فوضى فى المرور[١١].

أما هاملتون فقد ذكر بأن شوارع القاهرة طويلة متعرجة ضيقة حتى لا يستطيع فارسان أن يتقابلا فى أى منها إلا بمشقة بينما وجدها الجراح البريطانى مادين ، لا تريح العين ولم ير فيها سوى الأزقة المغلقة والدروب الموحلة حيث تتراكم فيها الخضر العفنة والذبائح المضرجة بالدماء[١٢].

هذا وقد اتفقت آراء الرحالة الفرنسيين مع زملائهم البريطانيين فقد وصف جوبنيو شوارع القاهرة بأنها تفتقر إلى النظام[١٣] بينما وجدها شواشية مظلمة[١٤] وعقد بواتو مقارنة بينها وبين التية (اللابرانس) لأنه يصعب الخروج منها[١٥]. كما عاب بريس دافين ازدحامها وعدم الاتصال بين الأحياء المختلفة[١٦] . ومن التعليقات الطريفة التى أوردها أمبير عند وصفها إن إنجازات نابليون العظيمة ومعاركه كانت أقل صعوبة من إجتياز شوارع القاهرة بعربة تجرها ستة جياد[١٧]. أما الأثرى شامبليون فقد انفرد بتسجيل إعجابه وذلك لأن ضيق شوارع القاهرة يساعد على الاحتفاظ بالبرودة وانتقد غيره من الرحالة عندما قدموا وصفا عنها فكتب معبرا عن ذلك بقوله « يتضح لنا حماقة الأوروبيين الذين يعيبون القاهرة . ضيق شوارعها دون أن ينتبهوا إلى أن الشوارع العريضة الواسعة مثل تلك الموجودة فى باريس ولندن ستكون اتونا

وسعيرا طول السنة أو شوارع القاهرة نظيفة من أى نوع من الأقذار وغم كونها غير مرصوفة [١٨].

وجدير بالذكر أن هذا الوصف الذى قدمه الرحالة لشوارع القاهرة طرأ عليه التغير والتبديل بفضل جهود محمد على فيذكر أدوارد لين بأنه عمل على إزالة المصاطب فى الشوارع الكبيرة ، وسمح بإعادة بنائها فى الأجزاء الواسعة فقط بعرض شبرين تقريبا ، واجبر التجار على دهن حوانيتهم وأمرهم برفع سقائف الحصر القبيحة التى تظلل كثيرا من الأسواق وحرم وضعها مرة ثانية ما لم تكن من الخشب[١٩] ، واخيرا أكد لين أن القاهرة احتفظت بخصائص المدن الإسلامية فيوجد بها شارع طويل يخترقها من الشمال للجنوب أى من باب الفتوح إلى باب زويلة[٢٠].

حاول الرحالة البريطانيون تقديم صورة للقارئ الأوروبى عن تقسيمات الشوارع والدروب فعرفت صوفيا لين الدرب بأنه يختلف عن الشارع فى كونه اضيق وأقصر ، وعرضه يتراوح ما بين ستة وثمانية أقدام ، وهو طريق عام له بوابتان عند طرفيه لهما بابان كبيران من الخشب تغلقان ليلا وبعض الدروب ليس بها سوى مساكن خاصة[٢١].

أما الربع فهو يحتل الدكاين الجزء الأدنى من المبنى ، كما هو الحال فى الطرقات العامة والدروب ، وينقسم البناء فوقه إلى مساكن محدودة المعالم يسمى كل منها ربعا مستقلا عن الآخر مثلما هو مستقل عن الدكاكين اسفله ، ويؤجر الربع للأسر التى يسمح دخلها باستئجار منزل كامل مستقل وتحتوى كل شقة فى الربع على غرفتى جلوس وغرفتى نوم ومطبخ ودورة مياه ، ويندر أن يكون لها مدخل مستقل من الطريق فثمة مدخل واحد ودرج واحد يؤدى إلى العديد من الشقق التى لم يكن يسمح بتأجيرها للعزاب فيضطروا للإقامة فى إحدى الوكالات [٢٢].

أما عن منازل القاهرة فهى ترتفع دورين أو ثلاثة أدوار ويضم كل منزل فناء فسيح غير مرصوف وغير مسقوف يعرف بالحوش ، بنى عند مدخله ممر ذات

منعطف بهدف منع المارة من اختلاس النظر إلى داخل الفناء ، وفى هذا الممر ووراء الباب مقعدا حجريا طويلا مخصص للخدم والبواب ، وفى الفناء بركة تتدفق منها المياه وتطل الحجرات الأساسية على ساحة الفناء الواسع ، وتكثر الأبواب التى تدخل إليها من فناء المنزل ومن هذه الأبواب باب الحريم وهو يشكل مدخل السلالم الذى يؤدى إلى الحجرات المخصصة للنساء ، وفى الدور الأرضى حجرة المندرة لاستقبال الزائرين ولها نافذة خشبية واسعة تطل على الفناء ، ويمتد قسم من الدور ومن الباب وحتى الجهة المقابلة للغرفة مشكلا الدرقعة التى تكون أدنى من باقى الأقسام . وترصف درقعة المندرة فى المنازل الفسيحة الأنيقة بالرخام الأبيض والأسود ، وبقطع صغيرة من الآجر الأحمر المصقول ، وفى وسط الدرقعة من الرخام أو الأحجار العادية ، ويبلغ ارتفاعه نحو أربعة أقدام يعرف بالصفة يرتكز على قنطرتين أو أكثر أو على قنطرة واحدة ترتب تحتها الأوانى ذات الاستعمال اليومى كأوانى التعطير والحوض والزق المخصصة للاغتسال قبل تناول الطعام ، أما القسم المرتفع البارز من أرضية الحجرة فيعرف بالإيوان ، ويطلى بعض أجزاء من سقفه بالذهب . ولبعض المنازل غرفة أخرى هى المقعد تستخدم كالمندرة . ويلاحظ فى الغرف العلوية فى منازل الميسورين إلى جانب النوافذ الشعرية نوافذ أخرى من الزجاج الملون تمثل باقات ورد ورسوما مبهرجة زاهية أو مجرد نماذج زخرفية ، وتسمى النوافذ الملونة قمريات ، وترتفع من قدم ونصف قدم إلى قدمين ونصف القدم . وتبرز فى تصميم كل منزل تقريبا حاجة ملحة للانتظام والاتساق ويختلف عامة ارتفاع الحجرات ما يجبر المرء على صعود درجة أو أكثر نزولا للعبور من غرفة إلى غرفة مجاورة . والهدف من تصميم المنزل بهذا الشكل هو الاحتفاظ بطابع الخصوصية فيه قدر المستطاع ، ومن الشائع تشييد باب سرى يمكن من خلاله للساكن التسلل عبره إذا داهمه خطر ، ومن الشائع أيضًا بناء مخبأ فى مكان ما فى المنزل لأخفاء المال والثروة . كما يشيد فى حجرة الحريم فى المنازل الواسعة حمام يتم تسخينه على غرار الحمامات العامة[٢٣].

لا يختلف ما قدمه أدوارد لين من وصف لمنازل القاهرة عما دونه الرحالة

الفرنسيون . الذين أكدوا اتساع المنازل وحرص السكان على تزيينها وتزين نوافذها بالصدف والعاج ، وعلى اقتناء المفروشات الثمينة(٢٤) .

تنتشر المقاهي في القاهرة ويوجد ما يربو على الألفي مقهى ، ويسمح للفتيات الصغيرات من العوالم الرقص فيها ، وقد أعجب سانت جون بأحدى الفتيات عندما شاهدها ترقص بملابس رقيقة ووصفها بالجمال وكتب بأنها تشبه سيدات أثينا في الزمن القديم التي قامت بالحروب بسببهن(٢٥) .

وهذا وتشهد المقاهي اكتظاظا خلال فترات بعد الظهيرة والمساء وروادها من أبناء الطبقات الدنيا ، والتجار ، وهم يفضلون الجلوس على المصطبة الخارجية . ويحمل رواد المقاهي تبغهم وبيباتهم معهم ، ويتولى لقهوجي تقديم القهوة ، كما يرتاد بعض الموسيقيين ورواه القصص الشعبية بعض هذه المقاهي في أمسيات الاحتفالات الشعبية(٢٦) .

أهتم الرحالة البريطانيون بتقديم وصفا لأهم منشآت القاهرة على النحو التالي :

منشآت القاهرة التجارية :

احتلت الأسواق مكانة كبيرة في المدن المصرية ولا سيما في القاهرة ويقتصر قسم الشارع أو الشارع بأكمله على الدكاكين المخصصة ، لنوع واحد من التجار ، ويعرف بسوق هذا النوع من التجارة أو باسم أحد الجوامع الواقعة في المنطقة فنجد مثلا سوق النحاسين . وسوق الجواهرجية وسوق الغورية وهو اسم الجامع في هذا السوق ويعتبر سوق خان الخليلي من أهم الأسواق التركية . وتكون بعض الأسواق مغطاة بألواح خشبية أو بسطوح يستند إلى روافد خشبية ممتدة على طول الشارع فوق المتاجر أو فوق المنازل ، ويتألف الدكان من حجيرة مربعة طولها نحو ست أو سبع أقدام وعرضها بين ثلاث وأربع أقدام وقد جعل الدكان على حجرتين الواحدة وراء الأخرى وتستخدم منها كمستودع ، أو تكون أرضية الدكان وحتى قمة المصطبة مبنية في موازاة الواجهة . تضم هذه الواجهة ثلاث مصاريع قابلة للطهى عامة الواحد

فوق الآخر يكون المصراع العلوى مقلوبا إلى الأمام . وأما المصراعان الآخران فنحو المصطبة ويشكلان مقعدا مستويا بفرش فوقه حصيرا وسجادة وقد تزينه وسادة أو وسادتان وقد تحل الأبواب المصرعة محل المصاريع المذكورة فى بعض الدكاكين ويجلس صاحب الدكان عادة فوق المصطبة التى تمتد ثلاث أربع أقدام طولا ، وتمثل هذه الدكاكين الخياطين ، الصباغ ، الرفائيين ، الحبالين ، العقادين ، الشبوكشية ، العطارين ، الفاكهانية ، النقلية ، الشربتلية ، الفوالين(٢٧) .

وقد أشارت اميليا ادواردز إلى المكانة الكبيرة التى تمتعت بها أسواق القاهرة ، وقد تجولت فيها وسجلت تجربتها وبعد أن دارت حول عدة ازقة لتجد نفسها فى وسط ما أطلقت عليه « مستعمرة صانعى السروج » المنكفئين على سروجهم يخيطون ويدقون ، وقد أعجبت بأطقم الخان ورؤوس الخيل المعلقة بين واجهات الحوانيت وقد زينت بالشرابات ، كذلك رأت أعداداً كبيرة من السروج المحدبة من مختلف الأنواع والألوان فمنها سروج خاصة بخيول السيدات ، وهناك سروج خاصة لكبار الدولة ، كذلك توجد سروج خاصة بالحمير ، وسروج من الجلد الأحمر تفترشها أغطية من المخمل القرمزى والبنفسجى ، والقماش الأحمر الداكن أو الأرجوانى ، والسروج المطرزة بالقصب والفضة والمزينة بأزرار أو المزركشة بالشرائط(٢٨) .

وفى أسواق الأحذية وجدت أميليا ادواردز صعوبة كبيرة فى التجول ، فقد وجدت الطرق مغروسة بالمركيب الحمراء المغربيةالمصنوعة فى مصر ، والصفراء المصنوعة فى تونس والنعال المختلفة أنواعها منها المدبب ، والمدبب الملتوى ، وأن الزحذية السميكة الكعوب أحذية خفيفة صفراء بلا كعوب ، وأحذية للأطفال مزينة بالشرائط وأحذية بنية مغربية لسواسى الخيل وأحذية مخملية مطرزج بالقصب والخرز واللألى لنساء الحريم الموسرات أسعارها تتراوح بين خمسة شلنات وخمسة جنيهات ، ثم تحدثت اميليا عن أسواق السجاد التى تضم شبكة من الأزقة قرب الموسكى ، وثمة ميدان صغير افترشته الأبسطة العجمية والشامية وسجاجيد الصلاة

التركية . وتنتشر أبسطة ازمير الخشنة الوبر ، وأبسطة الجزائر ذات اللونين الرمادى والأزرق والأحمر ، وأبسطة تونس وفارس وتتسم الأخير بالتناغم فى الألوان والتجانس[٢٩].

وتكثر فى أسواق القاهرة دكاكين الطباخين ، الذين يعدون الكباب وغيره من الأطباق ، ويبيعونها ولا يأكل الناس فى هذه الدكاكين إلا مرات قليلة ، ويرسلون عادة يطلبون ما يحتاجون إليه منها عندما يعدون الطعام فى منازلهم[٣٠].

وأسواق القاهرة عامرة بالمنتجات الشرقية والأوروبية والأفريقية ولا سيما ريش النعام والعاج . والمنتجات الأسيوية ولا سيما المستوردة من الهند ، ويعتبر سوق خان الخليلى والحمزاوى من أهم أسواق الجوخ والحرير . هذا وتنتشر الوكالات والخانات فى القاهرة ، ومن أشهرها وكالة الجلابة ، وتقع بالقرب من خان الخليل ، كما توجد وكالة ثانية تقع بالقرب من مسجد قايتباى[٣١].

وبصفة عامة يمكننا القول أن أسواق القاهرة ووكالاتها نالت أعجاب الرحالة بل دكاكين القاهرة كان لا نصب أيضًا من هذا الأعجاب ، وقد عقد بيرتون صداقة قوية مع الشيخ محمد العطار وزار دكانه وأطلق على العطارين لقب « حكماء وأمناء مصر » وسجل إعجابه بما وجده فى دكان العطارة من صناديق خشبية عليها أسماء البهارات المختلفة ، وانتقد اغلاق الدكان بمزلاج خشبى عبارة عن جريدتين مليئتين بالبراغيث[٣٢].

المنشآت الدينية :

لفتت المساجد انتباه الرحالة بفخامتها وبنيانها ، ولكن لم نجد هذا الكم الهائل من الرسومات عن مساجد القاهرة إلا لدى الرسامين والمصورين الفرنسيين الذين فاقوا البريطانيين فى هذا المجال[٣٣].

سجل الرحالة البريطانيون إعجابهم بصوت الآذان ولا سيما البارون كيرزون فذكر « تسرى ترنيمة المؤذنين من منارات القاهرة الألف خلال الأجواء الصافية

فتبعث الخشية فى النفوس « إن صوت الآذان أكثر اتساقا وانسجاما من قرع النواقيس وزينتها [٣٤].

ورغم هذا الشعور الجميل إلا أننا نجد من بين الرحالة من اتصف بالتعصب ولا سيما بيرتون الذى انتقد عمارة المساجد وأوضح الأثر البيزنطى يبدو واضحا فيها ، أنه لا يوجد جديد فى المسجد العربى الإسلامى فهو مجرد إحياء غير واع للأشكال المعمارية التى استخدمت منذ عصور قديمة[٣٥] وفى حقيقة الأمر ما ذكره بيرتون يخالف تماما ما ذكره الفرنسى شارل بلان فى ملاحظاته القيمة عن الفن الإسلامى، ويرجع إليه الفضل فى تعريف غير المتخصصين فى فرنسا وأوروبا بهذا الفن وتطوره وزخارفه وقد دون عدة مؤلفات عنه ، وظل مؤلفه وملاحظاته حول الفنون المصرية والعربية مصدراً رئيسياً للدارسين والباحثين فى تاريخ وفنون مصر[٣٦].

رغم عدم إعجاب بيرتون بعمارة المساجد إلا أنه لم يستطيع أن يخفى إعجابه بهذا الكم الهائل من المساجد فى القاهرة فدون ملاحظاته عنها وأكد أنه لا توجد مدينة شرقية فى إمكانها أن تقدم للأوروبيين نماذج متعددة أو نماذج متاحة لعمارة المسجد مثل القاهرة ففيها ما بين ثلاثمائة وأربعمائة مكان للعبادة بعضها كركائز شامخة وبعضها مخرب وكثير منها جديد وأكثر من الجديد تلك التى ضربتها الزلزال . والمساجد تدل على أقصى درجات الأحساس الفنى لدى الشعب المصرى فكل دولة قامت فى مصر حرصت على بناء المساجد[٣٧].

من المساجد التى لفتت الأنظار مسجد أحمد بن طولون وقد حرصت صوفيا أن تنقل لقرائها اسم المسجد كما نطقه العامة « طيلون » وهو من أقدم مساجد القاهرة مساحته قدرها نحو اربعمائة قدم ، وهو بنى من الطوب المغطى بالملاط ، ويتكون من أروقة ذات اسقف مقوسة تحيط بصحن مربع ، فى وسط هذا الصحن ميضة تحت بناء حجرى مربع فوق قبة ، وأقواس هذا المسجد مدببة بعض الشىء ، وظاهرة الأقواس المدبية شرقية أكثر قدما من القوطية ، وترتفع فى شمال شرق المسجد مئذنة عالية لها سلم دائرى من خارجها وليس لها اتصال بالمسجد إلا عن

طريق بوابة مقوسة ، ومسجد ابن طولون من أجمل المبانى العربية فى القاهرة[٣٨] .

هذا ولم يستطع بيرتون إنكار جمال وفخامة مسجد أحمد بن طولون[٣٩] ، وشعرت صوفيا بالأسف للدمار الذى تعرض له، حتى أصبح فى حالة محزنة لا تليق بعظمته[٤٠].

لقى الجامع الأزهر الاهتمام ، وذلك لأنه من أشهر المساجد له قداسة فى نفوس المصريين ، ولذلك قدم بيرتون وصفا عنه فذكر أن صحن المسجد مرصوف بالأحجار التى أصبحت ناعمة الملمس بسبب كثرة أقدام المصلين ، وقد أصبحت أيضًا براقة لامعة كالزجاج ، وحول صحن الأزهر غابة من الأعمدة النحيلة ذات المنظر المتواضع ، وتوجد صفوف أخرى من الأعمدة الرخامية ، بدت كالأشجار المصفوفة على جانبى الطريق ، وقد فرشت الأرض بحصر غير نظيف ، يحوى الأزهر العديد من الأروقة ومكتبة كبيرة بها أعداد هائلة من المؤلفات والمخطوطات ، فالأزهر جامع وجامعة فى آن واحد[٤١]، فهو الجامعة الرئيسية ومنارة الإسلام على حد وصف ادوارد لين[٤٢].

التقى البريطانيون بالعديد من علماء الأزهر واثنى ادوارد لين على الشيخ إبراهيم الدسوقى ، والشيخ القويسنى ، كما أعجب ببراعة الشيخ شهاب ووصفه بأنه ضليع فى اللغة العربية بالإضافة إلى كونه حلو المعشر[٤٣].

أشار الرحالة البريطانيون للعديد من المساجد ولا سيما مسجد الحاكم بأمر الله وقد أعجب بيرتون ببنائه ولا سيما أن له قمم مستدقة أو عساليج[٤٤] . أما مسجد السلطان حسن فهو من أضخم وأعظم المساجد ، ويتسم بالاتساع ، يبدو فيه الذوق والفن الرفيع ، يقع فى ميدان صلاح الدين باتجاه القلعة ، تشبه زخارفه خلايا النحل وهو من أجمل مساجد العالم كما ذكرت إميليا ادواردز[٤٥]، كذلك عقدت صوفيا مقارنة بينه وبين مساجد الآستانة فرجحت كافة السلطان حسن[٤٦].

وقد انتقدت إميليا قذارة الأزقة والشوارع الضيقة حول المسجد ، لأن ذلك لا يليق بعظمته وفخامته وروعة بنائه وجماله الخاص[٤٧].

وجد بيرتون أن مسجد السلطان حسن يمثل حصنا فى تكوينه المعمارى ، وقلما يرى الرحالة ما هو أكثر جمالا من الأضواء المنبعثة من الزجاج الملون فيه والتى تلقى بنورها على الأرض الرخامية عندما يحل المساء(٤٨)، ومن الغريب أن صوفيا التى سجلت إعجابها بالمسجد إلا أنها سجلت أيضاً عدم إعجابها للتفاوت فى ارتفاع المئذنتين به ، فوصفته وصفا انفردت به عندما ذكرت أن مأذنه تتأذى منها العين(٤٩) .

وجدير بالذكر أن الرحالة أشاروا إلى العديد من المسجد لا سيما مسجد المؤيد والسلطان برقوق ومسجد قلاوون(٥٠)، كذلك أشاروا إلى مساجد آل البيت ولا سيما السيدة زينب والسيدة سكينة والسيدة نفيسة . وأكدت صوفيا بأن هذه المساجد لها قيمة روحية كبيرة لدى المصريين(٥١)، وانتقد بيرتون عدم الاعتناء بها رغم مكانتها وأهميتها(٥٢) .

نال مسجد محمد على بالقلعة إعجاب إميليا ادواردز ولا سيما وأنه شيد من الأباستر الشرقى ، وقد زينت اسقفه بالعديد من النجف والثريات(٥٣) . وقد سجلت صوفيا ملاحظاتها عما وجدته من آثار طلقات النيران والثقوب فى حوائط المسجد على أثر مذبحة القلعة وانتهزتها فرصة لتسجيل للقارئ تلك المذبحة حيث قتل المماليك مثل الكلاب المجنونة فى الصيد وهو تعبير قاس عما لاقوه من محمد على(٥٤) .

أشار الرحالة للتكايا والزوايا التى انشئت للفقراء للتعليم وللرعاية ، وقد بنى باشوات الأتراك العديد منها صالح أبناء جنسهم ، ومن أشهر التكايا تكية الرفاعية ، وتكية عبد الرحمن كتخدا ، وللتكايا جهاز إدارى يتكون من موظفين لخدمة الفقراء، فى مقدمتهم الشيخ ، الأمام ، الخدم ، البواب ، الوقاد ، المبخر(٥٥) .

أماعن المنشآت المسيحية فقد اهتم لين بتقديم وصف للكنيسة المصرية ، فالكنائس الكبيرة تقسم إلى أربع أو خمس حجرات وتحتل الهيكل الذى يضم المذبح القسم الرئيسى من الحجرة عند الطرف العلوى ، وهو محجوب عن باقى الكنيسة

بقطاع أو بجدار من ألواح خشبية زيتية يتوسطه باب يشكل مدخل الهيكل ، وقد اسدلت ستارة حاجبة ارتسم عليها صليب كبير وتخصص الحجرة الواقعة قبل الهيكل مباشرة للكهنة والصبية الذين يرتلون ويساعدون الكاهن فى القداس ، ويعرف باسم القندلفت ، وهذه الغرفة مفصولة عن الحجرة التى تسبقها مباشرة بفاصل خشبى ، يرتفع نحو تسع أقدام ، ويتألف من ثلاث أبواب ، ويجلس باقى المصلين فى الحجرة المجاورة ، أو قد يتخذون لأنفسهم أماكن فى حجرتين مجاورتين تخصص السفلى للنساء وهى مقفولة بواسطة قاطع خشبى لحجبهن عن الرجال ، وتزين صور القديسين المبهرجة والتى تنم عن ذوق وصفه لين أنه سقيم جدران الكنيسة أما أرضيتها فهى مغطاة بالحصر ، ويخلع المصلى القبطى حذائه عند دخوله الكنيسة ، ويسجد أمام باب الهيكل ويقبل حاشيته ستارته ثم يسجد ثانى ويسلم بيده أمام أحد صور القديسين ويقبل يد الكاهن ، ويجرى القداس باللغة القبطية ، ويقوم الكاهن ، بقراءة التفسيرات والمواعظ وتلاوتها بالعربية والقبطية .

ويخرج الكاهن من الهيكل حاملا مبخرته ويطوف بين حشد المصلين يتهم الكهنة وغيرهم غالبا بالمغالاة فى خروجهم عن الاحتشام والكياسة أثناء صلواتهم العامة لقد سمع أدوارد لين بنفسه أما باب المراب الكنيسة البطريكية فى القاهرة الكاهن وهو يصرخ فى وجه قندلفت صغير ويسبه ، وشعر لين بالأسف ولذلك سجل ملاحظته قائلا : هالنى عدم اتصاف القداس نفسه بالجلال رغم مقاربته الكبيرة للكنيسة المسيحية الأولى(٥٦) .

منشآت اجتماعية

الحمـامـــات :

تنتشر فى القاهرة حوالى سبعة عشر حماما شعبيا هى فى متناول عامة الناس من حيث قلة النفقات المترتبة ومن الحمامات ما هو حكر على الرجال أو النساء أو الأطفال وقد يجتمع الجنسان فى حمامات مشتركة فتخصص فترة ما قبل الظهر

للرجال وفترة ما بعده للنساء وعندما يكون الحمام مقتصرا على استقبال النساء يعلق منديل أو قطعة قماش من الكتان عند مدخله فلا يطأ الرجال قط ، ويكون الخدم قد عادوا قبل فترة بسيطة وحلت الخادمات محلهن ، وتزين واجهة الحمام عامة بطريقة مشابهة للزخرفة التى نشاهدها فى معظم الجوامع ، ويتداخل اللونان الأبيض والأحمر فيها فيضيفان عليها زخرفة أكبر وقد تطغى ألوان أخرى خاصة عند المدخل ويتألف الحمام من حجرات متعددة مرصوفة بالرخام الأبيض بشكل رئيسى والرخام الأسود فى بعض أجزائه إضافة إلى قطع صغيرة من الآجر الأحمر الدقيق ، وتظهر الدرقعة فى رسم مقدمة هذا المكان ، وتكون الحجرات الداخلية للحمام مغطاة بقبب تتوزع فيها فتحات صغيرة دائرية من الزجاج تسمح بتسرب الضوء ويدخل الآجر والحصى خاصة فى بناء الجدران والقبب ويتم بناء ساقية يركبها ثورة فوق مستوى أجزاء الحمام العلوية لرفع المياه من البئر إلى المرجل .

وتعرف الحجرة الأولى بالمسلخ وهى تتألف من ليونات لا يزيد عددها عن الأربعة مشابهة للمصطبات أضف إلى الفسقية التى يتدفق منها الماء البارد والمرتفعة من حوض ثمانى الزوايا مبنى من الحجارة بالرخام فى وسطه . يخصص ليوان واحد لراحة مستحمى الطبقتين المتوسطة والغنية وتمد عليه الفرش والوسادات وأما اللونات الأخرى المعدة لأبناء الطبقات الدنيا فتغيب عنها الفرش خلا الحصر ، ونجد فى المسلخ فى العديد من الحمامات مقعدا صغيرا للقهوة ثم توجد حجرة داخلية تعرف الحرارة وتضم أربعة ليونات منخفضة وفى وسطها فسقية ماء ساخن متدفق من حوض ضحل وسط مقعد ثمانى الزوايا مرتفع مكسو بالرخام الأبيض والأسود بإضافة إلى قطع من الآجر الأحمر تتحمل الحرارة وغيرها من الغرف المتصلة بها مساحة يقع البيت الأول فى أحدى زاوية وتحتل غرفتان صغيرتان مجاورتان زاوية ثانية فى المربع تضم أحداهما مغطسا من الماء الدافئ يسبقه مرتقى من أربع درجات والأخرى حنفية تتألف من صنبورتى ماء منبثقين من الجدار مخصصتين للماء البارد أو الساخن إضافة إلى حوض صغير ادناه ومقعد أمامه والجدير ذكره أن الحنفية لا تطلق على صنبورتى الماء فحسب بل وأيضًا على الغرفة نفسها التى تتواجد بها وتقع فى زاوية

المربع الثالثة غرفتان صغيرتان مشابهتان للغرفتين تحتوى الأولى على مغطس آخر مياهه غير ساخنة كمياه المغطس السابق وأما الثانية فعلى حنفية يملأها كل مغطس بالماء المتدفق من قبة الغرفة وتمثل الزاوية الرابعة فى المربع غرفة غير متصلة بغرفة الحرارة يقع فيها المرجل وتكسو القبب وسط الحرارة وليوناتها والغرف الصغيرة المرتفعة بها وهى تمتع بفتحات زجاجية صغيرة(٥٧) .

المارستانـات :

الحقت بالمساجد مثل مارستان قلاوون الذى يضم ساحتين صغرتين تحيط بهمـا زنزانات ضيقة يحتجز ويصفد فيها المجانين من الرجال فى ساحة النسـاء فى ساحة أخرى . ورغم أن هناك ما يكفى من المال للانفـاق على المارستـانات إلا أن المرضى يمدون يدهم للزوار طالبين بطريقة مؤثرة أو ربما لا يحصلون على كفايتهم منه ، وقد دخلت صوفيا قاعة الرجال فسمعت أصوات صياح وعويل مفزعة وزارت زنانات المرضى ووصفتها بأنها ضيقة فى كل واحدة منها شخص واحد فقط ، وبها قضبان بها سلسلة للمسجون البائس أما المجنون الذى لا ينقطع عن الثورة والصياح فيتم وضع طوق حول رقبته واغلال فى معصمه وقد وصفت صوفيا زنزانات المرضى بحظائر الحيوانات أما القسم الخاص بالنساء فتحرسه رئيسة وسيدة ويتم تقييد النساء فيه أيضاً وبعضهن فى حالة عرى تام ، وهن فى حالة من البؤس والأهمال والهذال وقد سرت صوفيا عندما علمت بأن هذه المخلوقات التعسة سوف تتحسن أحوالهم بعد أسابيع منذ تقرر نقلهن إلى مستشفى تحت رعايا كلوت بك(٥٨) .

ومن المنشآت العسكرية التى اهتم الرحالة بالحديث عنها فى القاهرة ، القلعة التى كان لها نصيب وافر من الاهتمام ومدخل القلعة يقود إلى ممر ضيق شديد الميل جزء من منحوت فى الصخر ، ولشدة أغواره نحتت فى بعض الأماكن منه درجات لتسهيل طلوع ونزول الخيول والجمـال . وهذا الممر الضيق هو المسرح الرئيسى لمذبحة القلعة . وقد انتقدت صوفيا ما وجدته من أكوام القمامة والانقاض بما لا يتناسب مع تاريخ القلعة ، كمـا أشارت إلى طريقة وصول مياه النيل إليهـا بواسطة

مجرى للعيون يبلغ ارتفاعه من ستين إلى سبعين قدما وهو مبنى من الحجر ، ويتكون من سلسلة من القناطر يقل ارتفاعها تدريجيا مع صعود تدريجى للأرضى لا تكاد تلمحه العين وعندما يصل الماء إلى نهاية مجراه يدخل فى قناة تحت الأرض ويرفع من بئر داخل القلعة(٥٩) .

هذا وقد اهتمت صوفيا بتقديم وصف لمغامراتها داخل القلعة نجحت فى زيارتها بفضل صداقتها مع بنات محمد على باشا ، وسجلت بفخر أن غيرها من الأوروبيات رفض طلبهن لزيارة القلعة ، رغم أنهن عرضن مبالغ مالية كبيرة بينما نالت هى هذا الشرف ، وقد لاقت صوفيا صعوبة كبيرة فى رحلتها إلى القلعة ولا سيما وهى ممتطية ظهر الحمار فى طريق زلق ولكنها لقيت الراحة بعد عناء الطريق واستقبلت فى القصر المخصص لحريم محمد على الذى أقيم على النمط التركى والذى لم تطأه قدما أوروبيا(٦٠) .

وقبالة باب النصر توجد جبانة فسيحة تمتد إلى الصحراء بها العديد من مقابر السلاطين المماليك ولا سيما قايتباى وبرقوق وهى مقابر فخمة ، وضخمة ، ويوجد فى منتصف الجبايات تكايا لإيواء الفقراء تعرف باسم قايتباى ، وتتلاصق الأضرحة اتجاه القلعة وهى جديرة بأن يطلق عليها مدينة الموتى منطقة صحراوية معها يرى فيها إنسان باستثناء يوم الجمعة حينما يزور المسلمون مقابر أقاربهم(٦١) .

أما عن أهمية أحياء وميادين القاهرة فقد تمثلت فى :

الأزبكيـــة :

نالت الأزبكية اهتماما كبيرا من الرحالة البريطانيين فيها مساكن الأمراء والرؤساء ، وفيها الحدائق والقصور ، المشرفة على البركة ومن أهمها قصر رضوان الجلفى ، وأحمد الشرايبى ، ومحمد بك الألفى ، كذلك أقيمت فيها معظم الاحتفالات ومنها حفلات زفاف أولاد محمد على(٦٢) .

وجدير بالذكر أن الشيخ حسن العطار قدم وصفا عنها قريب مما ذكره

الأوروبيون فى مؤلفاتهم قائلاً : « احتوت على البساتين الوافرة الظلال العديمة المثال، فترى الخضرة خلال تلك القصور المبيضة ، كثبان سندس خضر على أثواب من فضة يوقد بها كثير من السرج والشموع فالأنس بها غير مقطوع ، ولا ممنوع وجمالها يدخل على القلب ويذهل العقل[٦٣].

هذا ويعتبرميدان الأزبكية من أهم ميادين القاهرة التب عددتها صوفيا بأربعة ميادين ، قره ميدان ، أسفل القلعة ، والرميلة المجاورة لها ، وبركة الفيل ، ثم ميدان الأزبكية[٦٤] .

بـــولاق :

تعتبر بولاق ميناء القاهرة النهرى ، اقيمت فيها « لوكاندة الجريك » وهى بائسة قذرة تعطى الانطباع بأنه لم يتم تنظيفها من قبل ، هكذا قدم ويلسون وصفه لبولاق متأثرا بتجربته البائسة فى أحد فنادقها[٦٥] .

وعلى النقيض نالت بولاق أعجاب الفرنسيين ، فمنازلها مشيدة من الأحجار ، زينت أبوابها بأجمل النقوش على الطراز العربى القديم ، وهناك عناية توليها الحكومة لشوارعها بهدف توسعتها لتسهيل الحركة بها ، كذلك أسس فيها ماريت متحف بولاق لوضع العرض ولتخزين وحفظ آثار سقارة ، ومخلفات المقابر[٦٦] .

شبـــرا :

شانزليه الشرق ، فيها القصور والدور الفاخرة اعتاد الأمراء الصغار السير فى طريق شبرا فى الصباح ، والطريق إليها ممهد وعلى جانبيه زرعت الأشجار ، لقد اعتقدت أميليا ادواردز بأنها تسير فى طريق هايد بارك فى لندن ، وقد ادهشها جمال شبرا ونظافتها ، وقد اقيمت بها الحدائق وزرعت الأشجار ولا سيما أشجار السنط بأحجامها « غير العادية » كما انتشرت الموالح فى كل مكان منها أشجار البرتقال والليمون ، إلى جانب أشجار الموز ولم تكتف إميليا بعقد مقارنة بين شبرا وحدائق هايد بارك وإنما اضافت بأنها حدائق تشبه التيرول معظم قصورها على النمط الإيطالى[٦٧] .

هذا وقد اعجب سانت جون بقصر محمد على فى شبرا وأكشاك الموسيقى فى حديقته(٦٨).

مصــر القديمــة :

أو مصر عتيقة كما يطلق عليها العامة تقع جنوب سور مجرى العيون ، معظم منازلها تطل على نهر النيل ، وتقع جزيرة الروضة على الضفة المقابلة لها ، هذا وقد بنيت العديد من المنازل والقصوربين مصر القديمة وبولاق كذلك يوجد اتصال دائم بينها وبين الجيزة بواسطة المراكب التى لا ينقطع سيرها ليلا أو نهارا لنقل الأفراد بين ضفتى النيل ، ورغم عراقة مصر القديمة إلا أن بها مساحات واسعة من القمامة تكاد تكون ما يشبه التلال ، وهو ما وجدته صوفيا لين لا يتناسب ويتنافى مع ما يضمه المكان من أماكن أثرية قديمة ولا سيما كنيسة أبى سرجة ، وقصر الشمع ، واسطبل عنتر الذى تحول إلى مخزن للبارود(٦٩).

وفى مواجهة مصر القديمة تقع الروضة ، وقد ارتبطت شهرتها بمقياس النيل ، والاحتفالات المقامة لفتح الخليج حيث يتم الإعلام فيها عن وفاء النيل فى الفترة الواقعة بين السادس والسادس عشر من شهر أغسطس(٧٠)، والروضة حديقة جميلة بها العديد من المتنزهات ، حيث تكثر فيها الأشجار ولا سيما أشجار الجميز ، والنخيل والكروم والبرتقال والليمون والموز ، كما تزرع بها كميات كبيرة من الحناء، ويرجع سحر الروضة وإعجاب الأوربيين بها ، بسبب وجود حدائق إبراهيم باشا بن محمد على ، والتى أصبحت بفضل اشراف المستر تريل من أروع ما يشاهده المرء(٧١).

جذبت منطقتى عين شمس أو هليوبولس اهتمام الرحالة البريطانيين ، فهى مدينة اون ، بها أقدم جامعة فى العالم من أهم مراكز العلم ، تعلم فيها العديد من الفلاسفة الأغريق ، ولكنها الآن أصبحت بقعة من الصحراء الرملية المنبثقة مبعثرة بها قطع من الحصى والأخشاب والأحجار(٧٢).

من الغريب أن المزارات المسيحية فى المطرية لم تلفت اهتمام الرحالة البريطانيين، رغم وجود بستان مريم ، وكنيسة العذراء ، وما عرف ببئر مريم ، بينما نالت هذه المزارات منذ القرن السادس عشر اهتمام الفرنسيين(٧٣) .

ربما كانت صوفيا لين هى أول من تسلق جبل المقطم من النساء الأوروبيات، فقد حرصت على تسلقه ، فوجدت بأنها مهمة شاقة بالنسبة لها ، وقد قدمت وصفا عنه ، بأنه يتكون من صخور جيرية بها أصفرار تنتشر فيها الحفريات من بقايا عضوية متحجرة ، لا يكسوه أى نوع من الخضرة ، وقد شيد فوق قمته المسطحة حصن منيع يؤدى إليه طريق مرصوف شديد الأنحدار ، بين فوق قناطر ضيقة ، وقد قطعت الصخور بكثرة على جانبى الطريق ، أما فى الجانب الغربى فيوجد الكثير من الكهوف الجنائزية والوصل إليها شديد الصعوبة(٧٤) .

الاسكندرية :

اختلفت آراء الرحالة البريطانيين عن مدينة الاسكندرية فوصفها بيرتون بأنها مدينة مقلوب كيانها ، وذات أسماء مغلوطة ودلل على ذلك بأن صخورها التى يفترض بأنها جافة دائماً مبتلة ، ونافوراتها التى يفترض أنها عامرة بالمياه دائمة جافة ، حتى آثار الإسكندرية لم يجد فيها بيرتون ما يثيره إعجابه وتقديره ، أما صوفيا لين فقدشعرت بالسعادة عند اقتراب سفينتها إلى ميناء الاسكندرية ، وبالرهبة عندما لاحت أمامها معالم المدينة التى طالما سمعت وقرأت عنها(٧٧) .

نالت آثار الأسكندرية اهتماما كبيراً قبل الرحالة البريطانيين ، ولا سيما آثار البطالمة والرومان ، فسجل ويلسون إعجابه بآثار تلك الفترة ، وكان أول ما لفت انتباه هو فنار الأسكندرية ، وسجل شعوره بالأسف لعدم وجود المرأة المعدنية فى أعلاه ، كما أكدت صوفيا وجود هذه المرأة التى وصفتها بأنها تلسكوبية معدنية كانت فى أعلى المنارة القديمة ، وقتبست ما دونه المقريزى بأن الونانيين أرادوا الحصول عليها فادعى أحدهم بأن أساس الفنار به كميات كبيرة من النقود حتى يتسنى لهم هدمه،

كما حرصت صوفيا على التعريف بموقع الفنار بأن يقع فى جزيرة فاروس والتى تشتهر باسم روضة التين نظرا لوجود العديد من شجيرات التين بها[٧٩] .

هذا وقد اتفقت صوفيا مع ما دونه الفرنسيون عن وجود مرآة كبيرة من الفضة كانت تشتعل فيها النيران لإرشاد السفن وقد اقتبسوا مادونوه أيضًا من كتابات المسلمين ولا سيما الإدريسى وأبى الفدا[٨٠] .

ومن الآثار التى افتت انظار صوفيا لين وغيرها مسلتى كليوباترا ، وتقعا مقربة من ساحل الميناء الجديد ، وكل واحدة منهما مكونة من قطعة واحدة صلدة من الجرانيت الأحمر ، ارتفاعها سبعون قدما تقريبا وطول ضلعها عند القاعدة سبعة أقدام ونصف قدم ، وتعجبت صوفيا من قدرة المصريين القدماء على رفع هذه الكتل الصلدة . وتزين كل وجه من الأوجه الأربعة ثلاثة أسطر من الهيروغليفية ، والكتابة الموجودة قرب قاعدة المسلة تكاد وتكون مطموسة المعالم[٨١] .

هذا وقد صحح الفرنسيون المعلومات عن مسلتى كليوباترة فأكدوا بأن تحتمس الثالث هو الذى أمر بتكريس المسلتين ونصبهما أمام معبد الشمس فى هليوبوليس واضيفت إليهما الكتابات فى عهد رمسيس السادس وهو ما سجله شامبليون[٨٢] .

أما عمود بومبى فهو قطعة اسطوانية كبيرة مكونة من كتلة من الجرانيت الأحمر طولها ثمانية وستون قدما ، وقطرها عند القاعدة تسعة أقدام حسب مقاييس أخى . أما تاج العمود فكتلة من الحجر نفسه يبلغ ارتفاعه عشر أقدام ، كما أن القاعدة تتكون من ثلاثة كتل من الجرانيت الأحمر أيضًا وارتفاعها معا يبلغ عشر قدما ، ويكون مجموع ارتفاع النصب خمسة وتسعين قدما[٨٣] . هذا وقد اختلفت تقديرات الفرنسيين عند ارتفاع العامود فقدروه بمائة وأربعة عشر قدما وقطره وتسعة أقدام ، وينتهى بتاج ارتفاعه عشرة أقدام ، وقد جلب الأحجار اللازمة لصنعة من أسوان كما ضححوا نسبة إلى بومبى ، لأنه ينسب إلى سيفير[٨٤] .

ومن الطريف أن بعض الارتفاعات التى سجلتها صوفيا عن ارتفاع العمود لم

تنكر بأنها كانت « مقاييس أخى » أى ادوارد لين هذا وقد انتقدت صوفيا لجوء بعض الأشخاص إلى كتابة أسمائهم وأسماء سفنهم على اسطوانة العمود وبعضهم من زمرة المغامرين ، ومنهم أمرأة انجليزية لم تذكر أسمها صعدت إلى قمة العمود ، كذلك أوضحت صوفيا جهود بوكوك فى عام ١٧٣٧ ، أو الكولونيل سكوير Squire وهاملتون ، والكولونيل ليك Leake فى فى القرن ١٩ لمحاولة فك رموز بعض الأسطر الموجودة فى العمود ، ومنها اهتدوا بأنه صمم من والى مصر لإهدائه إلى الامبراطور دقلديانوس الذى لا يقهر « كما تمكن الأثرى البريطانى جاردنر ويلكنسون من قراءة اسم الوالى الرومانى بوبليوس[٨٥] .

هذا وتضم الاسكندرية رفات العديد من الأولياء الصالحين لعل أشهرهم وأقربهم إلى نفوس الناس المرسى أبو العباس وقد سجل ويلسون بأن العامة يعتقدون بأهمية زيارة مسجده والدعاء فيه لتحقيق ما يتمنونه . كذلك اهتم بيرتون بمسجد النبى دانيال ، وأكد أن عظام الاسكندر دفنت تحت هذا الموضع وهو ما ردده غيره من الرحالة[٨٦] . وإن كانت الدراسات الأثرية فى الوقت الراهن قد اثبتت خطأ هذه الفكرة .

أما عن مظاهر التحديث فى المدينة ، فقد أكدت صوفيا على أهمية ميناء الاسكندرية والإصلاحات التى انتها فيها ، بما يتناسب مع مركز المدينة التجارى المالى[٨٧] ، كما تحدث ويلسون عن سماح محمد على بدخول الأوروبيين فى الميناء الغربى بعد أن كان مخصصا للمسلمين والسفن الإسلامية فقط ، وكان يطلق عليه « ميناء المؤمنين » تميزا له تحت الميناء الشرقى المخصص للسفن الأوروبية ، وكان يطلق عليه « ميناء الكفرة » وكان الأخير مهجوراً ، يعرقل مدخله كتل من الصخر تخترقها ثلاث ممرات طبيعية الأوسط منها أكثرها عمقا[٨٨] . وهذا وقد اتفقت كتابات الفرنسيين مع ما سجله ويلسون[٨٩] .

يقع الحى الأوربى فى جنوب شرق المدينة الجديد ، وموقعه يسمح للتجار بتخزين بضائعهم بسهولة ، ولكنه يفقد أهميته ، ولا سيما بعد السماح للأوروبيين باستخدام الميناء القديم ، ويوجد تناقض بين الحى الأوروبى ، والأحياء العربية ،

فالأول يتسم بالإتساع ، وبه ميدان فسيح جميل ، كما يوجد به فندق تقف أمامه قوافل الجمال ، وتنتشر فيه المحلات التجارية التى تتميز بثراء بضائعها[٩٠].

تضاعفت أهمية الإسكندرية التجارية مما استتبع ضرورة امتداد العمران بها ، فأصبحت أكثر طولا عما كانت عليه من قبل ، بينما ظلت المناطق الغربية فيها مهجورة ، فى حاجة إلى مزيد من التحديث والتعمير ، ولذلك لم تر فيها صوفيا لين سوى ساحلا رمليا منبسطا طويلا موحشا[٩١].

بنيت منازل الإسكندرية من الحجر الجيرى الأبيض والنوافذ على هيئة مشربية خشبية تبرز إلى الخارج ، أما نوافذ الأوروبيين فهى من الزجاج ، كذلك قصور الباشا والهندسة الداخلية للمنازل لا تثير الأعجاب رغم ما يبدو عليها من بذخ وقد استخدم فيها كثير من الأعمدة القديمة المصنوعة من الجرانيت والمرمر لم انتزاعها من المعابد القديمة وقد انتقد الرحالة هذا العمل[٩٢].

ومياه الإسكندرية رديئة الطعم يحصل عليها السكان من صهاريج توجد تحت المدينة تمدها بالماء بواسطة أنابيب تحت الأرض تستمد مياهها من ترعة المحمودية فى أوقات الفيضان وعللت صوفيا رداءه مذاق المياه بأنها تمر بتربة الأسكندرية المالحة فتزداد ملوحة ، ورغم ذلك لا غنى للسكان عنها ولكل بيت تقريبا صهريج يملأ بواسطة قرب من الجلد تحملها الجمال والحمير كما أن هناك فى المدينة العديد من الآبار تمتلئ بالمياه العكرة . ومعظم فوهات الصهاريج مغطاه بقاعدة رخامية مجوفة ولها اسقف مقوسة تحملها أعمدة أو دعائم مربعة وفى بعضها طابقات ، وعند معظم الصهاريج تحت المدينة القديمة ولا يزال عدد كبير منها مفتوحا وفى حالة جيدة لإمداد المدينة الحديثة بالمياه[٩٣].

ومن أهم مظاهر التحديث التى لفتت الأنظار قناة المحمودية ولا سيما وأنها أفادت مصالح بريطانيا التجارى فكان يتم نقل المسافرين فى طريقهم إلى الهند من الاسكندرية عبر القناة إلى القاهرة ثم السويس . وكان ذلك بوسطة الصنادل التى تجرها الخيول فى البداية ثم تولت شركة ملاحة شبه الجزيرة الهند والشرق نقل

المسافرين من الإسكندرية السويس وأكد بيرتون أن طريق ترعة المحمودية الملاحى أصبح معروفا وشهيرا[٩٤]، وقد أطلق عليها المحمودية تيمنا بالسلطان محمود ، ولكن لم يكن حفرها حميدا على الفلاحين الذين يعانوا من السخرة والمعاملة القاسية ، وقلة الطعام والمياه[٩٥] .

ورغم القسوة التى اتبعت فى حفر الترعة إلا أن صوفيا أرادت التخفيف على القارئ فصورت سريعا بؤس وشقاء الفلاحين ، ثم تطرقت لحديث أكثر لطفا ، عندما تحدثت عن تقليد جميل اعجبت به وحرصت على كتابته يخص النوتية المصريين الذى يحرصون على قراءة الفاتحة قبل الملاحة فى ترعة المحمودية ، يقرأها طاقم المركب وريسها بصوت جماعى ، ثم قصار السور ، وكتبت متمنية أن يسود هذا التقليد فى بريطانيا « ياليت شعبنا ينهج نهج المسلمين فى هذا المجال ، ويعترف الجميع أن مصيرنا فى يد الله وحده ، وإن كل سفر وكل رحلة يجب أن تباركها العناية الإلهية »[٩٦] .

ولتيسير سبل الاتصال فى المدينة تم إنشاء سلسلة من المحطات لإرسال البرقيات إلى القاهرة يمتد على مسافة مائة وعشرين كم وتمثل هذه المحطات فى تسعة عشر برجا تبدأ فى جزيرة فاروس وتنتهى عند قلعة القاهرة[٩٧] .

اهتم محمد على بتحصين الميناء ، ولا سيما بعد حملة فريزر فأحاطها بسور كبير لأنه خشى هجوما فرنسيا أو بريطانيا ، وللسور أربعة أبواب حصينة[٩٨] والإسكندرية بما تم من مظاهر التحديث تعتبر خليقة لواحدة من أعظم مدن العالم القديم[٩٩] .

لم تلق ترسانة الإسكندرية اهتمما كبيرا من الرحالة باستثناء سان جون الذى امتفى بالإشارة إلى مجهودات محمد على[١٠٠] . رغم أن الفرنسيين اسهبوا فى الحديث عنها وعدوا أسماء السفن التى تم بنائها ولا سيما المارشال مارمون[١٠١] .

وأخيرا تحدثت صوفيا عن مناخ الاسكندرية فلم تبد إعجابا به ، واستنكرت ما كتب عن هوائها الصحى ، ولا سيما فى السنوات الأخيرة ، وعللت ذلك أن البحر

يحيط بالمدينة من كل جانب آخر ، وقد تحولت إلى مستنقع مالح حيث قام الجيش البريطانى فى عام ١٨٠١ بعمل فتحة سمحت لماء البحر فى بحيرة أبى قير من اكتساح قاع بحيرة مريوط . ثم تكررت العملية فى عام ١٨٠٣ بواسطة محمد على، ثم مرة ثالثة فى عام ١٨٠٧ ، عند مجئ حملة فريزر ، ولم يتحسن مياه البحيرة كان له أثاره الضارة ، وقد ساعد على ذلك رطوبة المدينة وتكاثر الندى الكثيف عليها خلال الليل طوال العام ، وأصبح مصدرا للأذى ، كما أن الطاعون يظهر فيها قبل ظهوره فى أى مكان آخر ، واستنكرت صوفيا الآراء التى تصف مناخ الإسكندرية بأنه أفضل من القاهرة ، وذكرت أن الجو فيه أقل حرارة شيد الرطوبة(١٠٢) .

قدم سان جون وصفا لأبى قير فذكر بأنها فقيرة ولكنها شهدت أحداث خطيرة منذ مجئ الحملة الفرنسية(١٠٣) ، كذلك ارتبطت أبى قير بشعور البريطانيين بالفخر وذلك لأن ويلسون الحق الهزيمة بالأسطول الفرنسى فيها(١٠٤) .

رشيـــد :

رشيد مدينة جميلة مقبولة ، تحيط بها الخضرة من كل مكان منازلها جميلة مبنية من الطوب الأحمر ، فيها خان يديره الإيطاليون وينزل الأوروبيون فيه (١٠٥) .

يخيم البؤس على سكان رشيد ، والأطفال فى حالة سيئة ، عراه يتعلمون فى مدارس تفتقر إلى النظام والنظافة ، وقد عقد ويلسون مقارنة بينهم وبين أطفال الهند، فوجد تشابها كبيرا فهم متسولون ، يفتقرون إلى النظافة والعناية ، ولم يكتف ويلسون بأطفال رشيد فقط وإنما عقد مقارنة بين العرب الذين يعملون فى خدمة القناصل وينامون فى العراء خلف الأبواب ، وبين الخدم فى البنغال فوجد تشابها كبيرا وبصفة عامة سكان رشيد يثيرون الاشمئزاز والمدينة تفتقر إلى النظافة والنظام ، هكذا لم ير البريطانيون فى رشيد ما يستحق الذكر والصف ، وربما أخطر ما قيل أن ويلسون كان متأثرا بكتابات اليهود فأخذ يؤجد حسب رواياتهم بأنهم عندما خرجوا من مصر عادوا إليها عبر رشيد وكأن المدينة لم تلفت انظاره بحالتها الراهنة ولم يجد ما يذكر فيها سوى ما اقتبسه من اليهود(١٠٦) .

هذا الوصف الموجز لرشيد لا يشبه ما كتبه الفرنسيون عنها فهى بوابة مصر الشمالية ، مستودع البضائع القادمة من القاهرة والوجه القبلى ، ورثت مكانه فوه منذ القرن السادس عشر ، ازدهرت فيها التجارة ازدهارا كبيراً ، مقر القناصل الأوروبيين ونوابهم ، تمتاز بخصوبة اراضيها ، بها أجود أنواع النخيل بعد أسوان ، وفى القرن التاسع عشر سجل لى مونتوليه : أن الفنان والرسام ليجد متعة كبيرة عند رسم رشيد الجميلة ، بمزارعها الخضراء والصحراء التى تحيط بها أن طبيعة رشيد الساحرة تفوق جمالها جبال ومراعى سويسرا الخضراء ، وشواطئ نهر اللوار المزهرة ومزارع اوهايو الشاسعة . ومع هذا الوصف الرائع للمدينة لم ينكر الفرنسيون تراجع مكانه رشيد فى القرن التاسع عشر عما كانت عليه من قبل[١٠٧] .

دميـــاط :

اكتفى ويلسون بوصف دمياط بأنها مدينة قديمة ، مقامة على النيل يوجد بها قنصل يونانى ، وهى تشبه المدن التركيـة تشتـهر بزراعة الأرز وتصـدره بكميـات كبيرة[١٠٨] .

رغم تراجع مكانة دمياط فى القرن ١٩ بعد أن كانت أكبر المدن التجارية بعد القاهرة إلا أن الفرنسيين حرصوا على زيارتها والكتابة عن أعداد التجار الأوروبيين فيها من فرنسيين وإيطاليين ، وقد أعجب بها فوربان فعقد مقارنة بينها وبين هولندا فالنيل يحيط بها من كل جانب والمزارع تمتد حولها فى كل مكان[١٠٩] .

اهتم الرحالة البريطانيون بتقديم وصف سريع لأهم المدن والقرى الواقعة بين الثغور المصرية والقاهرة ، وجذبت مدينة فوه الانتباه ولا سيما وأنها اشتهرت بالحرف اليـدوية ، وتميزها فى صناعة الطرابيش ، وقـدر سانت جون إنتاجـهـا منه بنحـو خمسمائة طربوشاً فى الأسبوع ، كما تنتج الزعبوط ، واهتم بتقديم شرح ووصف له للقارئ البريطانى فذكر أنه يشبه ما يرتديه سكان تونس وفزان[١١٠] ، أما صوفيا لين فلم تر فى فوه سوى المساكن الحقيرة ، ولكنها لم تستطع إنكار شهرتها بإنتاج أجمل

ثمار الرمان ، وبها أجمل نساء[١١١] ، وقد وجد ويلسون بأن مياه النيل فى فوه تشبه مياه نهر التيمس فى هذا الجزء من مصر[١١٢] .

جدير بالذكر أن الرحالة الفرنسيين اهتموا بتقديم وصف تفصيلى لمدن الوجه البحرى ولا سيما ميت غمر ، زفتى ، بنها العسل ، اتريب ... إلخ ، كما اهتموا بالمدن الجديدة التى انشئت ولا سيما الزقازيق[١١٣] ، كذلك توغلوا فى صحارى مصر ، ولا سيما صحراء وادى النطرون ، وقدموا وصفا لأهم الأديرة فيها ، ويمكن تعليل تزايد الاهتمام الفرنسى بهذه المناطق بأنهم ساروا على هدى اسلافهم فلا ننسى أن كتابات الفرنسيين عن مصر بدأت مبكرا منذ القرن السادس عشر وتواصلت الدراسات العلمية عنها حتى القرن الثامن عشر فكان من الطبيعى أن يستكمل رحالة القرن التاسع عشر المسيرة .

مـدن القنـاة :

لقيت مدن القناة اهتماما كبيراً من الرحالة البريطانيين ولا سيما مدينة بور سعيد التى أسست حديثا فعبر بيرتون عن سعادته لوصوله إليها ، وهى من وجهة نظره مدينة جميلة صحية ، موقعها ممتاز على البحر المتوسط ، وتنقسم المدينة قسمين القسم الأوروبى يتسم بالجمال به العديد من الأشجار والورود ، ثم بناء كشك موسيقى يعزف أجمل الألحان فى المساء ، وقد شيدت فيه المحلات ، والفنادق ، ومن أشهرها فندق اللوفر ، كما يوجد بالمدينة كنيسة يونانية وأخرى فرنسية ، أما عن وسيلة المواصلات الرئيسية فى المدينة فهى الحمير ، وتتسم منازل الأوروبيين بالفخامة والأناقة تشبه منازل سويسرا وهى مصنوعة من الأخشاب ، أما الحى العربى فيختلف اختلافا كبيرا عن الحى الأوروبى فمنازله متواضعة ، يبدو عليها علامات الفقر وشوارعه ضيقة[١١٤] .

السويس :

تعتبر مدينة السويس من أهم مدن البحر الأحمر لفتت أنظار البريطانيين منذ

عدة قرون ، فنجد إشارات عنها مما ذكره بتس بأنها ميناء هام للسفن المتجهة إلى الأماكن المقدسة ، وبها سفن خصصت لنقل الغلال والحجاج ، وانتقد بتس عدم توفر المياه العذبة فى الميناء[115] ،وهى نفس الملاحظة التى أوردها بوكوك فى القرن الثامن عشر[116] ، كما انتقد فولنى فى القرن الثامن عشر حالة ميناء السويس وإهمال السلطات المصرية له ، وأكد بأنه لو كان فى مصر حكومة صالحة لشيدت مدينة جميلة على الخليج ولاهتمت بترميم قناة النيل بين السويس والقاهرة[117] .

قدم الرحالة البريطانيون وصفا لمناخ السويس فذكر بيروتون بأن مناخه أسوأ من مناخ مدينة دوفر البريطانية فمتوسط الحرارة فيها حوالى ٦٧° فهرنهيت ، ويمثل شهر يناير وأغسطس طرفى النقيض من حيث الحرارة والبرودة فخلال شهر يناير تتراوح درجة الحرارة بين ٣٨° درجة كحد أدنى و ٦٨° درجة كحد أقصى ، وخلال شهر أغسطس تتراوح درجة الحرارة بين ٦٨° و ١٠٢° درجة تصل إلى ١٠٤° فهرنهيت . ولذلك فالحر فى السويس « لا يطاق » على حد وصف بيرتون . وتهب العواصف « الهوجاء » من الجنوب فى شهر مارس ، أما المطر فيتغير تغيرا ففى بعض الأحيان تمر ثلاث سنوات دون نزول وابل من المطر بينما فى عام ١٨٤١ استمرت السيول لمدة تسعة أيام متتالية فأغرقت المدينة ، وهدمت منازل كثيرة[118] .

قدر بيرتون عدد سكان المدينة بنحو ٤٨٠٠ نسمة وانتقد عدم وجود إحصاء رسمى فى مصر والعالم الإسلامى . ثم تراجع عن هذا التقدير وذكر أن البعض قدر عددهم بستة آلاف . ورغم تزايد سكان السويس إلا أن اجتياح وباء الكوليرا المدينة أدى إلى تزايد الوفيات مما أدى إلى تناقص أعدادهم بصورة كبيرة[119] .

وللسويس أهمية تجارية كبيرة فيصلها منتجات افريقيا ولا سيما ريش النعام والجلود والعاج والصمغ ، كذلك منتجات شبه الجزيرة العربية ومخا والحديدة ، والمدينة لها اتصالاتها الواسعة من وكلاء التجارة الأوروبيين ، كما يعمل فيها الشركات الأجنبية مثل شركة الجزيرة التى خصصت عربات تجرها الخيول ، وأقامت استراحات ومحطات فى الصحراء لراحة المسافرين . وأسواق السويس عامرة باللحوم

والطيور والخضروات ويفد على المدينة معظم منتجات القاهرة[١٢٠].

ولا جدال أن افتتاح قناة السويس كان لها تأثيره على المدينة فقد تزايدت فيها أعداد السفن المارة بها ولا سيما البريطانية التى بلغت فى عام ١٨٧٢ حوالى ٧٥٥٨ سفينة ، وتفوقت فى العدد على غيرها من الدول الأوروبية باعتراف الفرنسيين أنفسهم[١٢١].

اهتمت الحكومة المصرية بتطوير مدينة السويس ، وإدخال كافة المشاريع العمرانية فيها ، ولذلك اعترف بيرتون بأنه وجد تغيرا كبيرا عندما زار المدينة للمرة الثانية فكانت أفضل تقدما ، ولم تعد تلك المدينة البائسة صغيرة الحجم ، وإنما نمت بشكل ملحوظ ، ولا سيما خلال عامى ١٨٧٧ و ١٨٧٨[١٢٢].

هذا وقد تم بناء مستشفى بريطانى فى المدينة ، وأصبحت من أجمل المدن وتوافد عليها المسافرون من مختلف الجنسيات ، كما أهتمت الحكومة بإنشاء خط حديدى فيها ، وخط برقى ، وذلك لأنها مدينة هامة تربط بين الشرق والغرب ، وبين استراليا والهند والصين ، وأوروبا ، وتفد إليها السفن من مختلف أنحاء العالم، ولم يعكر صفو بيرتون سوى الصبية المتسولين الذين طاردوه طالبين منه البقشيش ياخواجة على حد وصفه ، وقد وجد بأن أصواتهم تشبه طنين الناموس ، وعندما قام الجنود بإبعادهم سبوهم ، «يلعن أبوكم يا كلاب»[١٢٣].

ورغم ذلك وجد بيرتون أهالى السويس أكثر رقة وتحررا من القاهريين ، ومظهرهم أقرب إلى العرب ، ولكن ملامحهم أكثر جمالا وتميزا ، ولكنهم مشاغبون متمردون لديهم شغف بالعراك ، وهم يسكنون فى منازل بسيطة تشغل الوكالات الطوابق العليا منها ، وتستخدم الطوابق الأرضية كمخازن للبضائع ولا سيما للأخشاب والتمور[١٢٤]، ونفى بيرتون الفكرة الشائعة بأن سكان المدينة لا يرحبون بالأجانب الأوروبيين ، فهم على النقيض من ذلك ، يميلون لعقد الصداقات مع مختلف الجنسيات ويرحبون بهم للإقامة فى مدينتهم ، وقد عقد بيرتون صداقة قوية مع عمر أفندى الدغستانى وهو من الجراكسة حفيد مفتى المدينة

الحنفى ، وكان مسئولا عن قيادة قوافل الجمال ، وأشاد بيرتون به لأنه وفد على مصر لطلب العلم فى الأزهر وهو شخصية محترمة ، كذلك تعرف بيرتون على الشيخ حامد السمان ، وهو من المدينة المنورة ، كما التقى بصالح شكار وهو من أب تركى وأم عربية أقام فى السويس ، وهكذا التقى بيرتون بسكان السويس وضيوفها ومسئوليها أيضًا فقدتعرف على جعفر بك حاكم المدينة ووصفه بالمهارة العسكرية وأثنى عليه لاتقانه عدد من اللغات الأوروبية(١٢٥).

عدد بيرتون صعوبات بناء السفن فى السويس منها نقص المواد اللازمة لهذه الصناعة ، فالأخشاب يتم استيرادها من الهند ولا سيما خشب الساج ، كذلك يتم استيراد الألواح الخشبية من البندقية ، وترتفع أسعارها فى السويس عن الاسكندرية بنسبة ١٠ ٪ وذلك بسبب ارتفاع تكاليف نقلها بالجمال ، كما تمد تريستا والدولة العثمانية السويس بالصوارى ، وتحصل من جدة على الأشرع ، أما صناع السفن فهم خليط من العرب والمصريين . هذا وتتعدد أنواع السفن فمنها البغلة وتحمل أكثر من خمسين طنا ، والسنبوك وحمولتها من خمسة عشر طنا إلى خمسين طنا. ويصل السويس فى المتوسط ٩٢ سفينة تتراوح حمولتها ما بين ٢٥ طن ، ويخرج منها حوالى ٣٨ سفينة . وفى فترة الحج يخرج من الميناء سفينتين أسبوعيا ، أما باقى شهور العام فيتراوح عدد السفن ما بين ست وعشر سفن ، وتشحن السفن خلال عودتها من جدة بالسلع . وقد قدر بيرتون قيمة الواردات ٣٤٠ ألف جنيه استرلينى سنويا ، أما الصادرات إلى جدة فقد قدره ٣٠٠ ألف جنيها استرلينى سنويا تشمل الواردات البن ١٧٤٦٠ بالة (جوال بن) ، والصمغ العربى ١٥٫٣٢ بالة ، القيمة الإجمالية لكل سلعة تتراوح بين ٧٥ ألف ، ٨٠ ألف جنيه استرلينى ، وجملة السلعتين هو ١٦٠ ألف جنيه استرلينى . ثم يأتى الشمع فى المقام الثانى من حيث الأقمشة بعد البن والصمغ ولا سيما الشمع من اليمن والحجاز ، عرق اللؤلؤ من البحر الأحمر ، ويتم إرساله لانجلترا خاما كما هو ، والفلفل من الملابار فى الهند ، والقرنفل يجلبه الحجاج من بورنيو وجاوة وسنغافورة ، وأنابيب الشيش العجمية تأتى من بلاد فارس والبصرة ، وهى مصنعة من خشب الكرز ، والتمباك العجمى ،

ويجلب من سورات فى الهند وقد قرر بيرتون قيمة هذه البضائع بمبلغ عشرين الف جنيها استرلينى سنويا وفى عام ١٨٥٣ بلغ عدد بالات القرنفل ٧٠٨ بالة ٩٤٨ بالة فلفل ، بلغ ثمنهما سبعة آلاف جنيها استرلينى ، إلى جانب ذلك يرد على الميناء الحبان ، والعطور الشرقية ، الصبر ، الورد ، والتمر هندى ، من الهند واليمن، والجلود المدبوغة وأوراق السنا من اليمن والحجاز والملابات المصنعة من القطن من جنوب الجزيرة العربية[١٢٦] .

أما الصادرات فقد تكونت من الأدوات المنزلية وأغطية الرأس والموسلين ، ودهانات مانشستر والكحل والصابون الشامى وحلقات الحديد والأدوات المعدنية من نرمستا وأوراق الكتابة والصنادل والطرابيش وأدوات الزينة[١٢٧] .

قدم بيرتون وصفا لجبل عتاقة مؤكدا أنه من الصعب تسلقه ، ونلمس منه تعاطفا مع اليهود فما من مناسبة إلا ويذكرهم حتى عندما زار السويس ، فكتب بأن جبالها تذكره بخروج اليهود من مصر[١٢٨] ، وهو يقتبس مقتطفات من التوراة ويوردها فى كل مناسبة ليجعل القارئ يشعر بالتعاطف والحزن على خروجهم من مصر مما يدل على تعصبه الواضح نحوهم[١٢٩] .

وأخيراً لم يغفل بيرتون الحديث عن موسم الحج وأثره على السويس ، ولا سيما وأنه يفد عليها الحجاج من شمال أفريقيا ، والتكارنة من غربها ، وسكان جبرت من الحبشة[١٣٠] .

ومن المدن الهامة التى أسست فى منطقة القناة مدينة الإسماعيلية التى وصفها بيرتون بأنها من أجمل الموانى بها مبنى مخصص للخديو تم بناؤه لاستقبال ضيوفه عند افتتاح القناة ، كما تتسم منازل المدينة بالفخامة والأناقة ، فتبدو كالقصور ، ونظرا لأهمية المدينة فقد تم ربطها بخط حديدى يصلها بالسويس ، هذا وقد أرجع بيرتون الفضل فى العناية بنظافة المدينة لفرديناند دى ليسبس الذى أراد أن يجعل منها اسكندرية ثانية[١٣١] .

وقد انتهز بيرتون فرصة وجوده فى الإسماعيلية فقام بزيارة الشلوفة ووصفها

بأنها المركز الرئيسى لتجارة العبور ، كما تجول فى خليج السويس فى جزيرة شدوان والزعفرانة(١٣٢).

سينـــاء :

جذبت سيناء الانتباه وأثارت الإعجاب وقد وجد بيرتون بأن الرحلة إليها تمضى دون كلل أو ملل ، فالمناظر الصحراوية ببروزها وفخامتها مناظر موحية منيرة ، أنها مناظر تحتكم للمستقبل لا للماضى حتى أنها توقظ العقول والشعور ، أن المتعة فى السير فى الصحراء لا يجدها المرء فى أنهار الجليد الألبية ، ولا حتى فى البرارى الشاسعة (١٣٣).

هذا وقد أهتم بيرتون بالحديث عن أهم القبائل التى تسكن سيناء فذكر منها الصوالحة والعليقات ، السعدى ، كذلك لفت نظره القلاع التى اقيمت لحماية الحجاج أثناء عمورهم صحراء سيناء ولا سيما قلعة العجرود. وهى قلعة يتجه الحجاج منها ، إلى العقبة ومنها إلى الأراضى الحجازية ، وتعتبر من منازل الحاج المصرى ، وقد بنى بها حصنان ، ورممت فى العصر العثمانى ، وكان الهدف الرئيسى منها هو حراسة القوافل فهى بوابة مصر الشرقية ومفتاح السويس(١٣٤).

ثم قدم بيرتون وصفا لبناء القلعة ، فوصفها بأنه مبنى رباعى الزوايا ذو أبراج أسطوانية عند بوابته ، وبها حوالى اثنى عشر فلاحا يعملون خفراء(١٣٥).

مدن مصر الوسطى والعليا :

لفتت أهرام الجيزة انتباه الرحالة البريطانيين ، وعبرت أميليا ادواردز عن دهشتها « وذهولها » عند رؤيتها ، كما سجلت انبهارها بألوانها التى تبدو للناظر إليها وكأنها « أكوام هائلة من سبائك الذهب » هذا وقد تمكنت بمساعدة الأدلاء من تسلق الهرم الأكبر ، وأعربت عن امتنانها لهم لأنهم شجعوها بمختلف اللغات الأوروبية ، فأخذوا يصيحون بالفرنسية « تقدمى » وبالألمانية « لقد قطعت نصف الطريق » ومن

الطرائف التى ذكرتها بأنها عندما نجحت فى الوصول إلى القمة الهرم كان الأدلاء يعتقدون بأنها أمريكية فأخذوا ينشدون الأغانى الشعبية الأمريكية ، وعندما علموا بأنها إنجليزية رددوا نشيد حفظ الله الملكة[١٣٦] .

ومما ذكرته إميليا ادواردز يتضح لنا أن الأدلاء خلال هذه الفترة اتقنوا اللغات الأوروبية المختلفة ، على نحو ما نشاهدة اليوم ، كذلك يدل على توافد السائحين الأوروبيين على مصر ولا سيما من المانيا والولايات المتحدة الأمريكية .

ولا جدال أن معظم الأوربيين تملكتهم الرغبة والحماس لتسلق الأهرام ، كما أهتم العديد منهم بتسجيل تجربته داخل الهرم ، فنجد الفرنسى فوربان يسجل تجربته للقارئ الفرنسى داخل هرم خوفو والصعوبات التى لاقاها وتعرضه لهجوم الخفافيش عليه[١٣٧] .

ولبيان فخامة الأهرام عقد امبير مقارنة بينها وبين كاتدرائية نوتردام فى فرنسا ، وإن كانت تلك المقارنة ليست فى محلها ، ولكنه أراد أن يدلل على عظمتها وضخامتها[١٣٨] .

هذا وقد وجهت اميليا ادواردز اتهاما للسلطات المصرية ، لقيامها بانتزاع أحجار الهرم الأكبر لتشييد المساجد والقصور ومختلف المشروعات العمرانية فى البلاد[١٣٩] .

ويبدو أنها تأثرت بما ذكره الرحالة السابقون ، ولا سيما لينان دى بلفون الذى سجل كل محاولات عباس باشا توفير الأحجار اللازمة لعمل الترميمات للقناطر الخيرية ففكر فى انتزاع أحجار الهرم الأكبر ، ولكن لينان نسب الفضل لنفسه بحكم عمله بأنه اقنعه بأن ذلك العمل سيكلفه أموالا طائلة إلى جانب تشويه صورته أمام الرأى العام الأوروبى فانصاع له[١٤٠] .

وجدير بالذكر أن البريطانيين أسهموا فى مجال الكشف الأثرى بتشجيع من القنصل البريطانى صولت ، الذى كلف الإيطالى بلزونى بالقيام ببعض أعمال الكشف فى منطقة أهرام الجيزة ونجح فى اكتشاف مدخل الهرم الأوسط فى عام ١٨١٨[١٤١] .

يلاحظ عند الحديث عن أهرام الجيزة أن الرحالة البريطانيين لم يرددوا الخرافات التى أثيرت حولها فى القرون السابقة وذلك لأن علماء الحملة الفرنسية ثم الأثريين الفرنسيين والبريطانيين أوضحوا الكثير من الحقائق عنها ، كذلك لم يهتموا بتقديم وصف دقيق عن ارتفاع الأهرام ، وعرضها ، وكذلك لم يسهموا فى الحديث عن كتابات المؤرخين القدامى كذلك الحال بالنسبة لتمثال أبى الهول ولا سيما وأن صولت ومعاونه الإيطالى بلزونى اكتشف سلالم تؤدى إلى معبد صغير أسفل أقدام أبى الهول . وقد خلص الأثريون بأن جسد أبى الهول جسد أسد ورأس إنسان . وكان التمثال مدفونا حتى كتفيه فى الرمال وكانت الرقبة وجزء من أعلى الصدر فقط ظاهرين للعيان من أثر الحفائر التى أجراها الأثريون وخاصة كافيجليا الإيطالى الذى عثر على واجهة ومدخل معبد صغير أسفل التمثال على شكل تجويف من كتلة حجرية واحدة ، كما قام بإزاحة الرمال التى كانت تغطى التمثال ، وكان الفراعنة ينحتون تماثيلهم بصفتهم للتجسيد الحى للمعبودات على الأرض ولذا فقد اتخذ وجه التمثال ملامح الآله أى ملامح الملك الذى أمر بنحته[١٤٢] .

البدرشيــــن :

لفتت أبراج الحمام فى البدرشين أنظار إميليا ادواردز ، كذلك سجلت أعجابها بخصوبة أراضى المنطقة وتوفير المياه فيها ، وأكدت حرص أهالى البدرشين على تربية أعداد كبيرة من العجول تشتهر بجودتها[١٤٣] .

يختلف ما سجله الفرنسيون عما ذكرته إميليا ولا سيما الأثرى شامبليون فالآثار هى اهتمامه الأول ولذلك قدم وصفا لآثار المنطقة ، للعمائر القديمة بينها وبين منف ، حيث عثر على تمثال الملك سنوسرت وصفه بأنه قطعة فنية رائعة تمثل فن النحت المصرى ودعا حكومته لإرسال مزيد من الدعم المالى ، لكى يتمكن من إتمام حفائره على نطاق أوسع ، وأعلن تعهده بأنه سيملأ متحف اللوفر بتماثيل على قدر كبير من العظمة والروعة فى أقل من ثلاثة أشهر[١٤٤] .

أما منطقة سقارة وما تحويه الآثار فيها من موميات للحيوانات والعصافير ، فقد

نالت اهتماما أكثر من الفرنسيين ولا سيما شامبليون الذى وصفها بأن يوجد فيها سهل الموميات من جبانات فسيحة تحوى رفات أجيال متعاقبة من سكان منف ، كذلك قدم وصفا لمقبرة الكاتب الملكى امينيموف ، ووصفا لهرم سقارة المدرج ، ولكن ينبغى أن نذكر أن لين قدم وصفًا دقيقًا للمنطقة وارتفاعات وحجم الهرم المدرج . كما قام بجولة فى أبى صير ودهشور وميت رهينة وزار قرى أم خنان والمناوات وأورد ما ذكره هيرودوت والمقريزى(١٤٥) .

الفيــــوم :

وصف بورغ الفيوم بأنها حديقة البلاد المصرية ، يزرع بها العديد من أشجار الزيتون ، والحنطة ، والشعير(١٤٦) ، والحقيقة أن ما قدمه بورغ من وصف ، يتفق كثيرا مع ما ذكره الرحالة الفرنسيون من قبل ، فقد وصفوا الفيوم بأنها حديقة مصر أرضها من أغنى ، وأجمل ، وأخصب الأراضى ، تشتهر بانتاج الحبوب والفواكه ، وينمو فيها الزرع تلقائيا ، دون مجهود ، وهواؤها معطر مثل هواء فرنسا فى الربيع(١٤٧) .

حافظت الفيوم على تلك المكانة ، ولكن رغم ما تمتعت به من مزايا ، إلا أنها واجهت عدة مشاكل منها زحف رمال الصحراء على أراضيها الخصبة ، ولذلك اهتمت السلطات المصرية بتوفير المياه اللازمة وحفر الترع وزراعة الأشجار ، وأشاد بورغ بتلك الجهود ولا سيما وأن الحكومة كلفت لينان دى بلفون بأجراء العديد من الدراسات والأبحاث لحل هذه المشكلة(١٤٨) .

ولا ترجع أهمية الفيوم لخصوبة أراضيها فحسب ، وإنما اقيم فيها المعامل ولا سيما معامل الغزل والنسيج والصباغة ، كما حوت العديد من الآثار القديمة والآثار المسيحية التى تمثلت فى الكنائس والكهوف ، وقد قام لين بجولة فى قرى الفيوم ولا سيما فيدمين وقدم وصفا عن بحيرة قارون وأورد ما ذكره عنها هيرودوت والمقريزى(١٤٩) .

بنى سويف :

ميناء ، مدينة هامة ، تمر بها السفن المتجهة إلى مصر العليا ، تمتاز بخصوبة أراضيها ، بها معامل لغزل القطن ، وصباغة النيلة[١٥٠] ، ولم يتفق رأى اميليا ادواردز مع ما ذكره بورغ فلم تجد فى بنى سويف ما يسترعى الانتباه سوى قصر بنى للخديو إسماعيل على الطراز الإيطالى ، ولم ترى سوى الفقر والبؤس يخيم على المدينة ، وقد تجولت فى بعض المناطق التابعة لبنى سويف ولا سيما ببا فلفت نظرها وجود دير مسيحى صغير به أعداد من الرهبان ، يدل مظهرها على الفقر ، وقد أعطت أحدهم شلنا فشكرها بأدب جم ، حرصت على تسجيل هذا الشكر ، وفى المدينة معمل للسكر ، وبها أعداد من الأقباط وجدت اميليا أنهم يشبهون الوجوه المرسومة على جدران الكنائس والمعابد القديمة[١٥١] .

وكما زارت إميليا ببا وبعض المناطق المحيطة ببنى سويف بينما تجول بورغ فى البهنسا واهتم بتسجيل أعداد المسلمين والأقباط فيها ووصفها بأنها مدينة هامة[١٥٢] .

المنيـــــا :

لفتت آثار المنيا انتباه الرحالة البريطانيين ولا سيما الأثرى البريطانى هاى وبصحبته زوجته الذى عاش فى مصر فى الفترة ١٨٢٨ـ١٨٣٦ [١٥٣] ، وقد اشتد التنافس فى المنيا بين القنصل البريطانى صولت وشامبليون الفرنسى للتنقيب عن الآثار وأن كان التفوق من نصيب شامبليون الذى قدم وصفا لآثار بنى حسن التى حوت على رسوم تفصيلية تتعلق بالحياة المدنية والحرف والفنون وطبقة العسكريين ، كما وجد مقبرتين ترجع إلى عهد سركون ثانى ملوك الأسرة الثالث والعشرين ، مقبرة أخرى ترجع إلى عهد نيوتيف ، لوحة تمثله ومع ابنه يسوقان الأسرى الأسيويين ومعظم مقابر بنى حسن محفورة فى الصخر وأبوابها بالهيروغليفية الجميلة وتوجد بها صالات وأعمدة من الرخام ، وفى الصالات الداخلية توجد المومياء ، وقد عمل

فى منطقة بنى حسن أيضاً الأثرى البريطانى هاى .

وكما شهدت منطقة بنى حسن تنافسًا بين شامبليون وهاى ، شهدت الاشمونين تنافسا بين القنصل البريطانى صولت وشامبليون فى مجال التنقيب عن الآثار وقد اكتشف الأخير معبدا يرجع إلى عهد تحتمس الرابع ، وواصل شامبليون جهوده الآثرية فى زاوية الميتين وملوى(١٥٤) .

اختلف وصف إميليا ادواردز عما قدمه الأثريون ورغم أعجابهم بآثار ومقابر بنى حسن ، إلا أنها سجلت بأنها شعرت بالإحباط عند زيارة المنيا ، فلم تجد فيها سوى بعض المحلات الصغرى البسيطة ، أما الأسواق فتقع خارج المدينة ، ورغم ذلك فقدوجدت بضائع واردة من مانشستر تباع فى أسواق المنيا ، كذلك بضائع واردة من اليونان ، وقبرص ، والحبشة ، وتعجبت أن محلات المنيا تبيع كل شىء ولا سيما الجبن والسردين ، والبسكويت ، واللحوم ، والشموع ، والسجائر ، كما تنتشر محلات المأكولات ولا سيما التى تبيع الأكلات الشعبية ، والكباب ، ولكن رغم ثراء محلات المنيا إلا أن إميليا سجلت عنها ، بأن كل ما شاهدناه فيها يذكرنا بأفقر أحياء القاهرة(١٥٥) .

لاحظت إميليا أن للمرأة نشاطا ملموسا فى المنيا ولا سيما فى بيع الزبد ، والفواكه والخضروات ، والبيض ، والدجاج ، وتباع المائة بيضة بما يساوى ١٤ بنسا انجليزيا ، وتباع الدجاجة ، بما يساوى خمس بنسات ، والحمام بنسين ونصف والأوزة الحية بشلنين انجليزيا، والخروف بستة عشر شلنا ، هكذا قدمت قائمة بالأسعار التى وجدتها فى المدينة وكانت حريصة على تسجيلها ، أما عن آثار المنيا فقد شعرت إميليا بالأسف لأن معظمها تعرض للسرقة والسطو والنهب(١٥٦) .

تجول سان جون فى منفلوط ، وسجل إعجابه بما تنتجه من منسوجات وذيوع شهرتها فى صناعة السجاد(١٥٧) .

أسيـــوط :

تعتبر أسيوط من أهم المدن فى الصعيد ، بها أحسن المتاجر ، وأجود أنواع البضائع ، تصدر أنواع الشيش المختلفة إلى الجزائر واليابان ولندن وباريس[(١٥٨)] .

وهى مركز رئيسى لتجميع الرقيق القادم من السودان وفيها يتم اخصاء الرقيق ، وتقوم بهذه المهمة رهبان زاوية الدير ، وتنتشر فى شوارعها وحواريها البضائع المجلوبة من داخل افريقيا[(١٥٩)] .

تحوى المدينة العديد من الآثار القديمة والأديرة ، والكهوف المنقورة فى الجبال[(١٦٠)] .

ومن الملاحظات الهامة التى أوردها بورغ عن أسيوط بأن الأفيون يزرع فيها وتشتهر أبو تيج بزراعته وله أقبال فى الأسواق الأوروبية[(١٦١)] .

سوهـــاج :

أثارت سوهاج ومدنها الاستحسان فوصفها البريطانيون بأنها ساحرة تنتشر فيها أشجار النخيل[(١٦٢)] ، وأشارت إميليا بأبحاث ودراسات ماريت بك عن الآثار المصرية القديمة واكتشافاته ولا سيما فى ابيدوس ، كما أشارت إلى مؤلفه[(١٦٣)] .

وأعجبت بما دونه عن معابدها القديمة ولا سيما تلك التى بناها سيتى الأول، ورمسيس الثانى ويعتبر معبد سيتى من أجمل المعابد به العديد من النقوش المزخرفة ، وأثار دهشتها العديد من المعابد بها عدة مداخل وهمية رائعة والبعض منها يحوى العديد من الأعمدة قد تصل إلى ستة وثلاثين عمودا[(١٦٤)] .

تعتبر طهطا من أشهر مدن سوهاج فهى مدينة ساحرة تنتشر فيها الأشجار والمزروعات المختلفة[(١٦٥)] ، وقد أضاف الفرنسيون لهذا الوصف بأن المدينة تحوى ديرا للإيطاليين ، وقد حاولت البعثات التنصيرية تحويل أقباط مصر إلى المذهب الكاثوليكى ولكن جهودها باءت بالفشل[(١٦٦)] .

أما أخميم فهى قرية صغيرة ، يقدر عدد سكانها بعشرة آلاف نسمة تشتهر بإنتاج السكر وفيها مصنع النسيج(١٦٧) .

وتنتشر معامل السكر فى سوهاج وقد خصصت المراكب لشحنه من فرشوط ، حيث يتم تحميله على ظهور الجمال(١٦٨) .

قنـــا :

مثلت قنا أهمية خاصة للبريطانيين ولا سيما وأن التجار البريطانيين عملوا فيها، وذلك لاتصالهم بالبحر الأحمر ، ولتجارتها النشطة ولا سيما مع أفريقيا ، وقد أحضر الضابط البريطانى بريجز كميات كبيرة من نباتات الهند لتجربة زراعتها فى قنا ولكن تلك المحاولات لم تنجح وتمثل قنا مستودعا للبضائع القادمة من الهند والحجاز وأفريقيا، وهى مدخل وادى النيل من جهة البحر الأحمر ، وقد وصفت إميليا ادواردز بأنها مدينة صحراوية افريقية الملامح(١٦٩) .

لفتت دندرة الانتباه ولا سيما معبدها الذى اهتم الأثريون بالحديث عنه ولا سيما ويلكنسون البريطانى وكل من شامبليون وماريبت الفرنسيين ، وقد التزمت إميليا الحيدة عن حديثها عن جهود الآثريين فسجلت بأن ما تراه من نقوش بديعة يرجع الفضل فى ذلك إلى الفرنسيين والبريطانيين على سواء ، ولكن إلى جانب تلك الجهود ، هناك دراسات عن المعبد أشهرها ما سجله بروجش ودوميخان(١٧١) .

وجدير بالذكر رغم ما دون عن جمال ونقوش معبد دندره إلا أن الفرنسى شامبليون أشاد بجمال طابعه المعمارى فقط ولكن النقوش فيه تمثل الاضمحلال والانحطاط ، لأن الفن تدهور فى عصر اليونان والرومان والمعبد فى نظره « تحفة معمارية مغطاه بنقوش فى غاية الركاكة تمثل الاضمحلال(١٧٢) .

الأقصـــر :

أنبهر البريطانيون بآثار الأقصر ولا سيما وأن الأثرى البريطانى ويلكنسون عمل

فيها ، وأن كان قد وقع فى العديد من الأخطاء عند وصفه لبعض المعابد وصحح شامبيلون هذه الأخطاء(١٧٣) .

ولا جدال أن المعابد والمسلات والراميسوم من أهم الآثار التى حرص البريطانيون على زيارتها ، ولم تخفى إميليا ادواردز أعجابها بجهود الأثريين الفرنسيين فى المنطقة(١٧٤) ، واقتبست فى مؤلفها العديد من الفقرات التى دونها شقيق ماريت عن آثار المدينة(١٧٥) ، والحقيقة أن الإشادة بجهد الأثريين الفرنسيين جاء أيضاً من بنى جلدتهم فامبير قارن بين جهود شامبليون وويلكنسون البريطانى ، فجاءت المقارنة لصالح الأول ، لأنه فهم الحضارة المصرية(١٧٦) .

ويعتبر الراميسوم من أضخم الآثار فى الأقصر بناه رمسيس الأكبر ، وقد استخدم الرحالة خطأ اسم مقبرة اوسيمندياس عليه فصحح شامبليون ذلك ، وقدم وصفا تفصيليا عنه وعن اللوحات الموجودة به ، وهى تمثل الفرعون وهو يقدم القرابين إلى آلهة طيبة وآمون ، والإله موت ، والآلهة الشاب خنو ، وتباح ، ومنتو ، وهناك لوحات تصور الفرعون وهو يتقبل الهبات والعطايا ، ولوحات تمثل انتصارات رمسيس ولوحات تضم صور كاملة لأبناء رمسيس الذكور مرتبة زمنيا حسب أعمارهم، وهم يرتدون ثيابا تدل على مكانتهم العالية(١٧٧) .

وتعتبر وادى الملوك أو بيبان الملوك من أهم الجبانات الملكية . وتقع فى وادى تحاصره الجبال الشاهقة ، الجبانة بها العديد من الأبواب تؤدى إلى المقابر الملكية التى تحوى موميات ملوك الأسرات الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين ، وتعتبر مقبرة رمسيس من أروع المقابر كذلك مقبرة مرنبتاح الأول ، وتم نزاع بين الآثريين الفرنسيين والبريطانيين فى المنطقة ، ولا سيما بلزونى بتكليف من القنصل البريطانى صولت ، وشامبليون ، وقد اعتبر البريطانيون أنهم الملاك الشرعيون لمقبرة مرنبتاح الأولى بفضل جهود بلزونى الذى تمكن من اكتشاف مقبرة سيتى الأول ، ولا سيما وأن الرحالة البريطانى بوكوك كان من أوائل من سجلوا ونبهوا لأهمية مقابر وادى الملوك فى القرن السابق(١٧٨) .

هذا وقد أشادت إميليا بمقبرة وادى الملوك حيث تغطى القبور الملكية والممرات والمداخل ، وأكدت أنه توجد بردية فى المتحف البريطانى (١٧٩)، أخذت من منطقة وادى الملوك توضح مراسم الدفن لدى المصريين ، ومن الطرائف التى ذكرتها بأن المصريين القدماء لم يكونوا فى حاجة إلى قساوسة أو رجال الدين عند دفنهم لأن عائلتهم كانت تقوم بهذه المهمة على أتم وجه ، فيحضرون للمتوفى كل أنواع الطعام والفواكه (١٨٠).

ورغم جهود الأثريين الأوروبيين إلا أن أهالى الأقصر لا يتذكرون تلك الجهود ولا يهمهم فلا يعرفون شامبليون ولا ويلكنسون وإنما يتذكرون فقط الليدى داف جوردون التى عاشت فى المنطقة ، ووطدت صلاتها بالأهالى حتى أنها عندما عادت إلى لندن استضافت أحمد بن مصطفى اغا ليمكث فى ضيافتها (١٨١).

وجدير بالذكر أن الآثريين الذين توافدوا على الأقصر فضلوا الأقامة فى معابدها ومقابرها مثل روبرت هاى البريطانى ، وشامبيليون وغيرهم ، وبونومى ، وفضل البريطانيون البقاء فى تلك المقابر حتى أن هاى أقام مع أسرته فى أحدى المقابر وعندما زار سانت جون الأقصر ، سجل بأن طوال اقامته فى طيبة كانت بمثابة مستعمرة إنجليزية أكثر منها مدينة مصرية (١٨٢).

يقع وادى العساسيف شمال الراميسوم ويوجد به مقابر منحوتة فى الجبال ، وقام ويلكنسون البريطانى بعدة اكتشافات فيها ، هذا وقد وجدت إميليا ادواردز صعوبة كبيرة فى الوصول إلى المنطقة لأن الطريق لم يكن ممهدا فيها (١٨٣).

كذلك قدم الرحالة البريطانيون وصفا سريعا لمدينة هابو والقرنة ، وقد أشاد بورغ بموقع القرنة ، حيث تفد إليها القوافل من سنار وتعتبر من أهم محطات تجارة السودان (١٨٤).

أما عن آثار القرنة فيعتبر معبد القرنة هو الأثر المشهور باسم قصر القرنة وقد تميز بروعة نقوشه التى ترجع إلى الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة ، وقد خصص المعبد لعبادة أمون ، وقد أقام الآثرى ويلكنسون فيه وفى وسط المقابر بنى

منزلا عاكفا على دراسة آثار المنطقة[185].

وقد وصفت اميليا ادواردز معبد القرنة بأنه معبد عائلى لأن فيه رسومات تمثل رمسيس وأولاده ، كما سجلت أعجابها ببعض اللوحات ولا سيما تلك التى حوت رسم لوجوه نسائية ولا سيما الملكة تى ، فوصفت وجهها بأنه جميل تشبه ملامحه بورتريه الملكة اليزابيث فى بريطانيا . وهى مقارنة تحوى مبالغة كبيرة .

اهتمت اميليا ادواردز بالقاء الضوء على جهود شامبليون ، وماريت فى الأقصر واوردت مقتطفات من مؤلفات الأخير ليس عن الأقصر فقط وإنما عن مدن الوجه القبلى[186].

هذا وقد لقى معبد الدير البحرى الاهتمام ولا سيما وأنه مثل نموذجا متناسقا للمعمار والبناء ، وقد شيد له ثلاثة طوابق . زاره شامبليون ، كذلك قدم الألمانى لبسيوس وصفا عنه ١٨٤٥ ، وقد قام ماريت ببعض الترميمات له ونسخ بعض نقوشه وأرسلها لمعرض باريس الدولى ، ويرجع الفضل لفرانسيس فرين المصور البريطانى فى التقاط أول صورة فوتوغرافية لمعبد حتشبسوت فى عام ١٨٥٠ [187].

آرمنت :

اشتهرت بزراعة السكر وبها معامل للسكر ، ويحكم المدينة بك له نفوذ كبير يراقب العمل فى معامل السكر ، وفى يده قوة عسكرية كبيرة وله قصر وحدائق ، ومركب بخارى فى النيل[188].

أسنا :

شعرت إميليا ادواردز بالأسف ، لأن محمد على استخدم معبد أسنا كمصنع للبارود .

قدم الرحالة البريطانيون وصفا سريعا لأدفو ، وكوم امبو التى وصفتها إميليا بأنها مدينة ساحرة بها العديد من المعابد ويعتبر معبد بطليموس أهم ما يميز المدينة ،

وأكدت ما ذكره شامبيليون من قبل بأن معابد ادفو وأسنا وكوم امبو ، لقيت الاهتمام من علماء الحملة الفرنسية على حساب معابد طيبة(١٨٩) .

أســـوان :

تشتهر أسوان بمعابدها وآثارها وقد لاحظت اميليا سرعة جريان النيل فيها فسجلت ملاحظتها بأنه كلما توغلنا جنوبا ازداد جريان النيل ، ولسكان أسوان خبرة بالملاحة النيلية ، ولا سيما وسط الجنادل والشلالات وهى خبرة يفتقر إليها الإنجليز أنفسهم وهى تشك فى قدرتهم على الملاحة فى هذه الجهات(١٩٠) .

ويتم تجميع البضائع والرقيق فى أسوان ومنها عبر نهر النيل إلى القاهرة(١٩١) .

ويشتهر سكان جزيرة فيله بالهدوء الشديد ولا توجد بينهم أى مشاكل ويبدو أن الطبيعة فرضت عليهم هذا الهدوء فالجبال الساكنة الممتدة تفرض جوا من الهدوء، وتعتبر فيلة مفتاح النوبة ولها أهميتها العسكرية(١٩٢) .

تجول الرحالة البريطانيون جنوبا فى بيت الوالى ، ودبود ، وكلابشة ، ودندور ، ولفت أنظارهم الملامح الأفريقية لتلك المناطق والتى ازدادت وضوحا فى جرف حسين ، ودكا ووادى السبوع . وقد تعرضت بعض هذه المناطق للسطو فقام أحد الألمان بانتزاع بعض اللوحات من معبد وادى السبوع فأمر مرييت بك بإغلاق حجرات وصالات المعبد ، ولا سيما وأن المنطقة غنية بآثارها المصرية القديمة والرومانية(١٩٣) .

ومن وادى السبوع توغل البريطانيون إلى عمدا ، وكوروسكو ، ودرو ، وقد اصابتهم الدهشة عندما رأوا أعدادا كبيرة من التماسيح فى هذه المناطق ، فقد قلت أعدادها شمال أسوان بسبب المذابح التى ارتكبها الصيادون(١٩٤) .

ومن درو اتجه الرحالة جنوبا إلى ابريم ، وأبو سمبل ، ووادى حلفا ، حيث يتسع النهر فى المنطقة ، وفى هذه المناطق أجمل المعابد التى توضح تعاقب الحضارات

المختلفة على مصر ، وقد اشادت إميليا ادواردز بجهود ماسبيرو فى دراسة آثار هذه المنطقة . وفى توشكى وجدت إميليا أن الأهالى اهتموا بزراعة القمح والمحاصيل المختلفة(195).

وأخيراً رغم اهتمام لين برصد الحياة الاجتماعية فى مصر إلا أنه اهتم أيضاً بوصف المدن المصرية من الإسكندرية إلى وادى حلفا فتجول فى منطقة الشلالات وفيلة وضواحيها ودبود وكلابشة ودندور وجرف حسين ووادى السبوع وابريم وأبى سمبل . كما حرص على تقديم وصف لجغرافية هذه المناطق وأورد ما ذكره هيرودوت وديودور الصقلى عنها وما دونه المقريزى وأشاد باكتشافات شامبليون فيها وخصص فصول مخطوطه من الثلاثين حتى التاسع والثلاثين عن هذه المناطق(196).

رغم وصول البريطانيين إلى المناطق الواقعة جنوب أسوان إلا أنها كانت مجالا لعمل الفرنسيين بدرجة أكبر ولا سيما شامبليون وكايلليو ولمبير فجاء وصفهم أدق عنها وعن آثارها ولم يتوقفوا عند هذا الحد إنما توغلوا جنوباً حتى منقلة فى شمال السودان(195).

هوامش الفصل الرابع

(١) ثروت عكاشة : مرجع سبق ذكره ، ص ٣٧٠ .

(٢) Wilson, Ri Op. cit., P.76 .

(٣) About, E: Le Fellab, Paris 1869 P. 126 .

(٤) ولد الحسينى محمد الورثيلانى فى عام ١١٢٥هـ وتوفى ١١٩٣هـ، وأخذ العلم عن والده ، زار العديد من البلاد منها مكة ومصر ، لمزيد من التفاصيل انظر الورثيلانى : نزهة الأنظار فى فضل علم التاريخ والأخبار المشهور بالرحلة الورثيلانية للشيخ العالم الربانى والشريف النورانى الحسينى بن محمد الورثيلانى ، القاهرة ١٩٧٤ ، ص٢٤٣ .

(٥) ادوارد وليم لين : مرجع سبق ذكره ، ص ١١ .

(٦) المرجع السابق وانظر : Lane : op. cit., P. 128 .

(٧) صوفيا لين : مرجع سبق ذكره ، ص ٨٤ .

(٨) Champollion J : Ininerairc de Paris à Jerusalem . P. 235 .

(٩) ادوارد لين : مرجع سبق ذكره ، ص ٣٢٧ .

(١٠) Edwards , A : op. cit., P. 35 .

(١١) صوفيا لين : مرجع سبق ذكره ، ص ٨٤ .

(١٢) ثروت عكاشة : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٩٣ ، ص٣١٩ .

(١٣) Gobineau De, La Comte : Thois ans en Asie. Paris, 1855 . P. 19 .

(١٤) Scholcher, U : L'Egypte. Paris 1846, P. 88 .

(١٥) Poitou, E : Un hiver en Egypte Paris 1846, P. 166 .

(١٦) إدريس أفندى فى مصر : مذكرات الفنان المستشرق الفرنسى بريس دافين فى مصر ١٨٠٧ _ ١٨٧٩ جمعها وترجمها أنور لوقا ، القاهرة ١٩٩١ .

(١٧) Ampert, J : Vogage en Egypte et en Nubie : Paris 1868 .

(١٨) Champollion : op. cit .

(١٩) ادوارد لين : مرجع سبق ذكره ، ص ٤٢٥ .

(٢٠) المرجع السابق : ص ٤٣٣ .

(٢١) صوفيا لين : مرجع سبق ذكره ، ص ٨٥ .

(٢٢) Lane : op. cit., P. 24 - 25 .

(٢٣) المرجع السابق : ص ٢٠ ، ص ٣١ .

(٢٤) الهام ذهنى : مرجع سبق ذكره ، ص ٣٢٦ .

(٢٥) St John : op. cit., P. 109 .

(٢٦) Lane : op. cit., P. 79 .

(٢٧) المرجع السابق : ص٣٢٦ ، ص ٣٢٨ .

(٢٨) ثروت عكاشة : مرجع سبق ذكره ، ص٣٨١ .

(٢٩) المرجع السابق : ص ٣٨٠ ، ص٣٨١ .

(٣٠) ادوارد لين : مرجع سبق ذكره ، ص ٣٣٠ .

(٣١) صوفيا لين : مرجع سبق ذكره ، ص ٨٦ ، ص ٨٨ .

(٣٢) بيرتون : مرجع سبق ذكره ، ص ٨٤ .

(٣٣) الهام ذهنى : مرجع سبق ذكره ، قرن ١٩ ، ص٣٤١ .

(٣٤) ثروت عكتشة : مرجع سبق ذكره ، ص ٣٢٣ .

(٣٥) بيرتون : مرجع سبق ذكره ، ص ٣٢٣ .

(٣٦) انظر مؤلف شارل بلان :

Blanc, ch : Histoire des Peintres de toutes écoles .

(٣٧) بيرتون : مرجع سبق ذكره ، ص٩٠ .

(٣٨) صوفيا لين : مرجع سبق ذكره ، ص١٠٨ .

(٣٩) بيرتون : مرجع سبق ذكره ، ص ٩١ .

(٤٠) صوفيا لين : مرجع سبق ذكره ، ص١٠٨ .

(٤١) بيرتون : مرجع سبق ذكره ، ص٩١ .

(٤٢) Lane : op. vit., PP. 83 - 84 .

(٤٣) المرجع السابق : ص ٢٢٠ .

(٤٤) بيرتون : مرجع سبق ذكره ، ص٩١ .

(٤٥) Edwards , A : op. cit., ti P. 34 .

(٤٦) صوفيا لين : مرجع سبق ذكره ، ص ٩٤ .

(٤٧) Edwards , A : op. cit., ti P. 35 .

(٤٨) بيرتون : مرجع سبق ذكره ، ص ٩١ ، ص ٩٢ .

(٤٩) صوفيا لين : مرجع سبق ذكره ، ص ١٠٦ .

(٥٠) المرجع السابق : ص ١٠٠ ، ص ١٦٠ .

(٥١) المرجع السابق : ص ١٠٨ .

(٥٢) بيرتون : مرجع سبق ذكره ، ص ٩٢ .

(٥٣) Edwards , A : op. cit., ti PP. 42 - 45 .

(٥٤) صوفيا لين : مرجع سبق ذكره ، ص ١٠٨ .

(٥٥) المرجع السابق : ص١١٠ .

(٥٦) ادوارد لين : مرجع سبق ذكره ، ص ٥٥٤ .

(٥٧) المرجع السابق : ص٣٥٠ .

(٥٨) صوفيا لين : مرجع سبق ذكره ، ص ١٠٢ ، ص١٠٥ .

(٥٩) Lane : op. cit., P. 91 .

(٦٠) المرجع السابق : ص ١١٢ .

(٦١) المرجع السابق : ص ١١٤ .

(٦٢) المرجع السابق : ص ١١٤ .

(٦٣) إبراهيم شحاته : القاهرة ، ص ٢٣٦ .

(٦٤) صوفيا لين : مرجع سبق ذكره ، ص٨٤ .

(٦٥) Willson, R : op. cit., ti P. 87 .

(٦٦) الهام ذهنى : مرجع سبق ذكره ، ص ٣٢٣ .

(٦٧) Edwards , A : op. cit., ti P. 541 .

(٦٨) St John : op. cit., ti P. 159 .

(٦٩) صوفيا لين : مرجع سبق ذكره ، ص١١٦ .

(٧٠) Lane : op. cit., PP.91 - 93 .

(٧١) صوفيا لين : مرجع سبق ذكره ، ص ١١٦ .

(٧٢)

(٧٣) الهام ذهني : مرجع سبق ذكره ، ص٣٣٦ .

(٧٤) صوفيا لين : مرجع سبق ذكره ، ص ١١٤ .

(٧٥) بيرتون : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٣ .

(٧٦) Wilson, R: op. cit., P. 39 .

(٧٧) صوفيا لين : مرجع سبق ذكره ، ص ٣٤ .

(٧٨) Wilson, R: op. cit., P. 39 .

(٧٩) صوفيا لين : مرجع سبق ذكره ، ص ٧٣ .

(٨٠) الهام ذهني : مرجع سبق ذكره ١٩ ، ص٣٤٤ .

(٨١) صوفيا لين : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٤ .

(٨٢) الهام ذهني : مرجع سبق ذكره ١٩ ، ص ٣٤٤ .

(٨٣) صوفيا لين : مرجع سبق ذكره ، ص ٣٨ .

(٨٤) الهام ذهني : مرجع سبق ذكره ١٩ ، ص ٣٤٣ .

(٨٥) صوفيا لين : مرجع سبق ذكره ، ص ٣٨ .

(٨٦) صوفيا لين : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٤ .

(٨٧) صوفيا لين : مرجع سبق ذكره ، ص ٣٥ .

(٨٨) Wilson, R: op. cit., P18 .

(٨٩) الهام ذهني : مرجع سبق ذكره ١٩ ، ص ٣٣٧ .

(٩٠) Wilson, R: op. cit., P18 .

(٩١) صوفيا لين : مرجع سبق ذكره ، ص ٣٥ .

(٩٢) المرجع السابق : ص ٣٨ .

(٩٣) المرجع السابق : ص ٤٢ .

(٩٤) بيرتون : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٥ .

(٩٥) صوفيا لين : مرجع سبق ذكره ، ص ٥٢ ، ص ٥٣ .

(٩٦) المرجع السابق : ص٥٣ .

(٩٧) المرجع السابق : ص٥٣ .

(٩٨) المرجع السابق : ص٥٢ .

(٩٩) St John : op. cit., P. 56 .

(١٠٠) Ibid., P. 59 .

(١٠١) الهام ذهني : مرجع سبق ذكره ١٩ ، ص ٣٤١ .

(١٠٢) صوفيا لين : مرجع سبق ذكره ، ص٤٠٢ .

(١٠٣) St John : op. cit., P. 67 .

(١٠٤) Wilson, R: op. cit., P54 .

(١٠٥) St John : op. cit., P. 76 .

(١٠٦) Wilson, R: op. cit., PP. 58 - 62 .

(١٠٧) De Montulé : Voyage en Amerique en italie en Sicile et en Egypte Paris 1812, T 1.

(١٠٨) Wilson, R: op. cit., P121 .

(١٠٩) De Forbin de Le : Voyage dans le levant Paris, 1818 .

(١١٠) St John : op. cit., P 84 .

(١١١) صوفيا لين : مرجع سبق ذكره ، ص٥٣ .

(١١٢) Wilson, R: op. cit., P72 .

(١١٣) إلهام ذهني : مرجع سبق ذكره ١٩ ، ص٣٦٠ .

(١١٤) Burton, A : op. cit., P. 62 .

(١١٥) بتس : مرجع سبق ذكره ، ص ٤١ .

(١١٦) Pococke , R : op. cot., Vo 15 .

(١١٧) فولني : مرجع سبق ذكره ، ص ١٤١ .

(١١٨) بيرتون : مرجع سبق ذكره ، ص ١٤٩ .

(١١٩) المرجع السابق : ص ١٤٩ .

(١٢٠) المرجع السابق : ص ١٥١ .

(١٢١) De Garcy , E : De Paris en Egypte. Paris 1875 Puu 6 .

(١٢٢) بيرتون : مرجع سبق ذكره ، ص ١٥١ .

(١٢٣) Burton : op. cit., P. 69 .

(١٢٤) بيرتون : مرجع سبق ذكره ، ص ١٥٠ .

(١٢٥) المرجع السابق : ص ١٤٤ .

(١٢٦) المرجع السابق : ص١٤٨ .

(١٢٧) المرجع السابق : ص١٤٩ .

(١٢٨) Burton : op. cit., PP. 70 - 17 .

(١٢٩) بيرتون : مرجع سبق ذكره ، ص١٤٦ .

(١٣٠) Burton : op. cit., PP. 66 - 75 .

(١٣١) Ibid., P. 79 .

(١٣٢) بيرتون : مرجع سبق ذكره ، ص ١٤٥ .

(١٣٣) المرجع السابق .

(١٣٤) محمد فهيم : مخصصات الحرمين الشريفين أبان العصر العثمانى ، ماجستير ، كلية اللغة العربية ، الأزهر ١٩٩٩ .

(١٣٥) بيرتون : مرجع سبق ذكره ، ص١٤٥ .

(١٣٦) Edwards , A : op. cit., P. 383 .

(١٣٧) Forbin : op. vit., P. 75 .

(١٣٨) Ampere : op. vit., PP. 73 - 74 .

(١٣٩) Edwards , A : op. cit., P. 382 .

(١٤٠) Pardieu : excursion en orient en Egypte, le mont Sinai, L'Arabie, la Palestine la syrie le liban, Paris 1859 .

(١٤١) Lane : op. cit., PP. 159 - 165 .

(١٤٢) المرجع السابق : ص ٣٦٨ .

(١٤٣) Edwards, A : op. cit., P. 101 .

(١٤٤) شامبليون : شامبليون فى مصر الرسائل ، طاهر عبد الحكيم ، القادة ١٩٩١ ، ص١٣٣ ، المذكرات : ترجمة عماد عدلى ومراجعة .

(١٤٥) Lane : op. cit., PP. 201 - 213 .

(١٤٦) بورغ : ص ٤٠٣ .

(١٤٧) Savary : Lettes sur L'Egypte, Paris 1783 P. 441 .

(١٤٨) بورغ : ص ٤٠٣ .

(١٤٩) Lane : op. cit., PP. 231 - 235 .

(١٥٠) بورغ : ص ٥٦٤ .

(١٥١) Edwards, A : op. cit., P. 107 .

(١٥٢) بورغ : ص٥٦٤ .

(١٥٣) ثروت عكاشة : مرجع سبق ذكره ، ص ٣٠٠ .

(١٥٤) الهام ذهنى : مرجع سبق ذكره ١٩ ، ص ٣٧٦ ، ص ٣٧٧ .

(١٥٥) Edwards, A : op. cit., PP. 124 - 125 .

(١٥٦) Ibid. P. 124 .

(١٥٧) Ct John : op. cit., PP. 130 - 132 .

(١٥٨) Edwards, A : op. cit., PP. 130 - 132 .

(١٥٩) Lane : op. cit., P. 68 .

(١٦٠) Ct John : op. cit., PP. 262.

(١٦١) بورغ : ص٥٦ .

(١٦٢) Edwards, A : op. cit., P. 162 .

(١٦٣) Mariette Bey : Itineraire de la Haute Egypte, Paris 1872 .

(١٦٤) Edwards, A : op. cit., vol 2, P. 162 .

(١٦٥) Ibid. P. 162 .

(١٦٦) الهام ذهني : مرجع سبق ذكره ١٩ ، ص٣٨٤ .

(١٦٧) Ct John : op. cit., P. 271 .

(١٦٨) Edwards, A : op. cit., P. 155 .

(١٦٩) Ibid., P. 386 .

(١٧٠) Ibid., P. 157 .

(١٧١) Brugschand Duemicher : Recueil de monuments .

(١٧٢) الهام ذهني : مرجع سبق ذكره ١٩ ، ص٣٨٤ ، ص ٣٨٩ .

(١٧٣) المرجع السابق : ص ٣٩٢ .

(١٧٤) Edwards, A : op. cit., PP. 181 - 183 .

(١٧٥) يدعى الفونس ماريت .

(١٧٦) إلهام ذهني : مرجع سبق ذكره ١٩ ، ص٣٩٠ ، ص٣٩٢ .

(١٧٧) المرجع السابق : ص ٣٩٦ .

(١٧٨) Pocoke : op. cit., P. 78 .

(١٧٩) Abott Papyrus .

(١٨٠) Edwards, A : op. cit., vol2 , PP. 238 - 242 .

(١٨١) Ibid. P. 247 .

(١٨٢) ثروت عكاشة : مرجع سبق ذكره جـ٢ ، ص ٢٩٥ .

(١٨٣) Edwards, A : op. cit., vol2 P. 239 .

(١٨٤) بورنج ص ٥٦٣ .

(١٨٥) Wilkinson : Manners and customs of the Ancient Egyptians .

(١٨٦) Edwards, A : op. cit., vol. 2 P. 244 .

(١٨٧) ثروت عكاشة : مرجع سبق ذكره ، وانظر مجلة نصف الدنيا ، والعدد ٦٢٣ في ٢٠ يناير ٢٠٠٢ .

(١٨٨) Edwards, A : op. cit., PP. 178 - 180 .

(١٨٩) الهام ذهني : مرجع سبق ذكره ١٩ ، ص ٤٠٤ .

(١٩٠) Edwards, A : op. cit., vol 2. P. 175 .

(١٩١) Lane : op. cit., P. 417 .

(١٩٢) Edwards, A : op. cit., vol. 2 , P. 175 .

(١٩٣) Ibid, PP. 142 - 143 .

(١٩٤) St John : op. cit., P. 423 .

(١٩٥) Edwards, A : op. cit., vol 2. P. 137 .

(١٩٦) Lane : op. cit., PP. 444 - 508 .

(١٩٧) الهام ذهنى : مرجع سبق ذكره ، ص ٤٠٤ .

الفصل الخامس

الحيـــاة الاجتماعيــة

- طبقـــات المجتمع .
- الاحتفالات والأعياد .

طبقــات المجتمـــع :

قدر فولنى عدد سكان مصر فى نهاية القرن الثامن عشر بمليونين وثلاثمائة وقد قدرهم بورنج فى القرن التاسع عشر بثلاثة ملايين ومائتى ألف ، يشكل الأقباط ما بين ١٥٠ ألف ومائتى ألف ، وستة آلاف يتبعون كنيسة روما تحت رعاية اسقف يعينه الباشا ، أما عدد الأتراك فقد قدروا بعشرين ألف ، وعدد اليهود ثلاثة آلاف ، والفين من الأرمن ، وسبعة آلاف يونانى ، وستة آلاف من الأفرنج[١].

ويمتاز المصريون بكثرة النسل ، وكلما سادت فترة هدوء قصيرة ، وامتنعت الحكومة أو خفضت من مطالب الجيش للتجنيد ، زاد عدد السكان والمواليد من الأطفال بسرعة فائقة ، وفى بلد كمصر تتفاوت نسبة الإناث إلى الذكور ، تفاوتا عظيما ، ويساعد تعدد الزوجات فى تقليل هذا التباين إذ تقدر نسبة النساء إلى الرجال ١٣٥ إلى ١٠٠[٢].

ويؤلف المسلمون العرب غالبية سكان مصر منذ قرون ، وقد أحدث ذلك انقلابا فى اللغة والقوانين والشمائل العامة ، والمصريون المسلمون من جنس خليط ، انحدر إلى حد كبير من عدة قبائل وعشائر عربية وفدت إلى مصر فى عصور مختلفة بعد الفتح وهؤلاء العرب المهاجرون كانوا أولا قبائل تجوب الصحراء ، ولكنهم تركوا حياة البداوة وتحضروا ، ثم اصهروا إلى الأقباط ، فأدى اختلاطهم هذا إلى تكوين شعب كثير الشبه بقدماء المصريين ، الذين ينتمون إلى الجنس القوقازى مع قرابتهم إلى الجنس الأسود على درجات مختلفة ، وهذا الشبه يبدو تاما على الأخص فى القبط والنوبيين ، وهو فى مسلمى مصر الوسطى والعليا أكثر شيوعا ووضوحاً [٣].

فند الرحالة البريطانيون طبقات المجتمع المصرى على النحو التالى :

١ ـ الأتـــراك :

تمثل طبقة الأتراك الطبقة الحاكمة ، قدر بورنج عددها بعشرين الف ، وقد تناقص أعدادهم ، وهم متفرقون فى المدن المصرية ، ولكن تزايد أعدادهم فى

العاصمة ، ورغم ذلك تعدادهم ضئيل بالنسبة للسكان ، ويمكن تميزهم من ملابسهم الضخمة المختلفة عن ملابس المصريين المتواضعة ، وهناك تفرقة واضحة بين التركى والمصرى(٤) .

ويحرص الأتراك على المحافظة على جنسيتهم ، فتتم المصاهرات فيما بينهم ، وأبناء محمد على وبناته . تزوجوا من نفس الطبقة فعلى سبيل المثال تزوج إسماعيل بن محمد على من فاطمة أو كلين هانم ابنة عارف بك القاضى القادم من الإستانة(٥) .

هذا وقد حرص الرحالة البريطانيون على مقابلة أفراد الأسرة الحاكمة فعقد بورغ عدة لقاءات مع محمد على سجل فيها إعجابه بملابسه ذات الطابع التركى الضخم(٦)، كما نالت نساء الطبقة الحاكمة نصيبها من هذا الإعجاب فقد اتيح لصوفيا لين عقد لقاءات مع زوجات محمد على وبناته وقدمت وصفا مسهباً عنهن(٧) .

٢ ـ الألبــان أو الأرنــؤط :

يتسم الالبان بسرعة الغضب حتى أن غضبهم ملتصق بمسدساتهم على حد وصف بيرتون فهم يطلقون النار فى وجه الصديق أو العدو عند أول استفزاز ، ولا يخرجون إلا ازواجا ، ولا يسيرون فرادى ، وقد منعت الذخيرة عن الألبان المشاة وذلك لكثرة منازعتهم وسرعتهم فى القتل ، وهم ينقضون على الفلاحين البائسين إذا كانوا غير قادرين على دفع الضرائب ، ويتشاجرون مع الأجانب ، وقد زاد خطرهم فى الحجاز على البدو ، ويقول عنهم أهل المدن بأنهم « باعة كروش » وخدم حمامات فى استانبول ، « وفراعنة فى شبه الجزيرة العربية » وإطلاق النار رياضة محببة لهم ، وهم يتعالون على المصريين ، وقد قابل بيرتون على أغا وهو يوزباشى من الألبان قدم وصفا عنه ، بأنه يرتدى تنورة البانية لم ير مثيلا فى نظافتها ، يسير شامخا ، فى جسده العديد من الندوب المروعة بسبب الرصاص الذى أصيب به

عدة مرات[٨] ، هذا وقد تخلص محمد على من الألبان فى الحرب الوهابية . لأن مناخ الجزيرة العربية قضى عليهم فتناقصت أعدادهم[٩] .

أما المماليك فقد تخلص منهم محمد على فى مذبحة القلعة ورغم ما ارتكبه من فظائع ضدهم إلا أن لين التمس له العذر لأنهم كانوا يثيرون الفوضى فى البلاد[١٠] .

٣ ـ علمـــاء الأزهـــر :

لهم نفوذ كبير فى مصر ، ودور واضح فى العالم الإسلامى ، وكان لأدوارد لين علاقات وطيدة معهم ولا سيما الشيخ إبراهيم عبد الغفار الدسوقى الذى لازمه لين لمدة سبع سنوات وساعده فى وضع القاموس العربى الإنجليزى[١١] . كما قابل بيرتون الشيخ محمد العطار وأثنى عليه ودعاه لزيارة دكان العطارة التى يملكها إلى جانب عمله[١٢] . هذا وقد سجلت صوفيا لين أعجابها بعلماء الأزهر وذلك لأنهم يوجهون المصريين ، ويحفظون دينهم ، وهم قريبون من الأهالى ، يكاد المؤذن يدعو الناس للصلاة حتى ترى الجميع وقد سارعوا لأداء الصلاة ، علماء ومصريين ، فيبعث منظرهم الاحترام والإجلال ، فهم ينغمسون كلية فى العبادة ، ويجب ألا يظن الأوروبيون هذا نوعا من التباهى أو الرياء الكاذب[١٣] .

ولم يتحدث ادوارد لين عن علماء الأزهر وإنما تحدث عن زعماء وأتباع الطرق الصوفية المختلفة ولا سيما القادرية والرفاعية[١٤] .

٤ ـ أولاد البلد ـ أهل مصر :

وصف الرحالة البريطانيون المصريين فى القاهرة بأولاد البلد أهل مصر ، أما أهل الريف فيسمون الفلاحين ، وكثيرا ما يطلق الأتراك على المصريين لفظ الفلاحين ، ويقصدون به معنى الغلظة والجفاء ، أو ينبذونهم بأهل فرعون إهانة لهم، فيرد عليهم المصريون بتسميتهم « بأهل نمرود »[١٥] . هذا وقد اهتم الرحالة بتقديم وصف لأهل مصر الذين يتراوح طولهم بين خمسة أقدام وثمانى بوصات ،

أو خمس أقدام وتسع بوصات ، وأغلب الأطفال تحت سن التاسعة دقاق الأطراف ضخام البطون ، ولكن سرعان ما تتحسن أشكالهم كلما تتدرجوا فى النمو ، ويلاحظ أن أهل القاهرة وسكان الأقاليم الشمالية متشابهون حيث يكثر المهاجرون لاعتدال الجو وتتألف ملابس رجال الطبقتين العليا والوسطى من سروال فضفاض من الكتان أو القطن ، طرفاه مطرزان بالحرير الملون ، وأن كانا تحت الملابس الخارجية، ويصل السروال إلى ما تحت الركبتين بقليل أو ينزل حتى الكعبين ، كما يرتدون قميص اكمامه واسعة جدا تصل حتى المعصم ، يصنع من نسيج الكتان الرخيص أو من نسيج القطن أو الحرير الموصلى ، ويرتدى أغلب الناس فى الشتاء صديريا قصيرا من الجوخ أو الحرير ويسمى القفطان ينزل حتى الكعبين ، أما الحلة الخارجية العادية فهى عبارة عن كساء من الجوخ طويل يسميه الآتراك جبة وبعض الأشخاص يلبسون البنش واكمامه كأكمام القفطان ولكنه أوسع منه ، ويرتدى العلماء فرجية صيفا ، وعباية شتاء ، ويتدثر المصريون فى الشتاء بشال من الحرير الموصلى ، أما غطاء الرأس فيتكون من قلنسوة قطنية صغيرة ، ثم يوضع الطربوش ، وهو غطاء من الجوخ الأحمر ، ويلف الطربوش قطعة طويلة من الحرير أو شال كشميرى ، وهذه هى العمامة ، ويرتدى الأشراف عمامة خضراء وفى الشتاء يستخدم المصريون جوارب من الصوف أو القطن ، أما الحذاء فهو من الجلد المراكش الأحمر السميك وطرفه الأمامى مدبدب معقوف إلى أعلى ، وينتعل البعض حذاء داخليا ، ويحمل المصريون فى خنصر اليداليمنى خاتما من العقيق ينقش عليه اسم حامله ، ويحمل المصريون إينما حلوا إلا فى المساجد شبكهم وهم يضعون كيس التبغ فى صدر القفطان . أما الطبقة الدنيا فيلبسون سروالا فوق قميص طويل أو ثوبا أزرق طويل الأكمام من الكتان أو القطن أو الصوف الأسمر ويسمى الأول عربا والآخر زعبوطا ، وبعض الفقراء لا يملكون غير اللبدة فلا عمامة ولا سروال ولا نعل وإنما يرتدون الجلباب الأزرق أو الأسمر أو اسمالا بالية[١٦] .

وقد استرعى انتباه لوسى داف جوردن أن المصريين يحدثون جلبة شديدة ، إلا أنهم يصبحوا أهدأ المخلوقات فى المقاهى[١٧] .

ويتكون مجتمع القاهرة من التجار والعلماء ، والخدم والعبيد ، وقد التقى الرحالة بمشاهير التجار وعقدوا العديد من الصداقات معهم .

٥ ـ الفلاحـــون :

لم يتغير الفلاحون فى مظهرهم عما كانوا عليه قديم ، فحياة الفلاحين المنقوشة فى التصاوير الجدارية بالمقابر يبدو فيها ، نفس الاكتاف العريضة ، والأطراف القوية رغم نحولها ، والشفاة المكتنزة ، والبشرة السمراء ، وهذا هو الفلاح المعاصر يرتدى نفس المئزر ، ويعمل بنفس الشادوف والمحراث ، هكذا عبرت اميليا ادواردز عن رأيها فى الفلاحين[١٨] ، الذين ما زالوا يسكنون الأكواخ البدائية البسيطة التى تشبه أكواخ أخوانهم من الهند ، هكذا وجدت اميليا تشابها كبيرا بين الاثنين رغم بعد المسافة بين مصر والهند ، فهما يشتركان فى البؤس والشقاء[١٩] .

وجه بورغ الاتهام والانتقاد للفلاح المصرى ، لأنه يميل للخضوع ، حتى ليخيل إلى الإنسان أنهم يعترفون بحق الاقلية التركية بما لها من قوة وسلطان فى حكم الأكثرية المصرية ، وكثيرا ما يقول المصريون فى ذلك « ما نحن إلا فلاحون » وأرجع بورغ تسلط الأتراك عليهم لهذا السبب[٢٠] .

ويتفق ما ذكره بورغ مع ما سجله زميله الفرنسى مونتولية بأن هذه الأمة قدر لها الاستعباد من أى شخص يرتدى الملابس التركية[٢١]، دافع بريس دافين عن اتهام الأوروبيين للفلاح السلبية وأكد أنها نوع من الاحتجاج على السلطة بسبب كثرة الضرائب المفروضة عليه[٢٢] .

يمقت الفلاح المصرى التجنيد ، والحياة العسكرية لأنها تباعد بينه وبين مسقط رأسه ، ولذلك اقترح بورغ أن يكون التجنيد على أساس تعداد السكان ، فلا يؤخذ من جهة غير ما يتناسب وعدد أهلها ولا يطلب فى جهة قدمت حصتها من التجنيد وأن يقدم عدداً آخر وبذلك يستقر الفلاحون فى قراهم وحقولهم[٢٣] .

ويمكننا القول أن معظم الرحالة حرصوا على تصوير بؤس الفلاح المصرى ،

وسوء أحوال القرى المصرية ، ومعاناة الفلاحين من السخرة والضرائب التى اثقلت كاهلهم مما أدى إلى تسحب الفلاحين من قراهم ، ومن مظاهر هذا الفقر مطاردتهم للرحالة طلبا للبقشيش مما سبب الاستياء للكثير منهم ولا سيما بيرتون ، الذى وجد تشابها بين الفلاحين فى مصر وبريطانيا ، ولا سيما فى حرصهم على اتباع طرق العلاج البدائية لأمراض الحمى وغيرها باستخدام الكى ، فسجل « أنهم مثل فلاحينا فى أوروبا يحبون العلاج القاسى »[٢٤].

القبائــــل :

نالت القبائل العربية إعجاب الرحالة ولا سيما تلك التى تقطن فى سيناء ، وقد وجد بورخ أنه من الصعب تقدير أعداد البدو أو عربان الصحراء ، وأكد أنه لم يطرأ تغير ما على أزيائهم أو عاداتهم من زمن بعيد ، وهم يتحاشون الاختلاط بجميع الأجناس الأخرى ، فلا يحدث إلا فى القليل النادر أى تزواج بينهم وبين الفلاحين أو بينهم وبين الزنوج فى الجنوب ، مع أن بعض هؤلاء الزنوج يعيشون معهم فى بعض الأحيان عبيد لهم يقومون بخدمتهم ، وأولئك البدو لا يعرفون الاستقرار ، وذلك باستثناء منهم الضاربين على تخوم الصحراء ، أو يقضون بعض شهور السنة مع ما يملكون من قطعان الغنم والماشية فى الجهات التى ينمو فيها العشب ، وكثيرا منهم يضربون خيامهم قرب الأراضى الزراعية ، ويتسم البدو بالجرأة والاعتزاز بالنفس، وملابسهم لا أثر للتكليف والإناقة فيها ، وقد سجل بورخ محاولات محمد على لاخضاعهم ، وقد نجح بالفعل ، فلم يعودوا يفكرون فى مقاومة سلطانه ، وساد الأمن بعد أن كانوا يهاجمون القوافل المتجهة إلى مكة[٢٥].

كان للفرنسيين خبرة أكبر فى التعامل مع القبائل ، كذلك كانت لهم خبرة بأسماءها ومناطق تركزها ، ولا سيما بعد جهود علماء الحملة الفرنسية ، وإنجازهم الموسوعى « وصف مصر » فعرفوا بالعبابـدة والبشارية ، وأولاد على ، والمغاربة والبجة. ولم يكتفوا بذلك وإنما قدموا تعريفا ودراسة عن قبائل السودان ولا سيما القبائل العربية كالجعليـين ، وجهينة ، كذلك اهتموا بالقبائـل الزنجيـة . كما

لقيت المجموعات النوبية التى تسكن جنوب مصر وشمال السودان الاهتمام من الرحالة الفرنسيين الذين أضافوا المعلومات على دراسة كوستاز أثناء الحملة الفرنسية[٢٦] .

وجدير بالذكر أن لين اعجب بالنوبيين ووصفهم بأنهم أكثر السلالات شبها للمصريين القدماء ، واتفق مع الفرنسيين فى أنهم يتسمون بالأمانة والاستقامة ، واللطف ويحبون العيش فى سلام[٢٧] ، وقد التقيت أميليا ادواردز بالعديد منهم أثناء رحلتها فى مصر وهى تقطع نهر النيل شمالا وجنوبا فأثنت على أمانتهم وبراعتهم فى الملاحة النيلية ، وقد وجدت أن الصبية من النوبة مازالوا يتحلون بخصلة جانبية من الشعر على نسق رمسيس ، كما تلف الصبايا حول خصورهن نفس الزنار الذى كانت تتمنطق به أميرات تحتمس الأول ، كما أن الشيخ لا يسير إلا قابضا على عصاه على غرار تمثال شيخ البلد[٢٨] .

٧ ـ الأقليات الإسلامية :

أشار الرحالة البريطانيون سريعا للأقليات الإسلامية فى مصر ولا سيما الشوام الذين تزدحم بهم أحياء القاهرة وهم يسيرون بسرواليهم المنتفخة الفضفاضة وشرابتهم المطرزة ، كذلك أشار بيرتون إلى وجود الفرس وقد قابل تاجرا فارسيا يدعى حسين شهبندر ذكر أنه نصب نفسه قنصلا . وهو فى عمله يشبه غيره من القناصل وهو يقيم فى القاهرة ويمتلك بيتا كبيرا رفع عليه الرايات الفارسية وله ديوان وغرفة استقبال تتسم بالفخامة وهو نفسه يتسم بالكبرياء ويبدو وكأنه أمير . كذلك كتب بيرتون عن وجود أعداد من الأفغان المسلمين فى القاهرة ، وأن لهم رواقا فى الأزهر، وقد أثنى على علمائهم ، ولا سيما وأنه قابل العديد منهم ، لعل أشهرهم الشيخ عبد الوهاب بن يونس السليمانى ، الذى نشأ فى مكة ثم جاء إلى القاهرة ، وعندما زاره بيرتون وجد عنده « أكوام من المخطوطات العتيقة ، والمؤلفات القيمة ، وقد جمع حوله عددا من النساخين »[٢٩] .

٨ ـ الأقبـــاط :

يكون الأقباط ١/١٤ من المصريين ، إذ أن عددهم لا يزيد على ما يقرب من مائة وخمسين ألف ، يسكن عشرة آلاف منهم تقريبا فى العاصـمة ، وفى بعض أنحاء الصعيد قرى يسكنها الأقباط وحدهم ، وهم يكثرون خاصة فى الفيوم ، وتبين آثار الأديرة والكنائس الكثيرة من جوانب مصر المختلفة أن الأقباط كانوا أكثر عددا منذ عدة أجيال ، غير أن الكثير منهم كانوا يعتنقون الإسلام سنويا ، ويصاهرون إلى المسلمين بالزواج ، فانخفض عددهم(٣٠) .

ينحدر الأقباط من قدماء المصريين ، ولكنهم ليسوا جنسا صافيا فقد تزوج اسلافهم فى عصور المسيحية الأولى اليونانيين والأحباش ، وغيرهم من الأجانب ، ولم يفقد الأقباط كلهم لغتهم القديمة ، غير أن اللغة القبطية أصبحت لغة ميتة لايفهمها غير القليل واستبدلت بها اللغة العربية(٣١) .

ينتمى الأقباط إلى الطائفة اليعقوبية ، وهم متعصبون لمذهبهم ومن الطريف أن لين ذكر أن الحقد الذى يحمله الأقباط لليونانيين وسائر النصارى الذين لا ينتمون إلى طائفتهم أكثر بكثير من حقدهم على المسلمين(٣٢) .

هذا الاتهام للأقباط بالتعصب وجدت أن أصحاب المذاهب المسيحية الأخرى يشتركون فيه ، ولا سيما الكاثوليك من الفرنسيين ، الذين حاولوا تحويل أقباط مصر إلى مذهبهم فلما رفضوا اتهموهم بالأنطواء والانغلاق ووصل الأمر فى بعض ما دونوه إلى السب والابتعاد عن الموضوعية(٣٣) .

هذا وقد أظهرت هنريت مارتينو انتقادها للأقباط وأكدت على تعصبهم لمذهبهم ، وشاركت الفرنسيين فى هجومهم ولكن زميلتها لوسى داف جوردون نفت تهمة التعصب عن الأقباط(٣٤) .

وأشارت هى وأميليا ادواردز بروح التسامح التى تسودبين الأقباط والمسلمين ومشاركة الطرفين فى الاحتفالات الدينية والقومية ، مما ينفى عن الأقباط الإنغلاق

والتعصب[٣٥]، وقد أكد بورغ فى تقريره أن هناك تعاطفا كبيرا بين المسلمين والأقباط[٣٦].

يتمتع الأقباط بمنزلة كبيرة فى مصر ، وهم يعلمون أمناء ، ومحاسبين فى القرى ، وتعرف كل قرية معلما ، كما يعملون فى تجارة الذهب ، والفضة ، وهم بناءون مهندسون ، تجار ، صيارفة ، نساجون ، كتبة حسابات ، ويتفوقون فى المهنة الأخيرة على المسلمين « فهم الأبرع »[٣٧] على حد قول لين .

يختن الأقباط أولادهم فى سن السابعة ، ولكن لا يوجد سن محدد لذلك إذ يختن بعض الأقباط أولادهم فى سن السنتين ، فى حين لا يختن غيرهم إلا فى سن العشرين وينظر الأقباط للختان كعبادة مسيحية[٣٨]

يتلقى أطفال الأقباط التعليم فى المنازل حيث يتعلمون القراءة والكتابة ، ومزامير داود والأناجيل الأربعة ، والرسائل الإنجيلية باللغة العربية وهم يتعلمون القبطية نحويا ، وهم فى عاداتهم يشبهون للمسلمين[٣٩] .

اهتم لين بتعريف الدرجات الكهنوتية فى الكنيسة من بطريرك ومطران ، وأساقفة ، وكبار كهنة ، وشماسين ورهبان[٤٠]، وأكد بورغ أن البطريرك يمارس سلطة تشبه السلطة القضائية ويريد من الجميع احترامها[٤١] .

٩ ـ اليهود :

يختلف يهود الشرق فى الملامح ، وفى هيئة الوجه عامة عن أم أخرى فى آسيا الجنوبية الغربية ، أقل مما يختلف يهود أوروبا عن الشعوب التى يعيشون فيها ، غير أن كثيرا ما نجدهم يتميزون بشدة بياض البشرة ، وصبغة الشعر ، وصفاء عيونهم الزرقاء أو الرمادية ، ويشكو كثير من يهود مصر من أمراض العين وانتفاخ البشرة نتيجة الأفراط فى استعمال زيت السمسم فى الطعام[٤٢]، هذا وقد اتفق ما دونه ادوارد لين عن اليهود مع ما سجله الفرنسى دى بوسيبار ، الذى أكد بأنهم يرتدون ثيابا قذرة ولهم عيون منتفخة[٤٣] .

واليهود قذرون غير مهذبين فى ملبسهم وفى شخصهم ، ولا يختلف لون عمائمهم عن لون عمائم الرعايا المسيحيين ، وتتنقب اليهوديات ويلبسن ملابس المصريات فى الطريق العام(٤٤).

ولليهود ثمانية معابد بحيهم فى القاهرة ، وهم يتمتعون بالتسامح الدينى ، ويخضعون لحكم أقل تعسفا فى مصر منه فى أى بلد أو فرد وهم يؤدون مبلغا من النقود مقابل أعفاء حيهم من أشراف المحتسب ، وهم يتمتعون عن الآخرين فى بيع أصناف المؤن بسعر مرتفع ، فيستطيعون تبعا لذلك شراء هذه الأصناف بثمن أغلى ، ويجهزون حوانيتهم بالمؤن وعلى الأخص الفاكهة ، التى تفوق غيرها جودة ، واليهود مثل الأقباط يدفعو الجزية ويعفون من الخدمة العسكرية ، ويحمل اليهود للإسلام والمسلمين بغضا متأصلا أكثر من شعب آخر . ويمكن القول أن اليهود يعيشون فى مصر عيشة هادئة وقل من يخاطبهم ممن هم على غير دينهم ، ويرتدى اغنياؤهم أجمل الملابس داخل بيوتهم ولكنهم يظهرون بملابس رثة خارج المنزل ، وليس اليهود داخل منازلهم صرامة المسلمين فى أخفاء نسائهم من الأجانب ، والبخل صفة مميزة لهم ، وأخيراً يعمل اليهود فى الصيرفة ، وصياغة الذهب والفضة ، وبيع الفاكهة والتجارة(٤٥).

١٠ ـ الرقيـــق :

اهتم الرحالة البريطانيون بالقاء الضوء على أحوال الرقيق ولا سيما القادم من السودان ، فنجد بورنج يهتم بإلقاء الضوء على غزوات صيد الرقيق فى السودان ، وقد اعتبرها من أهم مصادر الأيراد لمحمد على ، ولا سيما وأن جنود الباشا كانوا يتقاضون رواتبهم عبيدا ، ولذلك أظهر الجنود نشاطا كبيرا فى قنص الرقيق لاستيفاء رواتبهم ، وقد ذكر هولرويد أن عمليات القنص كانت تتم فى جبال النوبا الواقعة جنوب كردفان فى غرب السودان كذلك فى سنار ووادى مدنى ، وكان لقوافل العبيد خط سير معروف يبدأ من كردفان إلى الخرطوم . وخلال رحلة الأسر يموت العديد منهم لقلة الماء والطعام ، وتم تجميع القوافل القادمة من دارفور فى واحات الفرتيت وتسير

برا ، أما سنار فيسير القوافل إلى بربر فى عدة أيام ، ثم ينقل العبيد بطريق نهر النيل دراو فى حوالى أربعين يوما ، وأحيانا تسير القوافل من بربر برا وتستغرق رحلتها عشرين يوما ، أما القوافل القادمة من دنقلة فتسير فى النيل ، ويجمع الرقيق فى سنار، كذلك يتم الحصول على أعداد كبيرة من تقلى ، ومن فاشودة حيث توجد قبائل الشلك ، هذا ويتم تجميع الرقيق فى أسوان وأسيوط[٤٦] ، ولا تحصل مصر على الرقيق من السودان فحسب وإنما من الحبشة ، حيث يقوم الجلابة باختطاف أعداد كبيرة منهم ، ويسلموا إلى الجلابيين النوبيين ، وقد شارك القساوسة الأوروبيون فى هذه التجارة ، ومن القصص التى أوردها بورخ أن أحد المنصرين أدعى لأسرة غلاميس بأنه قطع على نفسه عهدا بأن يسير بهما إلى بيت المقدس ، ولكنه باعهما فى مصوع[٤٧]

يلاحظ أن الرحالة البريطانيين اهتموا بالحديث عن تجارة الرقيق وسلبياتها ، بينما ركز الفرنسيون على أوضاع الرقيق فى الإسلام فأكد كلوت بك أن الرقيق فى البلاد الإسلامية لا يرى فى مركزه الاجتماعى ما يسمى كرامته ويحط من منزلته بل أنه يفخر بانتمائه إلى بيت فلان من البكوات والباشوات[٤٨] ، كذلك دافع جيرار دى نرفال عن أحوال الرق فى ظل الإسلام ، وأنهم افضل من أحوالهم فى أوروبا ، فهم يحظون بحياة أكثر رغدا من الفلاح وأن الرق فى الإسلام نوع من التبنى المتسم بالود أكثر منه استبعادا قاسيا ، وقارن بين أحوال الرقيق فى بلاد المسلمين بأحوالهم فى المستعمرات الأمريكية ، حيث يلقون الهوان على يد البيض الأوروبيين أكد أن القرآن عالج بشجاعة وإنسانية موضوع الرق بما تجاهل الإنجيل هذا الموضوع وأن عتق الرقيق يحظى بمباركة واحترام العلماء[٤٩]

قدم بورخ قائمة بأثمان الرقيق

الغلام المراهق	٤ ـ ٥ جنيها
الغلام العادى	١ ـ ٣
الغلام الذكر من بلاد الدنكا	١

الولد الحبشى	٦ ـ ١٠
الفتاة المراهقة	٢ ـ ٤
المرأة	١ ـ ٢
الفتاة الحبشية	٦ ـ ١٥٠ [٥٠]

قدم الفرنسيون من قبل قائمة بأثمان الرقيق ولا سيما كادلفين :

	داخل افريقيا	أسيوط
الأطفال الثلاثى	٨٠٠ ـ ١٠٠	١٥٠ ـ ٤٠٠
الرباعى	١٠٠ ـ ١٦٠	٣٠٠ ـ ٤٠٠
الخماسى	١٨٠ ـ ٢٠٠	٥٠٠ ـ ٦٠٠
السداسى	٢٥٠ ـ ٤٠٠	٧٠٠ ـ ٨٠٠
الفتاة	٥٠٠ ـ ٧٠٠	٩٠٠ ـ ١٠٠٠ قرشا [٥١]

وأخيراً قدم كلوت بك وصفا لعملية جب الرقيق فى زاوية الدير وذكر أنه تم اخصاء ثلاثمائة عبدا يحصل محمد على على ثمانين منهم ثم يقوم بأهداء عدد منهم إلى السلطان العثمانى ، وقد أطلق كلوت بك على أسيوط عاصمة السفاكين لقيام رهبانها بهذه المهمة[٥٢].

١١ ـ نساء مصر :

اتسمت كتابات الرحالة الأوروبيين عن المرأة المصرية فى العصر العثمانى بالندرة ، وجاء الحديث عنها فى سياق الإشارة للاحتفالات الهامة كالزواج ، وسبوع المولود ، أو حفلات الختان ، ويرجع السبب فى ذلك إلى ضعف المعرفة بالشرق وعاداته وتقاليده وأن كانت هذه المعرفة قد اتسعت وتعمقت فى القرن الثامن عشر وقبيل مجئ الحملة الفرنسية[٥٣].

هذا وقد ظل مجتمع حريم مصر مغلقا وساحرا وغامضا بالنسبة للأوروبيين

فدفعهم الفضول للتعرف عليه من خلال زوجات القناصل والتجار الأوروبيين اللاتى كن بمثابة عيونهم فى الداخل ولا سيما فى القرن التاسع عشر .

إذ بدأنا الحديث عما دون عن المرأة المصرية فلا بد لنا فى البداية أن نذكر الآراء التى تحمست لها ودافعت عنها ، ولا سيما ادوارد لين ، وشقيقته وقد ابدا ما ذكره جيرار دى نرفال عن تكريم الإسلام للمرأة وحرصه على دحض الفكرة الأوروبية الظالمة التى تصور أن الإسلام يحط من كرامة المرأة وهى الفكرة التى روج لها العديد من المستشرقين الذين لم يجشموا أنفسهم عناء البحث عن المجتمعات الشرقية والإسلامية فقنعوا بما تصيدوا ما اطراف هذا المجتمع فظلموا الشرقية لأنهم لم يلتقوا إلا بغانية أو محظية مترفة لأن العرف يحول بينهم وبين الدخول إلى البيوت أو لقاء النساء ولذلك فالمرأة المسلمة حظيت بمكانة فى القرآن لم تحظ به فى الإنجيل ولا التلمود[٥٤] .

وقد استحسن ادوارد لين سماح الإسلام بالطلاق وتعدد الزوجات والتسرى لأن ذلك يمنع التهتك والخلاعة المنتشرة فى البلدان الأوروبية ، كما وضح أن المشرع الإسلامى حرص على الحد من انتشار تعدد الزوجات والهدف الرئيسى هو الإكثار من الذرية بعيدا عن أية حوافز شهوانية ، كما أعجب لين بسماحة الشريعة الإسلامية التى تتيح للمسلم الزواج من نصرانية ويهودية وإن الأولاد يتبعون دين والدهم ثم قدم لين تعريفا للقارئ الأوروبى بأحكام القرآن فيما يتعلق بالزواج والمواريث[٥٥] .

وجهت السهام للمرأة المصرية فوصفتها هارييت مارتينو بأنها لا روح ولا عقل، وتتصف بالكسل والتفاهة ، وتتعمد الإكثار من الأطعمة الدسمة السكرية ولا تمارس الرياضة وقد نصحت هارييت البعض منهن باستخدام الحبل لانقاص الوزن[٥٦] ، هذا وقد اتفق بريس دافين الفرنسى مع هارييت فاتهم المرأة المصرية بالعجز عن القيام بأى عمل فهى تقضى النهار ممدة على الأرائك ، تضفر شعرها أو تسترسل فى الأحلام واغتياب غيرها من النساء ، أو تقوم بالتجسس على سلوك

الجيران[٥٧]، بينما نفى البعض هذه الفكرة ولا سيما أمبير الذى أكد أن نساء مصر لهن حرية الخروج ويشاركن فى السياسة ولسن منعزلات فى البيوت[٥٨] .

وعن جمال المرأة المصرية كتب الجراح البريطانى مادين أنه من غير اللائق أن يصطدم مشاعر الأوروبيات بوصف نساء مصر اللاتى يفوقهن جمالا على الرغم من أصباغهن آذنهن المرسومة بالوشم الأزرق وأصابعهن الملونة بصفرة الحناء[٥٩] . أما ادوارد لين فقد أكد أن المرأة المصرية تبدو من سن الرابعة عشر وحتى الثامنة عشر آية من الجمال لم يخبو جمالها بعد انجاب العديد من الأبناء وهن كالرجال بيضاوات الوجه ، عريضاته أحيانا أما عيونهن واسعة لوزيتا الشكل ذات أهداب طويلة جميلة وتعابير ساحرة رقيقة ولا يمكن تصور عيون أجمل من عيون المرأة المصرية[٦٠] .

حريم الأسرة العلوية :

قدم الرحالة البريطانيون وصفا لنساء الطبقة الحاكمة من أسرة محمد على ، وكان الحديث فى القرن الثامن عشر منصبا على نساء المماليك فقد أتيح لمدام ماجالون دخول حريم إبراهيم بك ومراد بك ، فقدمن للرحالة وصفا عنهن أما فى القرن التاسع عشر فقد اتيح لصوفيا لين دخول حريم محمد على ، فدونت ملاحظاتها عن قرب .

كانت نازلى هانم الأبنة الكبرى لمحمد على هى محور اهتمام صوفيا فقد رفضت الزواج بعد وفاة محمد بك الدفتار وقد تعجبت صوفيا من عدم زواجها ولا سيما وأن زوجها اشتهر عنه القسوة والشدة حتى أنه كان يقتل عبيده لاتفه الأسباب[٦١]، وقد أيد كلوت ما ذكرته صوفيا فكتب بأنها تقضى حياتها فى عمل المبرات[٦٢] .

وتمثل نازلى هانم مكانة كبيرة من الحريم وهى تشبه والدها محمد على لها نفس ذكاؤه ونظرته السريعة الفاحصة ، وقد أحسنت استقبال صوفيا مما أسعدها فكتبت « لقد عاملتنى كنظيرة لها » ووصفت حديثها وأسلوبها بأنه كان حديثا

مرحا خفيفا وعللت صوفيا ذلك أنه اللطف الشرقى الأصيل(٦٣).

هذا وقد سجلت صوفيا أن نازلى هانم لها نفوذ كبير وقد ساءت العلاقة بينها وبين عباس باشا بعد تولية السلطة ، وما ذكرته صوفيا وغيرها من البريطانيين على جانب كبير من الصحة ، فقد كشفت محافظ الأبحاث عن دورها فى الآستانة ضد عباس باشا ، حيث اقامت فيها واشترت دارا صغيرة وأخذت تكيد له(٦٤).

ومن أميرات الأسرة الحاكمة كلين هانم أرملة إسماعيل باشا بن محمد على الذى قتل فى سنار ، وهى من أسرة كريمة فهى ابنة عارف بك القاضى الذى حضر من الآستانة إلى مصر ولذلك كان لها النفوذ الكبير لدى والدة السلطان ، وقد استخدمت ذكائها ونفوذها لخدمة مصالح محمد على لدى الباب العالى(٦٥).

هذاوقد أشار مؤرخنا الجبرتى إلى زواجها من إسماعيل باشا فكتب أنها حضرت بصحبة والدها عارف بك من الديار الرومية ، وأكد مكانتها لدى محمد على(٦٦).

فى دار الوثائق ملف هام لكلين هانم باسم « فاطمة الزهراء » الشهيرة بزهرة هانم البولاقية ، وقد عرفت بكلين هانم وكلين كنه وهى زوجة الأخ الكبير أو العم وتعرف فى استنبول « مصرلى هانم »(٦٧) ، وقد قدمت خدماتها إلى عباس باشا كما قدمتها من قبل لمحمد على فكانت عين عباس فى الآستانة ، ترسل إليه بكل ما يدور فى العاصمة التركية ، عن أولاد محمد على ونازلى هانم ابنة محمد على ، وقد أوضحت فى رسائلها خطورة نازلى هانم على عباس وأنها تقوم بالتشهير به لدى السلطان وأسرته(٦٨).

ظلت كلين هانم تراسل عباس باشا وتكتب خطوات نازلى فى العاصمة ، وكشفت الوثائق أن كلين هانم فى أحدى رسائلها ذكرت أن نازلى ابنة محمد على « أصبحت سمعتها فى استنبول أحط من الخرقة البالية » وعندما اشتد بها المرض اسرعت بأخبار عباس(٦٩) .

وهكذا لم يكن حريم أسرة محمد على بعيدات عن السياسة بل اشتركن فى

المؤمرات ويكفى ما ذكرته مدام أولمب عن مقتل عباس باشا بأن نازلى ابنة محمد على أرسلت مملوكين من أتباعها لقتله تم إلحاقهما بسراى بنها ، وعهد إليهما عباس بحراسته وقد غافلاه وقتلاه ثم فر هاربين إلى الآستانة وفى رواية أخرى أن عباسا أراد أن يمهد الطريق لابنه الهامى باشا لتولى الحكم فأمر بقتل خمسين من كبار الشخصيات ومنهم حليم باشا ومصطفى باشا ، وغيرهم ، ولكن الخطة فشلت فكان لا بد من الانتقام منه(٧٠) .

ومن أميرات الأسرة الحاكمة أرملة طوسون باشا بن محمد على وقد سجلت صوفيا لين أعجابها فهى والدة عباس باشا ولها مكانة كبيرة وهى أكبر الحاضرات سنا وأرفع مكانة(٧١) ، كما أتيح لها مقابلة زوجة محمد على أم أصغر أولاده ، ووجدت بأنها تتصف بالمرح ودماثة الأخلاق ومن زوجات محمد على الصفا وأوضحت صوفيا لقارئها البريطانى معنى الاسم ، وقد حضرت بنفسها مراسم تشييع جنازتها وكانت من الجوارى وعبرت عن ذلك بقولها لم تكن زوجة بالمعنى القانونى(٧٢). هذا وقد قدمت صوفيا وصفا رائعا لزوجة سعيد باشا ووصفتها بأنها آية من الجمال والإبداع بقوامها الفارع الاهيف ، وفى سلوكها أناقة أخاذة ويتسم طبعها بالسماحة، .وقد سجلت صوفيا انبهارها بالاستقبال الكريم الذى لقيته من أسر المجتمع الراقى المشوب بالود والاحترام والملاطفة والأسراف فى تقديم القهوة والحلوى والمشروبات(٧٣) .

أقام محمد على القصور لحريمه فى أنحاء القاهرة ، ولا سيما قصر شبرا واهتم بالطريق المؤدى إليه ، وقد أفاض الرحالة فى وصف فخامة هذا القصر ولا سيما وأنه تم جلب النباتات النادرة إليه ، وزين بمجموعة كبيرة من التماثيل ، وقد اعتاد باشا مصر الجلوس فى الكشك المخصص بالموسيقى وسط حريمه يستمع للأغانى واعتادت الأميرات التنزه بالعربات الملكية فى حدائق القصر المتعددة النباتات وقد أطلق الأوروبيون عليها شانزليه شبرا(٧٤) .

اهتم الرحالة بالقاء الضوء على قصص الوفاء بين الأزواج فى أسرة محمد

على، فعباس باشا تزوج بأحدى البدويات وكانت ابنة أحد زعماء القبائل وكان يحبها ، وبعد وفاته لم تبرح قصرها حزنا عليه[٧٥] .

كذلك رفضت نازلى هانم ابنة محمد على الزواج بعد وفاة زوجها محمد بك الدفتردار رغم ما اشتهر به من قسوة[٧٦] .

حريم الطبقة المتوسطة :

قدمت صوفيا وصفا لحريم التجار وكبار الشخصيات وأكدت بأنهن يتمتعن بنفوذ كبير ولهن منازل كبيرة ، كما تعرفت على نساء الطبقة المتوسطة ولاحظت حرصهن على سماع النوادر[٧٧] واتفقت فى الرأى مع جيرار دى نرفال بأن تسلية أزواجهن هو المشاغل الأول لهن ، ويستفيدن من ساعات الفراغ فى حياكة وتطريز مناديل اليد والطرح ويقضين وقتا كبيرا أمام المنسج وكثيرا منهن يملأن أكياس الدلالة بانتاجهن لبيعه وعرضه فى الأسواق أو تصريفه فى حريم آخر ولهن حرية زيارة صديقاتهن[٧٨] .

أما نساء العامة فهن يكدحن ، وعليهن أعباء ثقيلة كتحضير الطعام وجلب الماء وغزل القطن والصوف والبائعات منهن يتصايحن فى الأسواق مثل النمور وهن فى منتهى الشراسة خاصة أثناء المنازعات[٧٩] .

قدم الرحالة وصفا لنساء أهل الذمة من القبطيات واليهوديات وأكدوا أن نساء الأقباط لهن نفس عادات وتقاليد المسلمات[٨٠] ويسود التسامح الدينى بين الطرفين وسجلت لوسى داف جوردون مظاهر هذه التسامح والمشاركة فى الاحتفالات والأعياد ولا سيما مارجرجس ، وعزت روح التسامح إلى أن الإسلام طبع المسلمين بطابع شاعرى حتى اكتسبه بعض ممن لم يكن متأصلا فيه هذا الطابع[٨١] .

جذبت الفلاحة المصرية انتباه الرحالة ولاحظت اميليا ادواردز أن الفلاحة فى مظهرها لم يتغير عما كانت عليه قديما فى النقوش المصورة على جدران المعابد منذ عهد الفراعنة[٨٢] .

وقد سجلت لوسى داف جوردون أعجابها بجمال الفلاحة المصرية فذكرت أنها رأت جمالا لم تشهده من قبل ، ومن وجهة نظرها أن نساء الصعيد أجمل وأكثر لطفا من أهل الدلتا وعللت ذلك لسريان الدماء العربية فى شرايين أهل الصعيد(٨٣) .

وقد اتفقت هذه الآراء مع ما ذكره الفرنسيون من قبل فقد أعجب بواتو بالفلاحات وكتب أنهن يتمتعن بجمال وحشى(٨٤) .

القى الرحالة الضوء على معاناة الفلاحات المصريات فهن يساهمن فى أعالة عائلاتهن ويعشن عيشة خضوع لأزواجهن أكثر من نساء الطبقة الراقية ، ولا يسمح للفلاحة بتناول الطعام مع زوجها وإذا خرجت من المنزل تسير خلفه حاملة الأثقال فوق رأسها (٨٥) .

ساهمت الفلاحة فى مشروعات التعمير ، ولا سيما حفر ترعة المحمودية وعانت من نقص الغذاء والمياه حتى أدوات الحفر ، لم تكن متوفرة ، وقد اشتركت أيضاً فى حفر قناة السويس (٨٦) .

أثنى الرحالة على المرأة البدوية وقدم وليم هاملتون وصفا لنساء البشارية التى تمتد أوطانهم بين النيل والبحر الأحمر ، وعقد مقارنة بينهن وبين الفلاحات فجاءت لصالح الفلاحة لأن البشارية بصفة عامة أكثر سذاجة وأشد عنفا(٨٧) .

العوالـــم :

جذب مجتمع العوالم أنظار الرحالة الأوروبيين ، وخلط كثير منهم بين العوالم والمغنيات ، والغوازى ، وقد نفى ادوارد لين مزاعم الغوازى بأنهن ينتمين لسلالة البرامكة ، وترقص الغوازى سافرات الوجه فى الشوارع ، ولا يتسم رقصهن بأدنى لباقة أو أناقة ، ويكون بصحبتهن الموسيقيين الذين يعزفون على الربابة والكمان والطار ، ويمكن القول أن الغوازى لا يرحب بهن فى حريم حسن السمعة(٨٨) .

ورغم ذلك نرى أعدادا كبيرة من الغوازى فى جميع المدن المصرية الكبرى ،

ومساكنهن عادة عبارة عن أكواخ منخفضة أو خيام مؤقتة لأنهن كثيرا ما يسافرن من مدينة إلى أخرى ، ومع ذلك فبعضهن يعشن فى منازل كبيرة ، ويتاجرن فى الجمال والحمير والبقر[٨٩] .

الجوارى :

لفت الجوارى السودانيات والحبشيات أنظار الرحالة ولا سيما القادمات من بلاد الجالا[٩٠] ، كما لاحظوا تزايد أعداد القوقازيات ولا سيما أثناء حرب المورة[٩١] ، ورغم المعاملة الطيبة التى تلقاها الجارية إلا أن صوفيا لاحظت أن الجوارى يخضعن لرقابة صارمة ولا سيما لدى الطبقات العليا ، وقارنت تلك المراقبة بما يتبع فى الأديرة وهى مقارنة فى غير محلها ، لأن الجارية من حقها الزواج ، وسجلت أن أى انحراف عن قوانين الحشمة المطلقة ينتج عنه عقاب فادح لأن الجارية تم تربيتها وتنشئتها نشأة إسلامية وعندما يسرح الرجل جاريته فأنه عادة يعتقها ويمنحها نفقة ، ويزوجها برجل شريف ، وإذا رزقت بطفل فقد يكون حملها سببا فى حريتها على حد قول صوفيا[٩٢] ، وقد يقوم السيد بتزويج جاريته ويقام حفل الزفاف أحيانا لعدة جوارى فى يوم واحد ، وقد تتألم الجارية لفراق سيدها ولكن اختياره لزوجها يعتبر مدعاة فخر لها وامتنان[٩٣] .

أما عن ملابس وزينة المرأة المصرية فقد قدم الرحالة وصفا لملابس النساء ولا سيما الطبقتين الوسطى والعليا ، فالقميص من قماش ثمين من الحرير وهو واسع فضفاض على غرار قميص الرجال ولكنه أقصر لا يصل إلى الركبتين ويصنع أحيانا من الكريب الملون أو الأسود[٩٤] ، وقد شاهدت صوفيا أنواعا مختلفة منه بحكم دخولها الحريم فذكرت أنه مصنع من الحرير الرقيق المقلم بخطوط لامعة ولا تضيق أكمامه عند المعصم[٩٥] ونساء الطبقة الفقيرة يرتدين قميص أكمامه طويلة مرفوعة فوق الرأس يريح صاحبته[٩٦] .

ويلف الشنتيان منطقة الإرداف وهو سروال واسع جدا من الحرير الملون

وقد سجلت لوسى داف جوردون أعجابها بجمال الفلاحة المصرية فذكرت أنها رأت جمالا لم تشهده من قبل ، ومن وجهة نظرها أن نساء الصعيد أجمل وأكثر لطفا من أهل الدلتا وعللت ذلك لسريان الدماء العربية فى شرايين أهل الصعيد(٨٣) .

وقد اتفقت هذه الآراء مع ما ذكره الفرنسيون من قبل فقد أعجب بواتو بالفلاحات وكتب أنهن يتمتعن بجمال وحشى(٨٤) .

القى الرحالة الضوء على معاناة الفلاحات المصريات فهن يساهمن فى أعالة عائلاتهن ويعشن عيشة خضوع لأزواجهن أكثر من نساء الطبقة الراقية ، ولا يسمح للفلاحة بتناول الطعام مع زوجها وإذا خرجت من المنزل تسير خلفه حاملة الأثقال فوق رأسها (٨٥) .

ساهمت الفلاحة فى مشروعات التعمير ، ولا سيما حفر ترعة المحمودية وعانت من نقص الغذاء والمياه حتى أدوات الحفر ، لم تكن متوفرة ، وقد اشتركت أيضاً فى حفر قناة السويس(٨٦) .

أثنى الرحالة على المرأة البدوية وقدم وليم هاملتون وصفا لنساء البشارية التى تمتد أوطانهم بين النيل والبحر الأحمر ، وعقد مقارنة بينهن وبين الفلاحات فجاءت لصالح الفلاحة لأن البشارية بصفة عامة أكثر سذاجة وأشد عنفا(٨٧) .

العوالـــم :

جذب مجتمع العوالم أنظار الرحالة الأوروبيين ، وخلط كثير منهم بين العوالم والمغنيات ، والغوازى ، وقد نفى ادوارد لين مزاعم الغوازى بأنهن ينتمين لسلالة البرامكة ، وترقص الغوازى سافرات الوجه فى الشوارع ، ولا يتسم رقصهن بأدنى لباقة أو أناقة ، ويكون بصحبتهن الموسيقيين الذين يعزفون على الربابة والكمان والطار ، ويمكن القول أن الغوازى لا يرحب بهن فى حريم حسن السمعة(٨٨) .

ورغم ذلك نرى أعدادا كبيرة من الغوازى فى جميع المدن المصرية الكبرى ،

ومساكنهن عادة عبارة عن أكواخ منخفضة أو خيام مؤقتة لأنهن كثيرا ما يسافرن من مدينة إلى أخرى ، ومع ذلك فبعضهن يعشن فى منازل كبيرة ، ويتاجرن فى الجمال والحمير والبقر(٨٩).

الجوارى :

لفت الجوارى السودانيات والحبشيات أنظار الرحالة ولا سيما القادمات من بلاد الجالا(٩٠)، كما لاحظوا تزايد أعداد القوقازيات ولا سيما أثناء حرب المورة(٩١)، ورغم المعاملة الطيبة التى تلقاها الجارية إلا أن صوفيا لاحظت أن الجوارى يخضعن لرقابة صارمة ولا سيما لدى الطبقات العليا ، وقارنت تلك المراقبة بما يتبع فى الأديرة وهى مقارنة فى غير محلها ، لأن الجارية من حقها الزواج ، وسجلت أن أى انحراف عن قوانين الحشمة المطلقة ينتج عنه عقاب فادح لأن الجارية تم تربيتها وتنشئتها نشأة إسلامية وعندما يسرح الرجل جاريته فأنه عادة يعتقها ويمنحها نفقة ، ويزوجها برجل شريف ، وإذا رزقت بطفل فقد يكون حملها سببا فى حريتها على حد قول صوفيا(٩٢)، وقد يقوم السيد بتزويج جاريته ويقام حفل الزفاف أحيانا لعدة جوارى فى يوم واحد ، وقد تتألم الجارية لفراق سيدها ولكن اختياره لزوجها يعتبر مدعاة فخر لها وامتنان(٩٣).

أما عن ملابس وزينة المرأة المصرية فقد قدم الرحالة وصفا لملابس النساء ولا سيما الطبقتين الوسطى والعليا ، فالقميص من قماش ثمين من الحرير وهو واسع فضفاض على غرار قميص الرجال ولكنه أقصر لا يصل إلى الركبتين ويصنع أحيانا من الكريب الملون أو الأسود(٩٤)، وقد شاهدت صوفيا أنواعا مختلفة منه بحكم دخولها الحريم فذكرت أنه مصنع من الحرير الرقيق المقلم بخطوط لامعة ولا تضيق أكمامه عند المعصم(٩٥) ونساء الطبقة الفقيرة يرتدين قميص أكمامه طويلة مرفوعة فوق الرأس بربح صاحبته(٩٦).

ويلف الشنتيان منطقة الإرداف وهو سروال واسع جدا من الحرير الملون

والقطن أو الموسلين الأبيض أو المشغول تصل أطراف الشنتيان السفلى إلى تحت مستوى الركبة مباشرة مع شرائط متدلية الشنتيان طويل يبلغ مستوى القدم ويكاد يلاصق الأرض عندما يتم ربطه بهذه الطريقة[٩٧]، وترتدى نساء الطبقة الفقيرة سروال مشابه للشنتيان ولكنه مصنوع من القطن والكتان[٩٨].

ترتدى المرأة فوق القميص والشنتيان اليلك وهو ثوب طويل فضفاض ذكر لين أنه من نفس قماش الشنتيان بينما نفت صوفيا ذلك فذكرت أنه من قماش مختلف سميك من البروكار أو الشيت القطن[٩٩].

وقارن إدوارد لين اليلك بالقفطان الرجالى ولكن اليلك أكثر لصوقا بالجسم والأكمام طويلة كما أنها مفتوحة عند جانبى الأرداف نزولا[١٠٠]، وأضافت صوفيا أن اليلك مصمم بطريقة يكشف فيها نصف الصدر ما عدا القميص وهو ثوب خارجى أطول بكثير من طول السيدات يتدلى الجزء الخلفى منه على الأرض على شكل ذيل جرار ويرفع الذيل من الأمام فوق الذراع وأحيانا تستبدل النساء باليلك سترة قصيرة[١٠١].

ويتم لف الخصر بشال طرفاه المطويان من الخلف ويكون الشال بالنسبة للسيدات الراقيات من الكشمير ويغلب اللون الأحمر على الشيلان ولها حافة رفيعة مذهبة . هذا وقد أتيح لصوفيا حضور زفاف كريمات محمد على فقدمت وصفا لعدد الشيلان الرائعة المهداة للعروس[١٠٢] أما العوالم فيرتدينه عند الرقص وقد أشار فرومونتان إلى ألوانه « أنهن يفتقرن إلى الذوق الراقى »[١٠٣].

وفوق اليلك ترتدى المرأة الجبة وهى مصنوعة من القماش أو الحرير أو المخمل المطرز وهى تختلف عن جبة الرجل بوسعها خاصة فى الجزء الأمامى[١٠٤] كما ترتدى المرأة أيضا السلطة وهى سترة من القماش أو المخمل مطرزة كالجبة[١٠٥] وعرفت صوفيا السلطة بأنها معطف قصير من الملابس المطرزة وفى الشتاء يكون من المخمل أو الصوف الناعم بالحريم وفى الصيف يكون من الموسلين[١٠٦].

والزى الشائع فى معظم أرجاء القاهرة القميص الأزرق أو التوب والطرحة وفى الصعيد تتدثر النساء بالهلالية وهى من القماش الصوف البنى الغامق تلفه المرأة حول

جسدها وتجمع أطرافه العلوية خلف طرف ليستعمل قطعة من القماش وأنه بشكل طرحة[١٠٧].

والمرأة فى مصر حريصة على تغطية وجهها وقد ألتقى لين بنساء لا تغطى أجسادهن سوى ثياب رثة كما صادف مرارا فتيات فى مراحل بلوغهن الأولى وأخريات أكبر يرتدين الأسمال التى تستر أردفهن ولكنهن رغم ذلك حريصات على تغطية الوجه[١٠٨].

وقليل من النساء يرتدين الجوارب بينما ترتدى الكثيرات منهن المز أو الحذاء الداخلى المصنوع من الجلد المراكشى الأصفر أو الأحمر المطرز بالذهب أحيانا ينتعلن فوق المز البابوج وهو مستدق الرأس من الجلد المراكشى الأصفر وقد يستعملن القباقيب الخشبية المرتفعة أربعة أو خمسة بوصات عن الأرض والمزينة باللؤلؤ أو الفضة وعند الخروج ينتعلن الخف وهو حذاء من الجلد المراكشى ينتعل قبل البابوج ونساء الطبقة الفقيرة يرتدين الحذاء المصنوع من الجلد المراكشى الأحمر المعقوف طرفه[١٠٩].

أما ملابس التجوال فهى التزييرة أو الثوب أو السبلة ولا بد للمرأة أن تضعه عند خروجها للطريق وهو مصنوع من الحرير ألوانه زهرية وردية أو بنفسجية وقد وصفت صوفيا التزييرة بأنها ثوب مريح مناسب لجو مصر وقد ارتدته فى خروجها عدة مرات[١١٠].

ويلى التزبيرة البرقع المتمثل بشقة طويلة من الموسلين الأبيض تغطى الوجه ما عدا العينين وقد ارتدته صوفيا عند زيارتها لحريم محمد على[١١١].

وتغطى المرأة نفسها بعد ذلك بملاءة هى الحبرة وهى للمتزوجة من الحرير الأسود وغير المتزوجات من الحرير الأبيض ولا تسمح الظروف المادية لنساء الطبقة الوسطى بشراء الحبرة فيلجأن إلى وضع الإزار وهو يشبه الحبرة شكلا وحجما أما المعدمات فيرتدين حبرة مؤلفة من قطعتين من القطن مموج فى شكل مربعات زرقاء وبيضاء[١١٢].

وقد عبر جيرار دى نرفال عن هذا الكم الهائل من الملابس التى ترتديها المرأة

المصرية بقوله « بدت لى نساء مصر فى ملابسهن الواسعة كالبالون المفتوح[١١٣].

وتزين المرأة رأسها بالطربوش والفردوية التى تقوم بلفها حول الطربوش وتختال بالمزاجى وهو من الموسلين الأسود يلف لفات سلع فيشكل عصابة ضيقة لا يتجاوز عرضها عرض الأصبع الواحد كما تعتمد المرأة على زينتها على القرص وهو دائرى الشكل متحدب يحاط فى أعلى الطربوش وهو نوعان ترص الألماس وترتديه زوجات التجار والطبقة المتوسطة أما العامة فيكون من الصفيح تزينه فى الوسط حية زمرد وتضع المرأة على رأسها القصة وهى مؤلفة من الماس المرصع بالذهب وتكون فى مقدم الربطة كما تستخدم الشواطح وعى فى نفس طول القصة تتوسطه زمردة صغيرة وتشد الربطة وقد تستبدلها بريشة أحيانا تستخم القمرية وهى صفيحة ذهبية مزخرفة تدلى من القمرية سبع قطع ذهبية مسطحة تعرف بالبرق وتتضمن كل قمرية أدعية مثل ياكافى يا شافى أمين وتستخدمها المرأة لتقيها شر الحسد[١١٤] .

كما تستخدم عود صليب وقد علل لين هذا الاسم من أن المسلمات تأثرن بنساء الأقباط وأخذن هيه العادة منهن وهو قطعة خشبية مستديرة وطبقة يعلق عليها عود الصليب بخرز ذهبى مؤلف من قطعتين تتخذان فى الوسط ، كما تزين المرأة أذنيها بالحلق وله أشكال مختلفة كما تزين رقبتها العقد والقلادة وتختال المرأة بأساورها الجميلة فى معصمها وقد تكون من الماس أو الذهب وأساور نساء العامة من النحاس والقصدير كما تزين أرجلها بالخلاخيل الذهبية والفضية وهى ثقيلة الوزن تحدث صوتا رنانا عند السير وقد انشد المصريون الأغانى « رنة الخلخال أخذت عقلى[١١٥] » ونساء الطبقة الدنيا يضعن الخزام فى أنوفهن كذلك ينتشر استعماله فى الصعيد وهو نحاس يضم ثلاث خرزات زجاجية ملونة حمراء أو زرقاء ويمر عبر المنخر الأيمن ويتدل جزء منه أمام الفم وتضطر النساء رفعه بيد واحدة عندما تضع أى شئ فى فمها[١١٦] . انتقدت صوفيا تكحيل العيون ووصفته بأنه يشوه المنظر والنساء فى مختلف الطبقات يشوهن وجوههن بهذه الطريقة[١١٧] ، كذلك تستخدم النساء الحناء لتزين الأيدى والأرجل ويستخدمن الوشم ولا سيما فى الصعيد وقد أنتقد أدوارد لين وشم الشفاء . والوشم بصفة عامة فهو أمر لا يروق للغريب[١١٨].

عادات الزواج واحتفالاته :

أكد معظم الرحالة أن الفتاة فى مصر تتزوج فى سن صغيرة وتعجب شارل بلان من أنها تصبح أما فى سن الثانية عشرة وقد تصبح جدة فى سن الرابعة والعشرون وفى سن الثلاثين ترى أحفاد أحفادها[١١٩]. وعلل إدوارد لين زواج الفتاة فى سن صغيرة لأن « المصرية تصل مرحلة البلوغ قبل غيرها من بنات جنسها ممن يعشن فى المناخ البارد وأما اللواتى ترتسم أمارات البلوغ باكرا عندهن فيتزوجن فى العاشرة وقليلا من هذه الفتيات اللواتى يبقين دون زواج بعد سن السادسة عشرة وقدتصبح الفتاة فى سن الثالثة عشرة أما[١٢٠]. ومن أسباب التعاسة الزوجية أن تكون الزوجة أصغر بكثير من زوجها الذى قد يكون فى سن جدها على حد قول صوفيا[١٢١]. والتى قارنت طريقة الزواج فى مصر وإنجلترا فوجدت أن تقبل الفتاة لشخص لا تعرفه ولا تكن لها أية صلة به يعتبر وضعا « بشعًا للمرأة الرنجليزية » ولا يحدث فى بلدها ولكنها أوضحت أيضاً بأمانة أن الشريعة الإسلامية لا تقر مثل هذا التشدد ويمكن للفتاة رؤية من يطلب يدها[١٢٢]. وقد يعهد الرجل المصرى لاختيار خاطبة أو توكيل أمرأتين لإتمام الخطبة وقد ذكرت صوفيا قصة طريفة ملخصها أن أحد الشبان تقدم لخطبة عروس ثبت بعد ذلك أنها عوراء فلامه الناس وأكد بدوره أن أمه رأتها وهى تجلس فى غرفة مظلمة ولذلك دفعت لها مهرا كبيرا قدره أربعمائة قرش وهى مدخراته كلها وقد تكبد الشاب هذا المبلغ لأن أسرة الفتاة كانت أعلى فى المرتبة من أسرته وعلقت صوفيا على هذه القصة عندما سمعتها « حينما وضعت أراضى العروس وثروتها فى كفة وعيوبها فى الأخرى رجحت كفة المال »[١٢٣].

تلعب الخاطبة دوراً هامًا فى الخطوبة وهى أحياناً تلعب دور الدلالة فتبيع الزخارف والحلى الثياب يساعدها فى ذلك سهولة دخولها الحريم كذلك يسمح للنساء اللواتى يصاحبنها بارتياد الحريم كمجرد زائرات فإن خاب أملهن فى العروس يستأذن بالأنصراف وتقدم الزائرات تقريراً للعريس عن جمال العروس المرشحة له فإذا أعجبته أرسل الخاطبة من جديد لإتمام الزيجة[١٢٤].

وفى كثير من الأحيان يتم الموافقة على الزواج دون استشارة العروس وغالبا ما

يعارض الأب تزويج أبنته لرجل لا يمتهن مهنة أو تجارة كذلك يعارض تزويج الابنة الصغرى قبل الكبرى(١٢٥)، ومن الطريف أن شارل بلان كتب أن « الفتاة فى مصر تفضل الزواج من متسول على أن تظل بدون زواج »(١٢٦).

ومن العادات الشائعة أن تتزوج الفتاة ابن عمها وتنتشر هذه العادة بين العرب والبدو وإن كانت تقل فى القاهرة وعلق لين على ذلك « فصيلة الدم لا فكاك منها» وتعجب أدمون أبو من أن اختيار الزوج من قبل الأهل لا يضايق الفتاة فى مصر ولا يشكل قيدا عليها فهى تنظر إلى هذه القيود باعتزاز وتعتبرها دليل مكانتها عند أهلها وزوجها(١٢٧)، كما أكد إدريس أفندى بأنه عند الزواج لا يؤخذ رأى الفتاة بينما يختار الرجل زوجته مما يسمعه عنها ولا تشعر الناس بالضيق من هذه القيود ففى الشرق حيث لا يرى الرجال النساء من الصعب أن نجد زواجا قد تم بناء على عاطفة بين الطرفين أو توافق فى الطباع أو الأفكار بل أن المنفعة هى التى تقود وتقرر(١٢٨). أباحت الشريعة الإسلامية للمسلم الزواج بنصرانية أو يهودية ويسمح له بالزواج من أربعة وله حق التسرى واتخاذ المحظيات(١٢٩)، ودافع جيرار دى نرفال عن تعدد الزوجات فقال أنه أفضل بكثير مما يفعله القساوسة فى أوروبا الذين يتخذون العديد من العشيقات(١٣٠) وإذا كان من حق رب الأسرة أن يزوج بناته وأبنائه فإن من حقه أيضاً تزويج جواريه وقد تتألم الجارية لفراق سيدها وتفضل البقاء فى بيته ولو كان اختيار السيد زوجا لجاريته يكون مدعاه فخر لها ويقام حفل زفاف كبير(١٣١).

وإذا كان معظم الرحالة قد تحدثوا عن طريق الزواج وعاداته وتقاليده فى مصر فإن لوسى داف جوردون تحدثت عنه من خلال تجربة شخصية لها أرسلتها إلى زوجها فى إحدى رسائلها فقد تقدم أحد الشباب البدو لطلب يدها وأخبرها بأنها تبدو فى عينيه أميرة عربية تستحق الفوز بعنترة بن شداد وكان لا يتجاوز الثلاثين عاما بينما هى فى الثالثة والأربعين وقد اعتذرت بلطف(١٣٢).

عندما يحين الزواج تختار المرأة وكيلا لإبرام العقد فى حالة وفاة والدها يكون

وكيلها أحد أقربائها أو حارس يعينه القاضى والمهر جزء أساسى فى الزواج بحسب بالريال وقد يصل فى المتوسط إلى ألف ريال ويجعل كل خمسمائة قرش فى كيس ومهر المطلقة أقل ومن النادر جداً أن تكتب أى وثيقة تثبت الزواج إلا إذا كانت العروسة على أهبة السفر(١٣٣).

والزوجة الأولى لها مكانتها وتعرف بالهانم الكبيرة وقد يكتفى الزوج بزوجة واحدة لها كثرة الجوارى ولذلك كتبت صوفيا تخاطب قراءها البريطانيين لا تتعجب حينما أصف رجلا له محظيات بأنه زوج فاضل وإنما أقصد فاضل بالنسبة لغيره(١٣٤).

تنتظر العروس حوالى ثمانية أو عشرة أيام بعد إبرام عقد الزواج وتنصرف أسرتها خلال هذه الفترة فى إعداد الأثاث كالديوان والحصر والسجاد والأسرة وملابسها بينما لابد للعريس أن يرسل إليها الحلويات والشموع والسكاكر وغيرها من الهدايا ويفضل المصريون الزواج يوم الاثنين والجمعة ويفضلون الأخير لأنه أكثر أيام الأسبوع حظاً(١٣٥).

تذهب العروس إلى الحمام قبل ذهابها إلى بيتها ويقام ما يعرف بزفة الحمام وترأس هذه الزفة مجموعة من الموسيقيين يقرعون الطبول وينفخون مزامارا أو اثنين وينتهز البعض هذه المناسبة لختان أولادهم ويترأس زفة العروس رجلان يحملان لوازم الحمام فوق صينيتين مستديرتين كل واحدة منها مغطاة بمنديل حريرى بسيط التطريز كما يشارك السقا فى مثل هذه المناسبات فيقدم الماء لكل عابر سبيل ويسير رجل يحمل قمقم بداخله ماء ورد للرش على المارة كما يحمل أثر مبخرة من الفضة وفى الصدارة من الزفة تسير قريبات العروس المتزوجات اثنين وتسير العروس تحت ظلة مزركشة بألوان زهرية صفراء وردية وتكون الظلة مفتوحة من الأمام ويعلق فوق كل سارية منديل مطرز وتغطى العروس وجهها تماماً وخلفها امرأة وظيفتها أن تهوى بمروحة كبيرة من ريش النعام الأسود ومزينة بمرآة صغيرة(١٣٦).

وتقوم العوالم بتسلية العروس فى الحمام كذلك بعد العودة إلى المنزل حيث

تبدأ ما يعرف بليلة الحناء ، وقد شعرت صوفيا لين بالضيق عندما شاهدت موكب لنساء صغيرات فكتبت « مخلوقات صغيرة بلهاء لا يصلحن أولاد لأزواجهن » وقد تألمت عندما رأيت فتاة لا يتجاوز عمرها عشر سنوات تلهو أثناء الموكب(١٣٧).

اهتم الرحالة بإلقاء الضوء على حفلات الزفاف وقدم إدوارد لين وصفا لحفل زفاف ابنة السيد عمر نقيب الأشراف وانتقد ما قام به الحواه وغيرهم فهذا شاب عمد إلى شق بطنه وآخر قام بطعن ذراعيه بسيف وقد شعر لين بالاشمئزاز من هذه الأعمال المجنونة ولكنه أكد أنها تقلصت إلى حد كبير(١٣٨) .

والزفة المعتادة من المعروف أن تسير العروس بخطى بطيئة يتقدمها الموسيقيين والعوالم والغوازى الائى يسعدن بجمع النقوط(١٣٩) .

وهناك نوع من الزفة تعرف بالساداتى وهى أكثر احتراما حيث يصحب العريس فى هذه الزفة أصدقائه ويحملون المشاعل بينما يغيب الموسيقيون من الموكب ويستعاض عنهم بستة أو ثمانية رجال يعرفون (أولاد الليالى) وهو مغنيو مثل هذه المناسبات ويتوجه العريس إلى المسجد وهو فى طريقه إلى المنزل وتنشد الموشحات فى مدح الرسول (ﷺ) ويتلون الفاتحة يليها القصائد ثم يحمل العريس إلى حجرة عروسه ولابد أن يقدم لها هدية مالية تعرف « ثمن كشف الوجه » قبل أن يرفع الغطاء ثمن وجهها(١٤٠) .

أما فى القرى فتختلف الزفة لأن العروس تجلس على جمل وتغطى وجهها بشال إلى أن تصل إلى منزل العريس ويقضى الجميع الليل فى الغناء والرقص وقد عقدت لوسى داف جوردون مقارنة بين حفلات الزفاف فى الريف المصرى والألمانى فوجدت تطابقاً كبيراً وتشابهاً حيث يتم إطلاق النيران فى الهواء ويتم عرض أثاث المنزل الجديد فى ريف مصر على ظهور الجمال وفى المانيا فوق العربات(١٤١) .

هذا وقد اهتم الجبرتى بتقديم وصف لحفلات زفاف أبناء الأسر الحاكمة وكبار الشخصيات فقدم لنا حفلة عرس نظلة هانم وابنة محمد على الدفتردار محمد بك فى شهر محرم ١١٢٩هـ وسجل « الزم كتخدا بك السيد محمد المحروقى

بتنظيم الفرح والاحتياجات واللوازم واتفقوا أن يكون نصبة الفرح بركة الأزبكية تجاه بيت حريم باشا وطاهر باشا لعمل الولائم ونصبوا بوسط البركة عدة صوارى لاجل الواقدات والقناديل التى تعمل عليها التصاوير من القناديل فترى من البعد صورة مركب أو سبعين متقابلين أو شجرة أو محمل على جمل أو كتابة مثل « ما شاء الله ونحو ذلك »(١٤٢) . وقد قدم الرحالة وصفا لحفلات زفاف تقارب ما قدمه لنا الجبرتى ولا سيما صوفيا لين التى أتيح لها حضور مثل هذه الحفلات فاعربت عن سعادتها لحضور حفل زفاف زينب هانم صغرى بنات محمد على ، فقدمت وصفا لملابس العروس وسجلت « ارتدت العروس يلكا وشنتانا وحزاما من الكشمير بخيوط ذهبية وفوقه سلطة من القطيفة الحمراء مبطنة بفرو وتقدمت الجوارى كل تحمل آلة موسيقية وبرفقتهن فرقة صغيرة من ضاربات الدفوف ، وأما الغناء فقد دام نصف ساعة ووصفت الألحان التركية بأنها كانت ممتازة هذا وقد اقيم الحفل فى القلعة وأقيمت هياكل لفيل ضخم يقوده هياكل الأشخاص تمثل بجع وسفينة تسير على جمل وزين الطريق إلى القلعة بعدد كبير من الثريات كل ثريا بها عشرة مصابيح وقد جلست العروس فى مكان مرتفع من الوسائد من الساتان الوردى الفاتح المطرزة بفخامة بالذهب وجلس إلى جوارها شقيقها محمد على بك وعن يسارها الأميرة نظلة هانم كبرى بنات الباشا وأخذت تنثر العملات الذهبية والفضية بين الجموع وتجمعت حوالى ثلاثمائة من النساء حاولن الحصول على هذه الهبة من العملات وكانت من فئة خمسة وثلاثة قروش كذلك تم نثر بارات من الفضة مخلوطة بالشعير والملح وقدرت صوفيا عدد النساء اللاتى حضرن الحفل ما يقرب من سبعة آلاف(١٤٣) .

وقد سمح لصوفيا مشاهدة جهاز العروس والمجوهرات والهدايا التى قدمت لها فاذهلتها على حد وصفها ولا سيما الأطقم والفضيات ، أضف إلى ذلك أثنى عشر ثوبا من القطيفة والصوف والساتان المطرز بخيوط الذهب على شكل أزهار وبداخل كل رداء طوى شال رائع من الكشمير أما الأحذية فكانت مرصعة بالصدف والأحجار الكريمة حوى جهاز العروس على أربعة أطقم للعشاء من الفضة وعدد

كبير من الفناجين والأطباق الأنيقة المجدولة أما محمد على فقد أهدى ابنته حزاما من الماس قدرته صوفيا بمائتى الف استرلينى وعقد قدرته بسبعة وثلاثين ألف وقرط قدرته باثنى عشر ألف أما الأساور فثمنها عشرة الاف استرلينى(١٤٤) .

كذلك قدمت صوفيا حفلا آخر فى حديقة الأزبكية وكان العريس ابن عم محمد على يدعى أحمد باشا اتم تعليمه فى باريس وعين فى وظيفة كبيرة وقد وضعت حول بركة الأزبكية الأعلام والمصابيح كما وضعت منصة لإطلاق الصواريخ وكان فى البركة عدد من القوارب للإيجار ونصبت خيام كثيرة فى الشريط الضيق بين حافة الماء والمنازل المحيطة وذلك لبيع القهوة والحلوى وغيرها كما أقيمت أراجيح وازدحم القصر بالجمهور ، وأقيمت ظلة فوق ساحة من قماش الخيام الأحمر لتحمى المغنيين والرجال من الراقصين وفى مساء يوم اطلقت الألعاب النارية ووزع على الحاضرين الفطائر والمشروبات السكرية والشربات وجاء الجنك المختثين فى الملبس والمظهر وقد عبرت صوفيا عن شعورها بالإشمئزاز منهم ولا سيما وقد أطلقوا شعورهم خلف ظهورهم كما استخدموا الصفا لتزيين ضفائرهم كذلك قام المهرجون بتسلية الحاضرين وعزفت الآلاتية مقطوعات موسيقية وقام جماعة من المحيطين وهم ممثلون هزليون بتقديم فصل هزلى عن المتاعب التى يتعرض لها رجل تسيطر عليه زوجته المشاكسة واستمر الحفل عدة أيام قدمت خلالها مقطوعات أفرنجية واستمر الرقص والغناء(١٤٥) ، ومن المفارقات أن صوفيا لين شعرت بالضيق من رنين الزغاريد فوصفتها بأنها « أصوات نشاز تصم الآذان » كما وصفت غناء النساء بأنه يشبه العويل(١٤٦) ، ونساء الأقباط لهن نفس مظاهر احتفالات الزواج فالعروس تذهب إلى الحمام ثم تنتقل إلى منزل زوجها بصحبة صديقاتها يحيط بها الآلاتية وحملة المشاعل والفارق الوحيد الذى لمسه الرحالة أن العروس القبطية لا تسير تحت المظلة كذلك يتم إتمام مراسم الزواج فى الكنيسة ثم يقام حفل للعشاء فى منزل العريس يقدم فيه أطباق الأرز والحليب والطيور المسلوقة وفى كثير من الأحيان ينصح الأسقف أو الكاهن أهل العروس بعد إنفاق أموالها فى الزفة بل تخصيصها للفقراء ورجال الكهنة ويتم الزواج ببساطة(١٤٧) .

شنت هنريت مارتينو هجومها على منازل الحريم بينما دافعت لويس داف جودون عنها ونفت انتشار الفساد فيها وهى التهمة التى الصقتها هنريت بها[١٤٨]، هذا وقد خصصت الأدوار العليا للحريم وأسست وزينت بأجمل الأثاث ووصفت صوفيا الحريم بأنه نظام عالمى فوالدة رب الأسرة هى سيدة الحريم الأول وإن لم تكن على قيد الحياة فتتخذ أخته أو أخواته الصدارة يتبعهن فى المرتبة زوجته المفضلة الأولى إذا انجب منها تحتفظ بمنزلتها العالية ثم تتدرج مراتب الزوجات حسب إيثار الزوج لها[١٤٩]، ولا يسمح لأحد بدخول المنزل باستثناء رب العائلة والأطفال والأقارب ويخصص للنساء حجرات مختلفة تضم الحريم والأبناء والخادمات اللاتى يقومن على خدمتهن الخدم والعبيد إلى جانب سايس الخيول والحمير والبغال[١٥٠].

يعيش حريم محمد على فى قصور مخصصة لهن ومسكنهن مقسم إلى ثلاث أقسام الداخلى وهو يتكون من الغرف الداخلية وغرف النوم وجزء مخصص للمكاتب والاستقبال .

وقد أكدت صوفيا أن قصر الدوبارة هو المقر الرئيسى لحريم الباشا وهو بيت ضخم يقع فى غرب القاهرة على الشاطئ الشرقى للنيل ويستحق فعلا أن يكون ملاذهن المفضل بعد الركوب وقدمت صوفيا وصفا للقصر الذى يقفل بواسطة بوابة كبيرة وداخل القصر أسوار عالية مغطاة بعريشة نبات الكرم والطرق مرصوفة برخام بديع على امتداد ممرات عديدة ، ويوجد ساتر عند مدخل الحريم والغرفة الداخلية ضخمة أرضيتها من الرخام ومن جميع الممرات والحجرات والسقف مزين بزخارف وثريات فيها عدد لا يحصى من الشموع ، والنوفذ مغطاة بساتر من الموسلين الأبيض تحفها حواشى بعضها وردى اللون من نسيج رقيق لونه وردى وأزرق، وعلى جانبى المدخل قاعدتان أنيقتان على هيئة عمودين تلتف حولهما زهور صناعية وفوق كل منها مشكاة كبيرة مربعة من الزجاج ، والنوافذ أوروبية الطراز بها ستائر من الحديد المشغول بذوق حسن وغرفة الديوان مغطاة بالمفروشات وقد علقت المراتب والمسائد التى ترتكز على الحيطان بقماش قطنى مطبوع بألوان ذهبية وضعت فوق جميع مساند الحيطان مجموعة من الوسائد الصغيرة المغلقة بقماش الموسلين

الأبيض المطرز بالأسود[١٥١].

هذا وقد قدمت صوفيا وصفا لمنزل حبيب أفندى حيث قامت بزيارة أسرته فكتبت أن الحرملك مثل غيره من بيوت عظماء هذا البلد لا يقتصر على الطابق الأول والذى يليه ولكنه منزل خاص كامل منفصل عن منزل الرجال[١٥٢].

وفى الطبقات العليا يكون لكل زوجة جناحها المفضل وأتباعها وتنفرد كل زوجة بقصر مشتمل تحيط به الأسوار الشاهقة ويحرس المدخل الخارجى بواب والداخلى يحرسه الأغوات[١٥٣].

أما عن وسائل الترفيه والتسلية لدى المرأة المصرية فقد أكدها الرحالة ألا وهى تبادل الزيارات وكتب نرفال أن النساء فى مصر لا يعشن حياة يائسة كما نتصور فهم محاطون بالخدم والجوارى والمنازل الجميلة ويحرص الأزواج على شراء كميات كبيرة من الذهب والحلى كما أن لهن حق زيارات الأقارب والصديقات[١٥٤] .

تقضى المرأة المصرية وقتا طويلاً فى سماع الموسيق وفى التنزه على ظهور الحمير من وسائل الترفيه مشاهدة الاحتفالات والأعياد والمشاركة فيها ويعتبر الذهاب للحمام من أهم الأماكن التى ترتادها المرأة فتقضى وقتا طويلا فيه فى صحبة الجوارى وصديقاتها ويتناولن الفواكه والمرطبات[١٥٥]، تحرص المرأة على البحث عن التركيبات والوصفات التى تجلب لها البدانة ومنها الخنفساء المهروسة وهى وصفة مقززة على حد قول لين[١٥٦]، ويسمح لنساء الطبقة العليا بالتدخين ورائحة الطباق معطرة للغاية كما ذكر جيرار ، وغلايين النساء أرفع من غلايين الرجال وأكثر زخرفا وطرف الغليون يكون من المرجان بدلا من العنبر وتستعمل النساء المسك وغيره من العطور[١٥٧].

وقد شاهدت صوفيا نظلة هانم ابنة محمد على وهى تنفث غليونها وكان مبسمه من الكهرمان يتلألأ بالماس[١٥٨].

وقد تقضى النساء أوقات الفراغ فى الحياكة والتطريز ولا سيما مناديل اليد

ويتم التطريز على المنسج وكثير من نساء الأغنياء يملأن أكياسهن الخاصة بالمناديل المطرزة وتقوم الدلالة بعرضهن فى الأسواق(١٥٩) .

أما نساء الطبقات الدنيا فلا وقت لديهن للتسلية إلا نادرا فهن يكدحن مثل أزواجهن فعليهن أعباء ثقيلة مثل غزل القطن والصوف وجلب الماء وتحضير الطعام(١٦٠) .

وإلى جانب وسائل الترفيه تشارك المرأة المصرية فى المواكب الجنائزية وقد شاهدت صوفيا النائحات على الموتى وكتبت يبدو وأنه يعبر عن حزن قوى يائس وأن الندابة انجاز لا يمكن الوصل إليه إلا بالمرن المتواصل الطويل ويستأجر محترفوه عادة لمآتم الأشخاص من الطبقتين الوسطى والعليا ويصاحب الندب أحيانا الضرب بالدف وأكدت صوفيا بأنها رأت صور فوق جدران المعابد المصرية القديمة تشبه ما تفعله الندابات. وتخرج النساء لزيارة الأضرحة وقد تسير خلف الجنازات وقد شاهدت صوفيا جنازة خورشيد باشا حاكم سنار فكتبت لم أشاهد أعجب منها تصدر الموكب تسعة جمال يحمل كل منها صندوقين بهما ملح وتمر فوق كل جمل جلس رجل بين صندوقين ينشر الخيرات بيده ثم جاءت ثلاث جمال الماء وتبعتها جاموستان لذبحهما عند القبر وتوزيع اللحوم على الفقراء ، وهذه المراسم تشاهد فى جنائز الأثراء(١٦١) .

وقد يكون فى المسيرة أكثر من ثلاثين من المرتلين ثم جمع غفير من الأتراك بالزى العسكرى ثم فصيلة من الشاوشية بكامل زيهم العسكرى يسيرون اثنين ثم مجموعة من الرجال يحملون البخور وخلف النعش النساء والجوارى وما يقرب من خمس وعشرين أو ثلاثين سيدة تمتطى كل منهن حمارا عاليا وحوالى عشرين جارية فوق حمير عادية ومجموعة كبيرة من النسوة يسرن على الأقدام يندبن ويولولن بأصوات عالية(١٦٢) ، وتشبه مراسم موت الأقباط مراسم جنازة المسلمين ويتم استئجار النساء للندب والبكاء وقد وصف ادوارد لين هذه العادات بأنها عادات وثنية(١٦٣) وتؤمن المرأة المصرية بالخرافات وتعتقد أن الجن يسكنون الأنهار والحمامات والجن

الماكر يستقر أسطح المنازل أما الغيلان فهى فى الأماكن المعزولة وتتغذى على جثث الموتى ويشترك المسلمون والمسيحيون فى مثل هذه المعتقدات[١٦٤].

وترتدى المرأة الحجر الأزرق لوقاية أولادها من شر الحسد والعين كذلك تستخدم حجر الشب لنفس الغرض فيزينون به قلنسوة الصبى وتعلق النساء على الأبواب نبات الالوة « الصبر » وإذا خشيت من شر شخص كسرت انية فخارية وراء ظهره كما تميل لعلم الرقة أو التنجيم لجلب الحظ[١٦٥].

الجالية البريطانية :

تمتع الأوروبيون بصفة عامة والبريطانيون بصفة خاصة بالاحترام فى مصر وعلل ولسون ذلك إلى الجهود التى بذلها قناصل بريطانيا ، للتأكيد على مكانة مواطنيهم وضرورة تمتعهم بالامتيازات ومن هؤلاء جون ستيوارت الذى تمتع البريطانيون بفضله بميزة ركوب الخيل[١٦٦].

أثنت اميليا ادواردز على الحرية التى نالها البريطانيون ، فهم يسيرون فى شوارع القاهرة لا يتعرضون للمضايقات ، ومن الطريف أنها انتقدت مظهرهم الذى لا يتفق مع طبيعة البلد ، فهم يسيرون فى الطرقات بقبعاتهم المصنوعة من الخوص ، وبنطلوناتهم القصيرة حول الحمير التى لا يظهر لها أثر عنهم[١٦٧].

ولم تقتصر حرية الحركة للبريطانيين فقط وإنما شملت النساء فقد شاهد ويلسون أحدى البريطانيات وهى تتسلق عمود « بومبى » بالاسكندرية وقد وضعت حبلا حول خصرها رمز إليها ويلسون بحرف T ووصفها بالشجاعة والإقدام ، وأكد بأن السلطات لم تتعرض لها[١٦٨].

أكد ويلسون على كرم الأسرة الحاكمة ولا سيما محمد على الذى أهدى السيد سيدنى سميث فى ١٨١٨ طبقا من الذهب عثر عليه أحد العمال أثناء التنقيب عن الآثار ويرجع إلى عصر البطالمة[١٦٩].

وصفت إميليا المصريين بالود ، ودافعت عن أقباط مصر ونفت تهمة التعصب

التى الصقها بعض الأوروبيين بهم وأكدت بأنهم سمحوا لها بحضور قداس فى كنيسة قبطية ، ولم يشعروا بالضيق لوجودها ، وفى الوقت نفسه أكدت على روح التسامح الدينى فى مصر ، وأن أعداد كبيرة من الأقباط اعتنقت الإسلام(١٧٠) .

تحدث الرحالة البريطانيون عن أشهر مواطنيهم فى مصر ولا سيما القنصل بريجز ، وجون ستيورات ، وأكدوا مكانتهم لدى محمد على ، ومن العاملين فى خدمة محمد على تريل الذى وكل إليه العناية بحدائق الباشا ، أما عن التجار فمن أشهر الشخصيات كيزى ، ومالين ، ومن الوسطاء والسماسرة فرند ، وهو يعمل وسيطا فى شراء السفن الرسمية ، كذلك جالواى وتيبالدى ، كذلك اشاروا للشركة البريطانية مثل شركة هاريس وشركائه ، وجويس ثربورن ، وشبرد كذلك اهتم البريطانيون بالإشارة إلى بعض التجار فى الاسكندرية ولا سيما بوسيتا وكورنيس وهما من مالطة وحصلا على حماية بريطانية ومن أشهر اليونانيين بوبولانى وريجا جيرو(١٧١) .

أشار الرحالة لوجود بعض البريطانيات فى مصر ولا سيما الآنسة هوليداى التى عملت فى مدرسة البنات وتولت الأشراف عليها وأعجب بها بورغ(١٧٢) .

أما التراجمة البريطانيون فكان لا بد من اتقانهم اللغة العربية والتركية والإيطالية، ولا بد من توافر مواصفات خاصة بهم ، وأحيانا كان القناصل البريطانيون يستخدمون التراجمة اليونانيين(١٧٣) .

فضل البريطانيون سكنى الأحياء الشعبية وعللت صوفيا ذلك لبساطة الناس فى هذه المناطق ، ولتمسكهم بتقاليدهم التى تدعو إلى الأعجاب ولا سيما ترابطهم الأسرى القوى ذلك الترابط الذى يسود الشرق كله وأن الفقير يتحمل هموم أخيه ، ويسود هذا الرباط الأسرى بين الفقراء والطبقة المتوسطة ، ورغم أن الفقراء لا توفر لهم الحكومة مساكن للأيواء مثلما يوجد فى بريطانيا ، ولكنهم راضون بكسرة من الخبز وجرعة ماء ورغم كل متاعبهم يتعاملون مع الأوروبيين والبريطانيين « بلطف شديد »(١٧٤) .

وأشار ويلسون أن الأهالى فى الأحياء الشعبية كانوا أحيانا يظنون البريطانيين أتراكا ، ورغم الجو الشعبى فى هذه الأحياء إلا أنه كان للبريطانيين أصدقاء فيه ، كما أعجبوا بالموسيقى الشرقية أعجابا كبيرا[١٧٥] .

كما أقام البريطانيون فى الأماكن المخصصة للأوروبيين مع الفرنسيين ولا سيما الفنادق التى وجدها ويلسون دون المستوى وضرب مثلا بفندق جريكا فى بولاق حيث وجد النوافذ مكسورة قذرة ، أعطته الانطباع بأنها لم تنل حظا من النظافة ولم يتم غسلها من قبل[١٧٦] .

إذا تحدثنا عن متاعب الجالية البريطانية بأقلام أصحابها فلا بد أن نذكر أن مناخ مصر سبب الضيق للكثير منهم ولا سيما حرارة الطقس فى فصول الصيف ، فقد وجدت صوفيا أن طقس مصر شديد البرودة فى الشتاء ولا سيما أنه لا يوجد أى نوع من أنواع التدفئة ، أما باقى شهور العام والطقس ممتع وعقدت صوفيا مقارنة بين شهرى فبراير ومارس فى مصر وبريطانيا ووصفتها بأنهما من أمتع الفصول ، بينما يجئ شهر مايو برياحه الساخنة المزعجة . ولكن بصفة عامة مناخ مصر أفضل مناخ فى العالم لأن فصول السنة منتظمة بشكل واضح ، وقلما تحدث الكوارث مثل الأعاصير أو الزلازل العنيفة وأن كانت القاهرة قد تعرضت فى عام ١٨٤٥ لزلزال عنيف استمر ثلاث دقائق وشعرت صوفيا بالخوف على منازل القاهرة لسوء حالها[١٧٧] .

عانى البريطانيون من انتشار الأمراض الخطيرة فى مصر ولا سيما الطاعون الذى تعرضت له مصر فى عام ١٨١٤ قادما من الآستانة ، وانتشر خلال فصل الصيف فى شهرى يوليو وأغسطس[١٧٨] .

كما ينتشر مرض الطاعون بين الأبقار ويكون ذلك نذيرا بكارثة ، وقد وصفت صوفيا الطاعون فى مصر بأنه يكون حادا فتطفوا على أثره جثث الماشية أو يلقيها السكان على شاطئ النهر[١٧٩] .

وأكد بورنج على اهتمام الحكومة بإنشاء المحاجر وتم فرض الحجر الصحى

حتى على أجنحة الحريم ، وقد وصفت صوفيا الإصابة فى المنصورة بأنها كارثة ، وتم الاستعانة بالأطباء الروس لدراسة الوباء وأجروا تجارب على السكان ، فطلبوا من الأصحاء ارتداء ملابس المرض ودفعوا مقابل ذلك لكل شخص خمسة قروش لليوم، وقد استنكر صوفيا استغلال الروس لحاجة السكان إلى الأموال ، فقد تدفقوا على الأطباء يطلبون منهم ارتداء ملابس المتوفين حتى النساء وعندما استجيب لطلبهن انطلقت الزغاريد ، وأعربت صوفيا عن تخوفها من الإصابة بالمرض(١٨٠).

هذا وقد ساهمت الجمعية البريطانية فى نيوكاسل فى مكافحة الطاعون ، وبحثت عن أفضل السبل للقضاء عليه ، واتخذ المجلس الصحى فى الاسكندرية الكثير من التدابير لمنع دخوله، ورغم ذلك انتشر فى عام ١٨٣٨ حتى فى الوجه البحرى وساعد على انتشاره سكنى الفلاحين فى الأكواخ التى تتسم بالقذارة والرطوبة(١٨١) .

وأكدت صوفيا أنه مما يؤدى لانتشار الطاعون فى القاهرة أنه عند حدوث وفاة فى القاهرة يأمر الجندى الذى يقف أمام منزل المتوفى بمراعاة الحجر الصحى ، ولكن التجار يلجأون لرشوة الحارس ويخرجون لقضاء مصالحهم(١٨٢) .

هذا وقد قدم بيرتون للقارئ البريطانى طريقة التداوى فى مصر من الطاعون بخلط العسل والقرفة وزلال البيض والزنجبيل وتشكل على هيئة أقراص يتناول منها المريض قرصا على الريق(١٨٣).

ومن الأمراض التى تخوف منها البريطانيون هو الإصابة بالرمد الذى ينتشر فى وقت الربيع(١٨٤) .

تزيد الحشرات أثناء الليل وقد عقد ويلسون مقارنة بينها وبين القوات الغازية فهى تغزو أجساد المصريين ، فيعانون منها ، ويشتد الهجوم ليلا ، وكأنها حشود جيش ، وقد روى ويلسون قصة طريفة بأن الملك ريتشارد الأول ملك انجلترا أثناء اقامته فى الأراضى المقدسة كان يزعجه هذا الكم الهائل من الحشرات والهوام والتى تتكاثر بسبب الحرارة الشديدة فى الأراضى وأنه رأى بنفسه تكاثر الديدان فى الأرض(١٨٥) .

ينتشر الجراد فى مصر ويسبب أضرارا كبيرة ، كذلك الذباب ، وهو فى مصر أكثر أزعاجا من أى مكان آخر نظراً لتكاثره كما يكثر البق والبراغيث المزعجة ولا سيما فى المنازل القديمة ، ومن الحشرات التى لا يمكن تفاديها فى مصر القمل حتى فى منازل الأشخاص الذين يعشقون النظافة وهى تكثر فى الثياب الكتانية ، ويمكن الحفاظ على نظافة المنزل من الحشرات بوضع ناموسيات فوق الأبواب والنوافذ ولكن يستحيل التخلص من البق فى البيوت المصرية ولا سيما ذات المنجور الخشبى [(١٨٧)].

وإلى جانب مخاوف البريطانيين من انتشار الأمراض والأوبئة والحشرات ، أعربوا عن قلقهم من السلطات الحاكمة فى مصر ، وشغب الجنود ، فبمجرد حدوث مشادة بين الجند الألبان ، يتم تهديد البريطانيين ويتعرضون للسب والأهانة[(١٨٨)] ، ولا يقتصر الأمر على المنازعات الداخلية وإنما يتعرض البريطانيون للخطر فى حالة نشوب حرب فى أوروبا مثل حرب المورة واشتراك بريطانيا فيها ، وصف بيرتون مشاعر الخوف الذى انتابته أثناء سيره فى شوارع القاهرة ، وكان يتوقع القاء القبض عليه أو ضربه بالعصا فى أقسام الشرطة بواسطة الفلكة[(١٨٩)].

أما عقوبة شرب الخمر فكانت السجن ، ولكن تحسنت الأوضاع فيما بعد فلم يعد هناك سلطة قضائية على الأجانب ومنعت الشرطة من دخول بيوتهم[(١٩٠)].

لم يكتف الرحالة باستعراض أهم المتاعب التى تعرضوا لها وإنما حاول بيرتون الدس بين أقباط مصروالسلطات الحاكمة فدعاهم لتسجيل أسمائهم فى القنصليات الأوروبية ليحصلوا على حمايتها[(١٩٠)].

أما عن باقى الجاليات الأوروبية فقد أشار البريطانيون إلى الجالية الفرنسية باعتبارها من أكبر الجاليات وقد ضمت أعداداً من العاملين بالبعثات التنصيرية ولا سيما الكابوسين ، والكاثوليك ، وآباء الأراضى المقدسة[(١٩٢)].

كما أشاروا إلى الأرمن وأكدوا أنه على الرغم من قلة عددهم ، إلا أن لهم النفوذ الكبيرة ، فمنهم بوغوص بك ، ونوبار ، ويتميز الأرمن باتقان اللغات الأوروبية

ويعمل معظمهم مترجمين ، وفى السكرترية ، كما يتفوقون فى الصناعات اليدوية ، وفى صناعة الذهب والفضة ، وهم ينتمون إلى طائفتين الأرمن والارثوذكس وهم الأغلبية ، والأرمن الكاثوليك ويتبعون بابا روما . هذا وقد أكدت اميليا ادواردز أن الأرمن رغم اتقانهم للمهن المختلفة إلا أنهم يبرزون ويتفوقون فى مجال الترجمة فهى المجال الرئيسى لبراعتهم ، ولكن هذا لم يمنع من أن يكون لها بعض التعليقات الطريفة عن رجال الدين من الأرمن ، فقد قدمت وصفا لعباءاتهم السوداء الطويلة ، وقلنسواتهم العالية المربعة ، وقد وجدت أنهم يشبهون أبطال مسرحيات شكسبير[١٩٤] .

إذا قارنا ملاحظات البريطانيين بما سجله الفرنسيون عن الأرمن سنجد بأن ما دونوه ابتعد تماما عن السخرية ، وعلى النقيض أظهروا الاحترام للأرمن ولا سيما وأنهم لعبوا دورا هاما فى مصر وبرزت منهم عدة شخصيات أثرت فى تاريخ البلاد[١٩٥] .

أما عن اليونانيين فقد قدر بورغ عددهم بثلاثمائة يونانى ، اعتنق العديد منهم الإسلام ، زادت أعدادهم فى مصر بعد حرب المورة . وقد وجد بأنه ليس هناك ما يميز اختلاط السكان من اليونانيين والمالطيين والأفرنج الذين يعيشون فى القاهرة والاسكندرية ممن يماثلهم من طبقات الأجانب فى مختلف مراكز التجارة فى حوض البحر المتوسط أو تزودهم لثغور الليفانت بأصحاب الحوانيت والصناع وخدم المنازل وأبناء السبيل[١٩٦] .

وكما سخرت إميليا ادواردز من ثياب رجال الدين الأرمن ، سجلت ملاحظاتهم الساخرة عن اليونانيين بصفة عامة ، فهم يتحركون بملاياتهم البيضاء المنشأة ويبدو وكأنهم اسطوانات تتحرك على أقدام[١٩٧] .

ثانيا : الاحتفالات والأعياد :

لا يوجد بلد فى العالم مغرم بالاحتفالات مثل مصر فلا يمر يوما لا نرى فيه

احتفالا ، فالمصريون مغرمون بالاحتفالات فى المدن وفى الريف هكذا سجل بول لوكا الرحالة الفرنسى رأيه فى القرن الثامن عشر(١٩٨) ، ليجد هذا الرأى قبولا أيضاً من قبل الرحالة الأوروبيين فى القرن ١٩ .

من أهم الاحتفالات التى يحرص المصريون عليها الاحتفالات الخاصة بالمناسبات الدينية ولا سيما عاشوراء أو العشر ، أى العشرة أيام الأولى من شهر محرم، وهم يبجلون اليوم العاشر خاصة ، ورغم ذلك التقدير إلا أنهم لا يبرمون عقود الزواج، لأنهم يعتقدون أنه به أيام قد تصيبهم بالنحس أو الشؤم ، بينما يقدم الكثيرون منهم الزكاة فى هذه الأيام ، وأثناء الاحتفال ينتشر المتسولون فى شوارع ودروب القاهرة ، ويتقن المصريون خلال هذه الأيام طهى العاشوراء ، وقد اطلق عليها لين « طبق الحبوب » وقدم لقارئه طريقة طهيها لأنه وجد بأن لها مذاق مقبول هذا ويبدأ الاحتفال بعاشوراء عند جامع الحسين حيث يحتشد الناس على طول الطرق المؤدية إلى الجامع ، وتكتظ قاعته بالزائرين خاصة نساء الطبقتين المتوسطة والفقيرة ، وبصحبتهن العديد من الأطفال ، كما ينتشر الدراويش حول الجامع حيث تقام حلقات الذكر ، ويشترك فيا الدراويش الأتراك من المولويين ويدور الجمع حول انفسهم محركين أقدامهم وممدين أذرعهم ، ويتم دوران الدراويش على حلقات حلقة كبيرة داخلها حلقة أصغر وبعد فترة يجلسون للراحة ، ثم يقفون من جديد ويعدون الكرة ، والدراويش الحاضرون من جنسيات وطبقات مختلفة ، بعضهم معممون بالعمامة المصرية المعروفة بينما تزينت رؤوس بعضهم بالقاووق التركى ورءوس البعض الآخر بالطرطور ، بحجم قمع السكر ، ومعظم الدراويش من المصريين والأتراك والفرس ، وتشارك النساء فى هذه الاحتفالات ، كذلك الغوازى والعوالم(١٩٩) .

أما عن ليلة الأسراء والمعراج ، فيحتفل بها المصريون فى اليوم السادس والعشرين من رجب حيث تقام حلقات الذكر ، ويحتفل به دراويش السعدية(٢٠٠) .

كما يحتفل المصريون بليلة النصف من شعبان التى يوليها المصريون أهمية كبيرة ، أما شهر رمضان فيلتزم المصريون فيه بالصيام وهم « مخلصون فى هذا

الالتزام » على نحو ما لاحظت صوفيا لين ، ولكن يجلس البعض منهم عاطلا ممسكا بعصا أو مسبحة ، وقد وجدت صوفيا أن الصيام لا يساعد على تهذيب حدة طباع المصريين وعللت ذلك بأنه عند انطلاق مدفع الأفطار يهللون ويسارعون بتناول الطعام(٢٠١) ، وربما يرجع هذا التعليق من صوفيا إلى عدم درايتها بأنهم مأمورون بالتعجيل بالأفطار.

أما بيرتون فقد أطلق على شهر رمضان بأنه شهر البر ، أيامه كلها بهجة ، تنطلق المدافع من القلعة تعلت بدايته ، ثم عقد مقارنة فى غير محلها عندما ذكر أن البهجة التى تغمر المصريين أثناء هذا الشهر تشبه احتفالات الرومان وسعادتهم بها(٢٠٢)، أما ادوارد لين فقد أعجب بفرحة المصريين لهذا الشهر ، فهم يحتفلون برؤية الهلال ، ويخرج الناس إلى الصحراء حيث الهواء النقى ، ويبدأ الصوم فى اليوم التالى لرؤيته وينطلق المحتسب وشيوخ الحرف والتجار ، والخبازون والطحانون والجزارون وبائعوا اللحم وفرق الموسيقى ، ويرأس هذا الموكب الجنود ويتجه إلى محكمة القاضى ، منتظرين عودة أحد الأشخاص بالرؤية ، ويضم الموكب طائفة من الجياد المغطاة اسرجتها جميلة الشكل ، ويتقدم حاملوا المشاعل كل مجموعة من الجنود ، كما يسيرون خلفهم لإنارة الطريق لهم عند عودتهم ، ويتبعهم المشايخ ويهتف الفقراء بركة بركة ، وإذا ثبتت الرؤية تضاء الجوامع ، وأثناء النهار تبدو شوارع القاهرة كثيبة تغلق معظم المحلات ثم تفتح أبوابها بعد الظهر ، ومن التعليقات التى أوردها لين أن المصريين نهاراً يبدو عليهم بأنهم « نكدى المزاج » ولكنهم ليلا وبعد الأفطار يتحولون إلى ودودين محبين ، هذا وقد اعتاد بعض الأتراك وغيرهم فى رمضان أن يعرضوا بضائعهم فى جامع الحسين فى فترة بعد الظهر بعد الصلاة ويعرفون بالنحفجية(٢٠٣) ، ومن العادات الشائعة أن نساء اطبقة المتوسطة اعتدن وضع قطعة معدنية صغيرة تساوى قرشا فى قطعة من الورق يقمن برميها إلى المسحر بعد أن يضرمن النيران فيها حتى يرى مكان وقوعها فيتلو حسب رغبتعن سورة الفاتحة وأحيانا قصة قصيرة غير موزونة القافية ليسليها كقصة الضرتين وشجارهما وأحيانا يتلو قصصا بعيدة عن اللياقة والاحترام(٢٠٣).

كما يحتفل المصريون بالمولد النبوى ، وتتحول الأزبكية فى هذا اليوم إلى ميدان كبير للاحتفال ويقام المولد فيها ، حيث تنصب الخيام خيمة كبيرة وتعرف بالصواوين للدراويش الذين يحتفلون بهذه المناسبة ، وتقام حلقات الذكر ، وتنتشر المصابيح فى المنطقة على شكل ورود وأسود ، ويستمر الاحتفال فى ليلة الثانى عشرة من شهر ربيع الثانى ، وينتهز الشعراء والرواة هذه المناسبة لكى ينشدوا قصص أبو زيد وغيرها ، كما يقوم الغجر بالرقص على الحبال[٢٠٤]،هذا ويقام احتفال الدوسة كل عام أثناء الاحتفال بالمولد النبوى ، فيخرج الدراويش فى هذا العام ولا سيما دراويش السعدية ، وقد اتوا من مناطق مختلفة من العاصمة ويحمل أعضاء كل منطقة علمين خاصين بهم ، ويركب الشيخ حصانا معتدل الطول والوزن ، ويدخل الشيخ بركة الأزبكية يسبقه موكب كبير من الدراويش وهو رئيسهم ويتوقف الموكب ثم يسير الركب على ظهور رفاقهم بينما يضرب بعضهم الباز ، وهى طبلة صغيرة ، وقد يتردد الحصان فى الدوس على ظهر الرجال ، ولكنه سرعان ما يواصل سيره وسط تهليل الجموع الحاشدة ، وقد يصاب البعض بإصابات بالغة ، وبعد أن ينتهى الشيخ من الدراسة ، تتوجه الجموع إلى منزل الشيخ البكرى حيث يبدأون حلقات الذكر ، ومن عادات بعض أتباع السعدية فى هذه المناسبة أنه فور الإنتهاء من الدوسة يقوم البعض منهم بأكل الثعابين الحية والعقارب أمام نخبة من الناس[٢٠٥] .

وجدير بالذكر أن احتفال الدوسة لقى اهتماما من الرحالة الفرنسيين أيضًا ، ولا سيما جيرار دى نرفال والكونت جوبينو وقدما وصفا يماثل ما ذكره لين[٢٠٦] .

هذا وهناك احتفالات خاصة بآل البيت مثل الاحتفال بمولد الحسين فى الرابع عشر والخامس عشر من شهر ربيع الثانى وفيه يحتشد الدراويش على شكل مربع ويتدافع الناس إلى المسجد حيث تم قراءة القرآن ، ويقوم الدراويش العيساوية ومعظمهم من المغاربة ، وينسبون إلى سيدى محمد بن عيسى بأداء الأذكار والرقص، ويأكلون الزجاج والنار ، ومن أشهر شخصياتهم الحاج محمد الصلاوى ، وهو أحد أبرز أكلى النار ، وقد ذاع صيته ، وكان يضئ الأنوار فى جامع الحسين ثم

يقفز فوق عارضات الخشب الطويلة الممتدة عبر القناطر فوق عواميد الجامع المرتفعة ست عشرة قدم من الأرض[٢٠٧] .

هذا ولم يهتم الرحالة بتسجيل الاحتفالات المقامة لآل البيت فى القاهرة فحسب ، وإنما اهتموا بتسجيل الاحتفالات الخاصة بالأولياء فى المدن المصرية المختلفة ، ولا سيما أبى الحجاج فى الأقصر . وقد شاهدت اميليا ادواردز موكبا كبيرا يحمل فيه الناس على اكتافهم كسوة جديدة لضريح الشيخ ، ولروعة المشهد كتبت أنه قبل أن الموكب ينبعث من المرنك إلى الأقصر ، وتذكرت احتفالات الفراعنة التى تتسم بالفخامة والعظمة ، وقارنت بين الأمس واليوم حيث تقام الاحتفالات وسط الأتربة[٢٠٨] .

أما عن الأعياد الإسلامية ففى عيد الفطر يحرص المسلمون على دفع زكاة الفطر ، وهى تقدر بقرش ونصف قرش عن كل فرد من أفراد الأسرة بما فيهم العبيد[٢٠٩] .

ويتم الاحتفال بعيد الفطر لمدة ثلاثة أيام ، ويرتدى الناس ملابس جديدة ، حتى الطبقات الدنيا يحرصون على هذا التليد ، كما يتم تبادل الزيارات ، ويقدم الملابس للخدم والعبيد ، ويحرص المصريون فى أول أيام الفطرعلى أكل الفسيخ والفطير والشريك ، أما فى عيد الأضحى فهم يحرصون على أكل اللحوم ، ولذلك تنفق الخرفان والجواميس المخصصة للتضحية على العاصمة ولا بد من زيارة المقابر فى الأعياد[٢١٠] .

خروج المحمل :

يتم إرسال كسوة الكعبة مع قافلة الحاج بعد يومين أو ثلاث من عيد الفطر حيث تم تصنيعها على حساب السلطان وتكون مصنوعة من الحرير الأسود المطرز المقصب ، تنقش عليه آيات قرآنية[٢١١] ، وقد لفت نظر الرحالة الفرنسى جيرار دى نرفال روح التسامح، تسود فى مصر حيث يشارك المسيحيون فى هذا

الاحتفال(٢١٢).يجمع النساء والأطفال والفلاحون لرؤية خروج المحمل وموكبه وقد استاءت اميليا ادواردز من وجود أعداد كبيرة من المتسولين فى هذه المناسبة(٢١٣)، ويتجمع الناس فى قرة ميدان ، والرميلة تحت القلعة حيث ينطلق مدفع الميدان المخصص لإطلاق الإشارات المعلنة عن رحيل القافلة ، وتبعته فرقتان من فرق الخيالة من الأتراك غير النظامية رتبة دلى وطوفكجى ، ويبلغ عددهم نحو خمسمائة رجل فى ثياب رثة وكأنهم من قطاع الطرق ، ويسير عدد من الرجال على ظهور الجمال، ويضرب واحد منهم النقارة المربوطة إلى الجزء الأمامى من السرج ، ويتبع الموكب مجموعة من الجمال لا تحمل أى راكب على ظهرها وتغطى الجمال بالحناء ، ويوضع عليها عدد من سعف النخيل ، ويسير الدروايش فى هذا الموكب وثم ينادون عرفات ، ثم يتبعهم الجمال تحمل سعف الخيل وأحيانا الأجراس ، ثم تخترواان أمير الحج مغطى بقماش أحمر يحمله جملان مزينان ثم دليل الج والجمال وفرق الدروشويليهم خمسين فردا من منزل الباشا متانقين راكبين الجمال ، تلحقهم عدد من القواد حاملين أسلحتهم ، ثم رئيس الدلاة مع جنوده تبعهم ضباط مرتدين قفاصين من القماش الذهبى بينهم الوالى مع قواده ، ثم أمير الحج ، وثلاث كتاب وفرق من الخيالة المغاربة وثلاثة مبلغين فى عباءات بيضاء مطرزة كالذهب ، ثم فرق من الهجانة والكناسين والسعاة ووسط كل هؤلاء أئمة المذاهب الأربعة يتبعهم الدراويش(٢١٤) الذين يقرعون الطبول وتم ترديد الهتافات العالية ويسير اتباع الطرق الصوفية خاصة الرفاعية والأحمدية والأبراهيمية براياتهم الحمراء والخضراء(٢١٥)، كذلك يسير التجار والمشايخ فى الموكب ، ويندفع سكان القاهرة يلمسون المحمل للحصول على البركة ، أما عن خط سير المحمل فيبقى فى سهل الحصوة شمال العاصمة ، ثم يتابع تقدمه إلى بركة الحج التى تبعد أحد عشر ميلا من العاصمة حيث تبقى لمدة يومين ، وتستغرق الرحلة إلى مكة سبعة وثلاثين يوما فى الصحارى، وينطلق المحمل فى الليل بعد الغروب ، ويفضل الحجاج الأتراك أو السويس أو البحر الأحمر(٢١٦).

وبعد أداء الفريضة تستعد القاهرة لاتقبال القافلة العائدة من الأراضى

الحجازية، فهى شهر صفر يتم الاحتفال بوصولها ، وتم استقبالها عند نزلة الحج ، وقد يصل بعض الحجاج العائدين عن طريق البحر الأحمر قبل القافلة نفسها . كما تصل قافلة الحجاج التجارية متأخرة عن طاقم الحجاج ، ويسبق شاويش الحج القافلة بأربعة أو خمسة أيام بصحبه اعرابين على ظهور الجمال ليعلنوا أقرب وصول الحجاج، وفى نهار وصولهم إلى العاصمة يتم أحضار رسائلهم إلى أصدقائهم ، ويجوب زميليه الشوارع منادين « بارك على الرسول » فيجيبه المارة ، ثم يتوجهون إلى القلعة مباشرة لنقل الخبر إل الباشا وأحيانا يخرج بعض الأشخاص فى رحلة تستمر يومين أو ثلاثة أيام للقاء اصدقائهم الحجاج حاملين معهم الفاكهة الطازجة وغيرها من المأكولات والشباب لاستقبال الحجاج حتى الفقراء وأبناء الطبقة الدنيا يذهبون إلى بركة الحج لمقابلة أصدقائهم ويصطحب البعض منهم فرقة موسيقية لتكريم القادمين(٢١٧) .

أعطى لين وصفا لأشهر محفات الجمال منها الجمل المسطح أو المسطح وهو يشبه خيمة مربعة صغيرة ويشتمل على صندوقين طويلين ، يتميز الواحد منهما يظهر جمال ، ويتم وضعهما على جانبى « الجمل ، مثل السلتين الكبيرتين وهو يكفى لحمل شخصين ، أما التختروان فيرفعه حملان يسير أولهما فى المقدمة والثانى فى المؤخرة ويتسع لشخصين خفيفتين الوزن وله مشربية صغيرة(٢١٨) .

ويحمل الحجاج الهدايا من الحجاز أهمها ماء زمزم ، وقطع من كسوة الكعبة، وتراب من قبر الرسول « ﷺ » ولبان وليف من شجر النخل للأغتسال ،ومجموعة من الأمشاط المصنوعة من خشب الالوة والمساوك والكحل والشيلان(٢١٩) .

أما عن أعياد الأقباط فأهمها الغطاس ، الذى يحتفل فيه بعماد المسيح ، ويبادر الرجال والأطفال بالغطس فى الماء ومن الأقوال الشعبية الدراجة أن المسلمين يقولون أنه فى يوم الغطاس بقول الأقباط لبعضهم بعض « أغسطس كما غطس والدك وجدك وامح الإسلام من قلبك » كذلك يحتفل الأقباط بعيد البشارة ، والشعانين ، والقيامة ، وعيد الصليب ، فى سبع عشر من شهر توت فى فترة ارتفاع النيل إلى

أعلى مستوى ، حيث ينادى المنادى على الناس ، ويقدم الفواكه والليمون ، أما ليلة النقطة فهى فى الحادى عشر من شهر بؤنة ، ويعتقد الأقباط بسقوط نقطة عجائية فى النيل مما يسبب ارتفاع منسوب مياهه ، وفى ليلة النقطة تضع النساء فى شرفة المنزل بعد المغيب قطعة من العجين باسم سكان المنزل وتضع علامة فوقها وعند فجر اليوم التالى إذ وجدت مشقوقة فمعناه أن صاحبها ستكون حياته طويلة(٢٢٠) .

اعربت لوسى داف جوردون عن روح التسامح والوئام بين المسلمين والأقباط، فهم يحتفلون سويا بعيد القديس مار جرجس ، ويحرصون على تهنئة بعضهم فى الأعياد الدينية(٢٢١) .

ويعتبر يوم شم النسيم خير مثال على الوحدة الوطنية ، وله موعد مجدد وقت التقويم القبطى ويعرف يوم الأربعاء الذى يسبقه بأربعاء أيوب حيث يغتسل فيه الناس بالماء البارد ويفركون أنفسهم بنبات يعرف برعرع أيوب أو الغبيرة ، وهما نوعان من النبات يعتقدون أنهما كانا السبب فى شفاء أيوب ، وهذه التقاليد تشمل المسيحيين والمسلمين أيضاً ، وفى هذه المناسبة يأكل الناس البيض المصبوغ بمختلف الألوان ، ويعدون نهار يوم الجمعة طبق الخلطة المكون من الكشك ، والفول النابت والعدس والأرز والبصل(٢٢٢) .

ويحتفل المصريون بوفاء النيل ويخصص فى هذا اليوم مناد ينادى بارتفاع النيل فى الشوارع وهو يصيح « ربنا فاض بخيره على الأراضى » فيعطيه الناس قطعة خبز ، وتجرى الاستعدادات لفتح الخليج ويتمتع الناس بالتنزه فى المراكب ويبحرون من بولاق إلى الروضة(٢٢٣) .

وقد انتهزت صوفيا فرصة الحديث عن احتفالات وفاء النيل لتذكر أنواع المراكب المستخدمة فى التنزه والتنقل ، فمنها الخنقة ولها ساريتان وشراعان مثلثا الشكل ومقصورة منخفضة ، وللأتراك مراكب فى غاية الأبهة تزيين أبواب القمرات من الداخل والخارج بباقات الزهور والأعلام(٢٢٤) .

يتضح مما سبق اهتمام الرحالة البريطانيين برصد جميع مظاهر الحياة الاجتماعية فى مصر ولا سيما أدوارد لين وشقيقته .

هوامش الفصل الخامس

(١) بورخ : ص ٣٨٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٨٢ .

(٣) ادوارد وليم لين : مرجع سبق ذكره المصريون المحدثون ، ص٢٨ ، ص٢٩ .

(٤) بورخ : ص٣٨٩ ، ص ٣٩٠ .

(٥) صوفيا لين : مرجع سبق ذكره ، ص ٣٩ .

(٦) بورخ : ص٣٦٥ .

(٧) صوفيا لين : مرجع سبق ذكره ، ص٢٩ .

(٨) بيرتون ، ص١١٤ .

(٩) Wilson , R : op. cit., P. 44 .

(١٠) ادوارد وليم لين : مرجع سبق ذكره ، ص٢٨ .

(١١) أحمد عصام الدين : حركة لترجمة فى مصر فى القرن العشرين ـ القاهرة ١٩٨٦ ، ص ١٩ .

(١٢) بيرتون : مرجع سبق ذكره ، ص ٦٧ .

(١٣) صوفيا لين : مرجع سبق ذكره ، ص ٣٩ .

(١٤) ادوارد لين : مرجع سبق ذكره ، ص ٤٩٨ .

(١٥) مرجع سبق ذكره ، المصريون المحدثون ، ص ٢٩ .

(١٦) المرجع السابق ، ص ٣٢ ، ص ٣٦ .

(١٧) ثروت عكاشة : مرجع سبق ذكره جـ٢ ، ص ٣٧٥ .

(١٨) المرجع السابق ، ص ٣٧٩

(١٩) Edwards , A : op. cit., vol. 2 P. 250 .

(٢٠) بورخ : ص ٣٨٦ .

(٢١) De Montule : PP. 129 - 130

(٢٢) أدريس أفندى ، ص٦٢ .

(٢٣) بورخ : ص٣٦٦ .

(٢٤) بيرتون : مرجع سبق ذكره ، ص٦١ ، ص٦٧ .

(٢٥) بورخ : ص ٣٩٠ ، ص٣٩١ .

(٢٦) الهام ذهني : مرجع سبق ذكره ١٩ ، ص٣٥١ ، ص٣٥٣ .

(٢٧) ادوارد لين : مرجع سبق ذكره ، ص٥٤٦ .

(٢٨) Edwards, A : op. cit., P. 231 .

(٢٩) بيرتون : مرجع سبق ذكره ، ص٨١ ، ص١١٢ .

(٣٠) ادوارد لين : مرجع سبق ذكره ، ص٣٩٨ .

(٣١) المرجع السابق : ص٣٩٩ .

(٣٢) المرجع السابق : عادات ، ص٥٤٨ .

(٣٣) الهام ذهني : مرجع سبق ذكره ١٨ ، ص٢٧٩ .

(٣٤) ثروت عكاشة : مرجع سبق ذكره ، ص٣٧٥ .

(٣٥) المرجع السابق : ص٣٧٥ .

(٣٦) بورخ : ص٣٨٧ .

(٣٧) ادوارد لين : مرجع سبق ذكره ، ص٥٥٦ .

(٣٨) المرجع السابق : ص٥٥١ .

(٣٩) المرجع السابق : ص٥٥٢ .

(٤٠) المرجع السابق : ص٥٤٨ .

(٤١) بورخ : ص٣٨٧ .

(٤٢) ادوارد لين : مرجع سبق ذكره ، المصريون ، ص٤٢٠ .

(٤٣) De Busiere, R : Lettres sur L'orient Paris 1827 T2 P. 50 .

(٤٤) ادوارد لين : مرجع سبق ذكره المصريون ، ص ٤٢ .

(٤٥) المرجع السابق : ص ٤٢٢ ، ص٤٢٤ .

(٤٦) بورخ : ص٥٤٥ ، ص ٥٥٤ .

(٤٧) المرجع السابق : ص ٥٥٥ .

(٤٨) كلوت بك : لمحة عامة عن مصر ، القاهرة ، ص٥٣٢ .

(٤٩) ثروت عكاشة : مرجع سبق ذكره ص٢١٩ .

(٥٠) بورغ : ص٥٥٦ .

(٥١) Ca dalvene , op. cit., P. 270 .

(٥٢) كلوت بك : مرجع سبق ذكره ، ط١ ، ص٦٣٣ .

(٥٣) الهام ذهنى : المرأة المصرية فى كتابات الرحالة الأوروبيين فى القرن التاسع عشر ، مجلة كلية الدراسات الإنسانية ، الأزهر ٢٠٠١ ، ص١١٧ .

(٥٤) جيرار دى نرفال : رحلة إلى الشرق ، القاهرة ١٩٨٨ ،جـ٤ ، ص٢ .

(٥٥) ادوارد لين : مرجع سبق ذكره عادات ص١٠٣ ، ص١٠٤ .

(٥٦) ثروت عكاشة : مرجع سبق ذكره ، ص٣١٨ .

(٥٧) إدريس أفندى : مرجع سبق ذكره ، ص٤٠ .

(٥٨) Ampere : op. cit., P. 2 .

(٥٩) ثروت عكاشة : مرجع سبق ذكره ، ص٣١٨ .

(٦٠) ادوارد لين : مرجع سبق ذكره عادات ، ص٤٨ ، ص٤٩ .

(٦١) صوفيا لين : مرجع سبق ذكره ، ص٦١ .

(٦٢) كلوت بك :

(٦٣) صوفيا لين : مرجع سبق ذكره ، ص٦١ .

(٦٤) محافظ الأبحاث محفظة ١٢٧ عابدين ملف متفرقات ٩ رمضان ١٢٦٩هـ .

(٦٥) صوفيا لين : مرجع سبق ذكره ، ص٣٢٢ .

(٦٦) الجبرتى : مصدر سبق ذكره ، جـ٣ ، ص٤٣٧ .

(٦٧) محافظ الأبحاث : محفظة رقم ١٢٤ عابدين ترجمة الوثيقة التركية رقم ٢٩ ذى الحجة ١٢٦٦هـ .

(٦٨) محفظة ١٢٥ عابدين متفرقات من كلين هانم إلى الجناب العالى عباس حلمى ١٧ جمادى الأول ١٢٦٧هـ.

(٦٩) محفظة ١٢٧ عابدين ملف متفرقات الوثيقة التركية ١٩ ربيع الأول ١٢٦٨هـ من كلين ٢١ عباس الأول .

(٧٠) الهام ذهني : مرجع سبق ذكره المرأة ، ص١٢٥ ، ص١٢٦ .

(٧١) صوفيا لين : مرجع سبق ذكره ، ص١٧١ .

(٧٢) المرجع السابق : ص ٢٨٢ _ ٢٩١ .

(٧٣) المرجع السابق : ص٣٧١ .

(٧٤) المرجع السابق : ص١٦٩ .

(١٧٥) بيرتون : مرجع سبق ذكره ، ص١١٢ .

(٧٦) الهام ذهني : مرجع سبق ذكره المرأة ، ص١٢٥ .

(٧٧) صوفيا لين : مرجع سبق ذكره ، ص٢٩١ .

(٧٨) الهام ذهني : مرجع سبق ذكره ، ص١٢٥ .

(٧٩) ادوارد وليم لين : مرجع سبق ذكره ، ص١٩٥ .

(٨٠) المرجع السابق : ص٥٢٩ .

(٨١) ثروت عكاشة : مرجع سبق ذكره ، ص٣٧٦ .

(٨٢) Edwards , A : op. cit., P. 241 .

(٨٣) ثروت عكاشة : مرجع سبق ذكره ، ص٣٧٥ .

(٨٤) Poitou : op. cit., P. 475 .

(٨٥) ادوارد لين : مرجع سبق ذكره ، ص١٤٥ .

(٨٦) المرجع السابق : ص ١٩٨ .

(٨٧) ثروت عكاشة : مرجع سبق ذكره ، ص٢٦٤ .

(٨٨) ادوارد لين : مرجع سبق ذكره ، ص٢٩٠ .

(٨٩) المرجع السابق : ص٣٩١ .

(٩٠) بيرتون : مرجع سبق ذكره ، ص٦٣ .

(٩١) المرجع السابق : ص٦١ .

(٩٢) صوفيا لين : مرجع سبق ذكره ، ص١٤٨ .

(٩٣) المرجع السابق : ص١٤٨ .

(٩٤) ادوارد وليم لين : مرجع سبق ذكره ، ص٣٥ .

(٩٥) صوفيا لين : مرجع سبق ذكره ، ص١٧٤ .

(٩٦) ادوارد وليم لين : مرجع سبق ذكره ، ص٥٩ .

(٩٧) المرجع السابق : ص٥٣ ، ص٥٩ .

(٩٨) المرجع السابق ، ص٥٩ .

(٩٩) صوفيا لين : مرجع سبق ذكره ، ص١٧٤ .

(١٠٠) ادوارد وليم لين : مرجع سبق ذكره ، ص٥٣ .

(١٠١) صوفيا لين : مرجع سبق ذكره ، ص١٧٤ .

(١٠٢) المرجع السابق ، ص١٧٤ .

(١٠٣) Fromention : op. cit., P. 22 .

(١٠٤) ادوارد وليم لين : مرجع سبق ذكره ، ص٥٤ .

(١٠٥) المرجع السابق : ص٥٦.

(١٠٦) صوفيا لين : مرجع سبق ذكره ، ص١٤٨ .

(١٠٧) ادوارد وليم لين : مرجع سبق ذكره ، ص٦١ .

(١٠٨) المرجع السابق : ص٦٣ .

(١٠٩) المرجع السابق : ص٥٥ .

(١١٠) صوفيا لين : مرجع سبق ذكره ، ص١٣١ .

(١١١) المرجع السابق : ص١٧٥ .

(١١٢) ادوارد وليم لين : مرجع سبق ذكره ، ص٥٨ .

(١١٣) Gerard : op. cit., P. 118 .

(١١٤) ادوارد وليم لين : مرجع سبق ذكره ، ص٥٧٥ .

(١١٥) المرجع السابق : ص٥٨٥ .

(١١٦) المرجع السابق : ص٥٨٣ .

(١١٧) صوفيا لين : مرجع سبق ذكره ، ص١٣٢ .

(١١٨) ادوارد وليم لين : مرجع سبق ذكره ، ص٥٢ ، ص٥٣ .

(١١٩) Blanc : op. cit., P. 34 .

(١٢٠) ادوارد وليم لين : مرجع سبق ذكره ، ص١٦٢ .

(١٢١) صوفيا لين : مرجع سبق ذكره ، ص١٤٢ .

(١٢٢) المرجع السابق : ص١٣٣ .

(١٢٣) المرجع السابق : ص١٤٣ .

(١٢٤) ادوارد وليم لين : مرجع سبق ذكره ص١٦٤ .

(١٢٥) المرجع السابق : ص١٦٤ .

(١٢٦) Blanc : op. cit., P. 34 .

(١٢٧) About : op. cit., P. 118 .

(١٢٨) إدريس أفندى : مرجع سبق ذكره ص٤ .

(١٢٩) ادوارد وليم لين : مرجع سبق ذكره ، ص١٠٢ .

(١٣٠) ثروت عكاشة : مرجع سبق ذكره ، ص٢١٩ .

(١٣١) صوفيا لين : مرجع سبق ذكره ، ص١٤٠ .

(١٣٢) ثروت عكاشة : مرجع سبق ذكره ، ص٣٧٩ .

(١٣٣) ادوارد وليم لين : مرجع سبق ذكره ، ص١٦٥ ، ص١٦٦ .

(١٣٤) صوفيا لين : مرجع سبق ذكره ، ص١٤٨.

(١٣٥) ادوارد وليم لين : مرجع سبق ذكره ، ص١٦٧ .

(١٣٦) المرجع السابق : ص١٦٣ .

(١٣٧) صوفيا لين : مرجع سبق ذكره ، ص١٤٨ .

(١٣٨) ادوارد وليم لين : مرجع سبق ذكره ، ص١٧٠ .

(١٣٩) المرجع السابق : ص ١٦٣ .

(١٤٠) المرجع السابق ص١٧٤ .

(١٤١) ثروت عكاشة : مرجع سبق ذكره ، ص٣٧٣ .

(١٤٢) عبد الرحمن الجبرتى : جـ١ ، ص ٤٣٧ ، ص٤٣٨ .

(١٤٣) صوفيا لين : مرجع سبق ذكره . ص ٢٨٣ .

(١٤٤) المرجع السابق : ص٢٨٥ ، ص٢٨٧ .

(١٤٥) المرجع السابق

(١٤٦) المرجع السابق : ص [illegible]

(١٤٧) ادوارد وليم لين : مرجع سبق ذكره ، ص٥٦ .

(١٤٨) ثروت عكاشة : مرجع سبق ذكره ، ص٣٧٥ .

(١٤٩) صوفيا لين : مرجع سبق ذكره ، ص١٧٨ .

(١٥٠) ادوارد وليم لين : مرجع سبق ذكره ، ص١٤٠ .

(١٥١) صوفيا لين : مرجع سبق ذكره ، ص١٦٩ .

(١٥٢) المرجع السابق : ص١٣٠ ،

(١٥٣) المرجع السابق : ص ١٧٨ .

(١٥٤) نرفال ص٣٠ وانظر : Slolcher P. 162 .

(١٥٥) Montule :P. 151 .

(١٥٦) ادوارد لين : ص١٦١ .

(١٥٧) جيرارى نرفال ، ص٣١.

(١٥٨) صوفيا لين : ص٣٠ .

(١٥٩) جيرارى نرفال ، ص٣١ .

(١٦٠) إدارد وليم لين : مرجع سبق ذكره ، ص١٩٥ .

(١٦١) صوفيا لين : ص١٩٣ ، ص١٩٦ .

(١٦٢) المرجع السابق : ص٢٤٥ .

(١٦٣) ادوارد وليم لين : مرجع سبق ذكره ، ص٥٦٣ .

(١٦٤) المرجع السابق : ص٥٦٥ .

(١٦٥) المرجع السابق : ص٥٦٥ .

(١٦٦) Wilson : op. cit., P. 25 .

(١٦٧) ثروت عكاشة : مرجع سبق ذكره ، ص٣٨ .

(١٦٨) Wilson : op. cit., PP. 33 - 46 .

(١٦٩) Ibid., P. 46 .

(١٧٠) ثروت عكاشة : مرجع سبق ذكره ، ص٣٨ .

(١٧١) Wilson : op. cit., P. 24 .

(١٧٢) بورخ : ص٣٦٤ .

(١٧٣) Wilson : op. cit., P. 117 .

(١٧٤) صوفيا لين : مرجع سبق ذكره ، ص١٣٩ .

(١٧٥) Wilson : op. cit., P. 24 .

(١٧٦) Ibid : op. cit., P. 82 .

(١٧٧) صوفيا لين : مرجع سبق ذكره ، ص ١٣٩ ، ص ٢٤٣ .

(١٧٨) Wilson : op. cit., P. 27 .

(١٧٩) صوفيا لين : مرجع سبق ذكره ، ص٥٨ .

(١٨٠) المرجع السابق : ص٧٣ .

(١٨١) بورخ : ص٥٩١ ، ص٥٩٢ .

(١٨٢) صوفيا لين : مرجع سبق ذكره ، ص١٥٤ .

(١٨٣) بيرتون : مرجع سبق ذكره ، ص٦١ .

(١٨٤) المرجع السابق : ص٥٨ .

(١٨٥) Wilson : op. cit., P. 65 .

(١٨٦) صوفيا لين : مرجع سبق ذكره ، ص٧٣ .

(١٨٧) صوفيا لين : مرجع سبق ذكره ، ص١٥٩ .

(١٨٨) بيرتون : مرجع سبق ذكره ، ص١١٥ .

(١٨٩) المرجع السابق : ص ١٠٤ ، ص ١٠٥ .

(١٩٠) المرجع السابق : ص ١٠٥ .

(١٩١) المرجع السابق : ص ١٠٧ .

(١٩٢) الهام ذهنى : مرجع سبق ذكره ، ص٢٨٢ .

(١٩٣) بورخ : ص٣٩٢ .

(١٩٤) ثروت عكاشة : مرجع سبق ذكره ، ص ٣٨٠ .

(١٩٥) الهام ذهني : مرجع سبق ذكره ١٩ ، ص ٢٧٤ .

(١٩٦) بورنج : ص ٣٩٢ .

(١٩٧) ثروت عكاشة : مرجع سبق ذكره ، ص٣٨٠ .

(١٩٨) الهام ذهني : مرجع سبق ذكره ، ص٢٨٧ ، ص٢٨٨ .

(١٩٩) ادوارد لين : مرجع سبق ذكره ، ص٤٥٠ .

(٢٠٠) المرجع السابق : ص ٤٨٥ .

(٢٠١) صوفيا لين : مرجع سبق ذكره ، ص٧٢ .

(٢٠٢) بيرتون : مرجع سبق ذكره ، ص١٠١ .

(٢٠٣) ادوارد لين : مرجع سبق ذكره ، ص٤٨٨ ، ص٤٨٩ .

(٢٠٤) المرجع السابق : ص٢٠٦ .

(٢٠٥) المرجع السابق : ص٤٧١ ، ص٤٧٢ .

(٢٠٦) الهام ذهني : مرجع سبق ذكره ، ص٢٨٨ .

(٢٠٧) لين : مرجع سبق ذكره ، ص٤٧٦ ، ص٤٧٨ .

(٢٠٨) ثروت عكاشة : مرجع سبق ذكره ، ص٣٧٤ .

(٢٠٩) بيرتون : مرجع سبق ذكره ، ص١٠١ .

(٢١٠) ادوارد وليم لين : مرجع سبق ذكره ، ص٤٩٥ ، ص٥٠٢ .

(٢١١) المرجع السابق : ص٤٩٥ .

(٢١٢) الهام ذهني : مرجع سبق ذكره ، ص٢٨٢ .

(٢١٣) Edwards, A : op. cit., P. 4511 .

(٢١٤) ادوارد وليم لين : مرجع سبق ذكره ، ص٤٩٩ ، ص٥٠٢ .

(٢١٥) صوفيا لين : مرجع سبق ذكره ، ص٧٩ .

(٢١٦) ادوارد وليم لين : مرجع سبق ذكره ، ص٤٥٢ ، ص٤٥٤ .

(٢١٧) المرجع السابق : ص٤٥٤ .

(٢١٨) المرجع السابق : ص د٤٥ .

(٢١٩) المرجع السابق : ص٤٥٥ .

(٢٢٠) المرجع السابق : ص٤٥٦ .

(٢٢١) ثروت عكاشة : مرجع سبق ذكره ، ص٢٧٦ .

(٢٢٢) المرجع السابق : ص٥٠٣ .

(٢٢٣) المرجع السابق : ص٥١١ ، ص٥١٢ .

(٢٢٤) صوفيا لين : مرجع سبق ذكره ، ص٥٦ ، ص٥٨ .

الخاتمـة

يتضح مما سبق تزايد توافد الرحالة البريطانيين إلى مصر فى القرن التاسع عشر ، مما كان له آثاره الإيجابية فأحدثت مؤلفاتهم ضجة كبيرة فى بريطانيا وأوروبا ، رغم أن أعدادهم لم تصل إلى أعداد زملائهم الفرنسيين . ويمكننا القول أننا لا نجد أمة أوروبية باستثناء فرنسا وبريطانيا حرص أبناؤها على الانتظام فى زيارة مصر والكتابة عنها .

تنوعت وظائف الرحالة البريطانيين فنجد من بينهم المستشرق مثل ادوارد وليم لين ، وعالم الآثار مثل جاردنر ، والسياسى مثل بورنج ، والأديب مثل ثاكرى ، إلى جانب أعداد من المصورين والرسامين نذكر من بينهم جون جرين ، ودافيد روبرتس، ويمكن أن نلمس هذا التنوع أيضًا لدى الفرنسيين ، فنجد من بينهم الآثريون مثل ريفو ، وشامبليون ، ونستورلوت وبريس دافرين ، والرسامون مثل نرسيس برشار ، والفنانون مثل شارل بلان ، والأدباء مثل ادمون ابو ، وتيوفيل جوتييه ، والمستشرقون مثل جيرار دى نرفال .

إذا عقدنا مقارنة بين الرحالة البريطانيات والفرنسيات لرجحت كفة البريطانيات، فقد تفوقن فى رصد طبقات المجتمع المصرى ، وفى الحديث عن الآثار المصرية ، وخير مثال لدينا صوفيا لين ومحاولاتها الناجحة لرصد طبقة الحريم والكتابة عن الحياة الاجتماعية ، بينما تفوقت اميليا ادواردز فى الحديث عن الآثار المصرية ، أما الفرنسيات فقد اتسمت مؤلفاتهن بالمبالغة ، ونقل الروايات المشكوك فيها ولا سيما مدام أولمب ، وراشيل ، والكونتيسة دى روبرسا ، كذلك يلاحظ أن الفرنسيات انحدرن من الطبقة الارستقراطية ، بينما انحدرت البريطانيات من طبقات متنوعة ولكن أغلبها الطبقة الوسطى نذكر منهم الممرضة فلورانس نابتنجيل ، وصوفيا لين ، وهاريت مارتينو .

رصد الرحالة البريطانيون أحوال مصر السياسية ، حرض البعض منهم حكومة بلاده على احتلالها نذكر منهم وور بيرتون الذى دعا لاتخاذ مصر قاعدة للأطماع البريطانية فى الهند ، كما حث ريتشارد بيرتون فى مؤلفاته على احتلال مصر .

هذا التحريض لغزو مصر يذكرنا بما دونه الرحالة الفرنسيون قبل مجيء الحملة الفرنسية ، وقد امتد بعد رحيلها أيضاً فى القرن التاسع عشر ، فنجد من بينهم من يطالب بإعادة النفوذ الفرنسى ، وإقامة مستعمرة بالانفقات فى مصر .

اهتم الرحالة البريطانيون بالحديث عن محمد على وأسرته فألقوا الضوء على طموحاته السياسية ، وامبراطوريته التى أراد أقامتها فى الحجاز ، وفى السودان ، والشام، ولكن بمقارنة ما دونوه نلاحظ بأنه لم يكن فى مستوى أسهاب الرحالة الفرنسيين واهتمامهم بالتفاصيل الدقيقة لتلك الحملات ، ولكن يمكن تعليل ذلك بأن أعدادا كبيرة من الرحالة الفرنسيين عملوا فى خدمة محمد على ، واستقروا فى مصر فكانوا قريبين من موقع الأحداث نذكر من بينهم كادلفين الذى قدم وصفا لاستعدادات محمد على لإرسال حملة الحجاز ، كما قدم كايو وصفا لحملات محمد على فى شمال السودان ، بينما اعطانا دى لاتور وصفا لمملكة الفور فى غرب السودان .

لقيت أحوال مصر الاقتصادية اهتماما كبيرا من الرحالة البريطانيين ، ويعتبر بورنج أدق من دون عنها ، ولا سيما تقريره عن الزراعة وأهم الغلات فى مصر ، كذلك قدم وصفا لأهم معامل الغزل والنسيج ، وصناعة الحرير والنيلة ، بينما لقيت تجارة مصر اهتماما كبيرا من بيرتون فألقى الضوء فى كتاباته عن أهمية طريق البحر الأحمر والحجاز التجارى . هذا الاهتمام بأحوال مصر الاقتصادية ، يمكن أن نلمسه أيضًا لدى الرحالة الفرنسيين ولا سيما شولشيه ، وكادلفين وادمون ابو ، وهذا الاهتمام من جانب رحالة الدولتين يعكس تنافسهما للانقضاض على مصر ، ولكن تجدر الإشارة أن الاهتمام بأوضاع مصر الاقتصادية ترتكز فى عصر محمد على فى مؤلفات البريطانيين ، بينما غطت مؤلفات الفرنسيين عصر محمد على وخلفائه وذلك لتغلغل نفوذهم فى مختلف المجالات .

أما عن الحياة الاجتماعية فقد احدثت مؤلفات الفريقين ضجة كبيرة فلا يمكن أن نغفل ما سجله ادوارد لين ، وشقيقته صوفيا لين عن حريم مصر ، والطبقات الاجتماعية المختلفة ، ولكن من الإنصاف أن نذكر أن مؤلفات جيرار دى نرفال ومقالاته عن حريم القاهرة ، وعبيد القاهرة ، واحتفالات القاهرة فى الصحف

الفرنسية ولا سيما مجلة العالمين ، قد الهبت خيال الفرنسيين عن مصر .

وفى مجال الآثار تفوق شامبيليون بدراسته عن المعابد الواقعة بين الشلالين الأول والثانى ، كذلك ذاعت شهرة ماريت ومؤلفاته عن الحضارة المصرية ويكتفى أن شامبيلون نجح فى حل لغز الكتابة الهيروغليفية فلم تعد آثار مصر مجهولة . ولكن هذا لم يمنع من وقوع الفرنسيين فى بعض الأخطاء ، وفى الوقت نفسه لا يمكن أن نغفل دور البريطانيين ولا سيما ويلكنسون ، الذى اكتشف أجمل مقابر طيبة ، كذلك يعتبر مؤلفه أول تنقيح لما ورد فى وصف مصر لعلماء الحملة الفرنسية ، ويمكننا القول أن الولع والشغف بالآثار المصرية القديمة والآثار الإسلامية أصاب الأمتين الفرنسية والبريطانية .

اهتم الرحالة البريطانيون بالحديث عن أهم المشاريع التى أقيمت فى مصر لخدمة مصالح بريطانيا ولا سيما مشروع سكة حديد القاهرة ـ السويس الذى أقيم لتحقيق سرعة الاتصال فى الوقت الذيركز الرحالة الفرنسيون على المشاريع التى أقيمت لخدمة مصالح فرنسا ولا سيما مشروع قناة السويس بوصل البحرين الأحمر والمتوسط .

لقيت المدن المصرية الجديدة الاهتمام من قبل الرحالة البريطانيين ولا سيما بور سعيد والإسماعيلية ، ولكن هذا الاهتمام لم يمنعهم من تقديم وصف سريع لمدن مصر السفلى والعليا . بينما قدم زملائهم الفرنسيين وصفا تفصيليا لواحات وصحارى وجبال ومدن مصر لأنهم كانوا أسبق فى دراستها ومعرفتها .

تأثر الشعراء والأدباء فى بريطانيا بما دونه الرحالة عن الحضارة المصرية القديمة ففى ميدان الشعر وضع شيلى قصيدته المعروفة اوسيمانديايس مستوحيا الإلهام من رأس تمثال رمسيس الثانى ، وهذا يذكرنا بتأثير الأدباء الفرنسيين بالحضارة المصرية فقد وضع تيوفيل جوتييه رواية كليوباترا ، كذلك الف قصيدة بعنوان قدم مومياء ، وحنين بين مسلتين .

وأخيراً أفادت بريطانيا بكل ما دونه الرحالة لأنهم خلال رحلاتهم التى تمتعوا بها لم يغفلوا مصالح دولتهم الاستعمارية .

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر

- وثائق غير منشورة باللغة العربية :
- محافظ الأبحاث عابدين ١٢٤ ـ ١٢٥ ـ ١٢٦ ـ ١٢٧ .
- وثائق غير منشورة باللغة الأوروبية :ـ

١ ـ الأرشيف النماسوى محفظة ـ ٢٥ يناير ١٨٥١ ـ ٩ أكتوبر ١٨٥٢.

٢ ـ الأرشيف الأمريكى محفظة (١٤) ١٩٤٨/١٠/٢٣ ـ ١٨٦٨/٤/٨ .

٣ ـ الوثائق الأوروبية محفظة ٢٩ يناير ١٨٦٣ ـ ٢٦ يونيو ١٨٨٢ .

٤ ـ Foreign office .

F. O. 78/814 - 816 - 817 - 850 - 851 - 978 - 883 - 884 - 885 - 886 - 890 - 891 - 892 - 922 - 923 - 966 .

78 / 1895 - 1898 - 2040 - 2042 - 2072 - 2077 - 2095 - 2342 .

ثانياً : وثائق منشورة :

Documents Diplomatiques français 1871 - 1900 , 1 Juillet 1874 - 31 Decembre 1875 Paris 1933 .

ثالثاً : المراجع العربية والمعربة :

١ ـ إبراهيم شحاتة : القاهرة .

٢ ـ أحمد الشربينى : تاريخ التجارة المصرية فى عهد الحرية الاقتصادية ١٨٤٠ - ١٩١٤ ، القاهرة ١٩٩٥ .

٣ ـ أحمد عبد الرحيم مصطفى : عصر حككيان ، القاهرة ١٩٩٠ .

٤ ـ أحمد عصام الدين : حركة الترجمة فى مصر فى القرن العشرين ، القاهرة ١٩٨٦ .

٥ ـ إدريس أفندى فى مصر : مذكرات الفنان والمستشرق الفرنسى بريس دافين فى مصر ١٨٠٧ ـ ١٨٧٩ جمعها وترجمها أنور لوقا ، القاهرة ١٩٩١ .

٦ ـ ادوارد وليم لين : عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم مصر ما بين ١٨٣٣ ـ ١٨٣٥ ترجمة سهير دسوم ، القاهرة ١٩٩٣ .

٧ ـ ادوارد لين : المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم فى القرن التاسع عشر ، نقله عدلى طاهر نور ، القاهرة د . ت.

٨ ـ إلهام محمد ذهنى : مصر فى كتابات الرحالة الفرنسيين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، القاهرة ١٩٩١ .

٩ ـ إلهام ذهنى : مصر فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين فى القرن الثامن عشر ، القاهرة ١٩٩٢ .

١٠ ـ إلهام محمد ذهنى : مصر فى كتابات الرحالة الفرنسيين فى القرن التاسع عشر ، القاهرة ١٩٩٤ .

١١ ـ إلهام ذهنى : فرنسا والخليج من منتصف القرن الثامن عشر حتى بدايات القرن العشرين ، القاهرة ١٩٩٣ .

١٢ ـ الهام ذهنى : التراجمة الفرنسيون ومبعوثو الاكاديميات فى اسكالات مصر فى القرن الثامن عشر ، أبحاث المؤتمر الدولى الترجمة ودورها فى تفاعل الحضارات ، كلية الدراسات الإنسانية ، الأزهر .

١٣ ـ إلهام ذهنى : بحوث ودراسات وثائقية فى تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر ، القاهرة ٢٠٠٠ .

١٤ ـ إلهام ذهنى : بلاد الشام فى كتابات الرحالة الفرنسيين ، دار الكتاب الجامعى ٢٠٠٠ .

١٥ ـ الهام ذهنى : المرأة المصرية فى كتابات الرحالة الأوروبيين ، مجلة الدراسات الإنسانية ٢٠٠١ .

١٦ ـ الوريثلانى : نزهة الأنظار فى فضل علم التاريخ والأخبار المشهور بالرحلة

الوريلانية للشيخ العالم الرباني والشريف التوراني الحسيني بن محمد الوريلاني ، القاهرة ١٩٧٤ ، الطبعة الثانية .

١٧ ـ أمين سامي : تقويم النيل في مصر ، عباس الأول ومحمد سعيد باشا ، القاهرة ١٩٣٦ .

١٨ ـ ثروت عكاشة : مصر في عيون الرحالة والفنانين والأدباء (القرن التاسع عشر) ، القاهرة ١٩٨١ ، جـ٢ .

١٩ ـ جلال يحيى : مصر الحديثة ١٨٠٥ ـ ١٨٤٠ د. ت .

٢٠ ـ جمال زكريا : تاريخ الجزيرة العربية مصادر تاريخ الجزيرة العربية . الكتاب الأول ، الرياض ١٣٦٩ .

٢١ ـ جوزيف بتس : رحلة جوزيف بتس (الحاج يوسف) إلى مصر ومكة المكرمة والمدينة المنورة ، ترجمة عبد الرحمن الشيخ ، القاهرة ١٩٩٥ .

٢٢ ـ جيرار دى ترفال : رحلة إلى الشرق ، ترجمة كوثر بحيرى ، القاهرة ١٩٨٤ .

٢٣ ـ ريتشارد بيرتون : رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز ، ترجمة عبد الرحمن عبد الله الشيخ ، القاهرة .

٢٤ ـ شامبليون فى مصر الرسائل والمذكرات ترجمة عماد عدلى ، مرلجعة طاه عبد الحكيم ، القاهرة ١٩٩١ .

٢٥ ـ صوفيا لين بول : حريم محمد على ، رسائل من القاهرة ١٨٤٢ ـ ١٨٤٦ ترجمة د. عزة كرارة ، القاهرة ١٩٩٩ .

٢٦ ـ عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار .

٢٧ ـ عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية وتطوير نظام الحكم فى مصر ، القاهرة ١٩٨٧ ، جـ٢ .

٢٨ ـ عبد الرحمن الرافعى : عصر محمد على ، القاهرة ١٩٨٢ .

٢٩ ـ عبد الرحمن الرافعى : عصر إسماعيل ، القاهرة ١٩٨٢ .

٣٠ ـ عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية ، دولة إسلامية مفترى عليها .

٣١ ـ عبد العزيز نوار : التاريخ الأوروبى المعاصر ، أوروبا من الحروب البروسية إلى الحروب العالمية الثانية ١٨٧١ ـ ١٩٤٥ القاهرة ، ١٩٧٧ .

٣٢ ـ فاروق أباظة : عدن والسياسة البريطانية فى البحر الأحمر ، القاهرة ١٩٧٦ .

٣٣ ـ فاطمة علم الدين : تطور النقل والمواصلات الداخلية فى مصر فى عهد الاحتلال ١٨٨٢ ـ ١٩٨٤ ، القاهرة ١٩٨٩ .

٣٤ ـ فولنى : ثلاثة أعوام فى مصر وبر الشام نقلها إلى العربية ادوارد البستانى ١٩٤٩ .

٣٥ ـ كلوت بك : لمحة عامة إلى مصر ، القاهرة ط١ .

٣٦ ـ ليلى الصباغ : الجاليات الأوروبية فى بلاد الشام فى العهد العثمانى ، بيروت ١٩٨٩ .

٣٧ ـ محمد أمين حسونة : مصر والطرق الحديدية ، القاهرة ١٩٣٨ .

٣٨ ـ محمد أنيس : النشاط الأوروبى بمصر وجيرانها فى آواخر القرن الثامن عشر، المجلة التاريخية المصرية ١٩٤٩ .

٣٩ ـ محمد فهيم : مخصصات الحرمين فى العصر العثمانى ، رسالة ماجستير ، جامعة الأزهر ، كلية اللغة العربية ١٩٩٩ .

٤٠ ـ محمد فؤاد شكرى وآخرون : بناء دولة مصر محمد على السياسة الداخلية ، القاهرة ١٩٤٨ .

٤١ ـ محمد فؤاد شكرى : تاريخ وحدة وادى النيل السياسة فى القرن التاسع عشر ١٨٢٠ ـ ١٨٩٩ ، القاهرة ١٩٥٨ .

٤٢ ـ محمود منسى : قناة السويس بين أتباع السان سيمون وفرديناند دى ليسبس ، القاهرة ١٩٧١ .

٤٣ ـ ميخائيل مشاقة : مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان .

٤٤ - هيلين آن ريفلين : الاقتصادى والإدارة فى مصر فى مستهل القرن التاسع عشر، ترجمة أحمد عزت عبد الكريم ، القاهرة ١٩٦٨ .

٤٥ - يونان لبيب ، محمد مزين : تاريخ العلاقات المغربية منذ مطلع العصور الحديثة حتى ١٩١٢ ، القاهرة ١٩٩٠ .

رابعا : المراجع الأجنبية :

1 - About Edmond : Le F ellah . Paris 1869 .

2 - Ampere , J : Voyage en Egypte en Nubie Paris 1868 .

3 - Antes : A description of the maners .

4 - Baldwin , : Slave trade in Egypt and Alexandria 1790 .

5 - Belzoni : Le jeune voyage en Egypte et Nubie. Paris 1826.

6 - Blanc, Charles : Vagage de la haute Egypte . Paris 1976 .

7 - Brown : Travels in Africa Egypt and London, 1799 .

8 - Bruce m James : Travels to discover the source of the Nile Edinburgh 1805 .

9 - Burton, R : Personal narrative of a pilgrimage to al Madina and Mecca N. Y. 1963 .

10 - Cadalvene , U et J. De Brevery . L'Egypte et la Nubie . Paros 1841 .

11 - Caillaud, F : Vogage a'l'orient et a' L'ocident de la theibaide fait par M. caillaud pendand les annee's 1817 - 1818, Paris .

12 - Carré. Jean : Voyageurs et ecrivains francais en Egypte le Caire 1922 .

13 - Capper, J' Observation on the Passage to india through Egypt London 1783 .

14 - Champollion, Figeac : Egypte Ancienne Paris 1829 .
15 - Cleghorn, H : Cleghorn Papers London, 1825 .
16 - De Bussiere , Renouard : Lettres sur l'orient écrites Pendant les annees 1827 et 1828 Paris 185 t2 .
17 - De forbin, le comte : voyage dans le levant en 1817 et 1818 Paris 1818 .
18 - De Garcy , E : De Paris en Egypte souvenirs de voyage Paris 1875 .
19 - De Gobineau, le conte : trois ans en Asie Paris 1859 .
20 - De Mans : P: le Voyage en Egypte 1547 le Caire 1969 .
21 - De Montulé : Voyage en Amerique en italie, sicilie . et en Egypte pendant les anneés 1816 - 1819 Paris 1821 tl.
22 - De Nerval Gerard : Voyage en Orient Paris 1869 .
23 - De Pardieu, le comte : Execursion en orient l'Egypte, le mont Sinai l'arabie le palestine la syrie, le liban Paris 1851 .
24 - Douin . georges : l'ambassade d' Elfi a Londres - octobre 1903 Bulletin de l'instiut d'Egypte session 1924-1925 .
25 - Duff, Gordon, lady : Letters from Egypt .
26 - Edwards, Amelia : The thousand miles up the nile London 1878 .
27 - El Abssy, Ali Bey : voyage d Ali Bey en Afrique et en Asie pendant les années 1803 - 1805 - 1806 Paris 1814 .
28 - Fromentin , Eugene : Voyage en Egypte Paris 1869 .
29 - Hanotaux, G : Histoire de la nation Egyptienne de 1801 - 1882 Paris 1936 .

30 - Horneman E: The Journal of Horneman travels in 1707 - 1798 London 1808 .

31 - Kinglake , Alexandre : Eothen London 1844 .

32 - Kurzon, R : visits to the monastris of the levant London 184 .

33 - Lane, E William : Description of Egypt. Edited and with inttroduction by Jason thompson . American university. Cairo 2001 .

34 - Lusignan , Ahistory of the Revolt of Ali Bey against the ottoman porte London 1785 .

35 - Madden : travels in turkey Nubia and palestine 1824 , London 1827 .

36 - Marriette Bey , itineraire en Haute Egypte Paris 1872 .

37 - Martinean Harriet : Eastern life present and past London 1849 .

38 - Memoires de Nubar pacha introduction et notes de Mirrit Boutros ghali Beyrout 1983 .

39 - Mengin , Eelix : Histoire de l'Egypte sous le gouvern ement de Mohamed Aly Paris 1923 .

40 - Nightingal , Florence : Letters from Egypt London 1854.

41 - Norden , E : Voyage d'Egypte et de Nubie Paris 1795 .

42 - Olympe , Nadame : Les Mysters de L'Egypte devoilés .

43 - Pocok, R : A description of the east and some Countries London 1763 .

44 - Poitou, Eugéne : Un hiver en Egypte Paris 1860 .

45 - Poole, Sophia : An English Woman in Egypt letters from Cairo Written during a Residence there in 1842 - 1844 London 1844 .

46 - Roux , Charles : les origines de l'expedition d'Egypte Paris 1910 .

47 - Saint Hilaire,B : lettres l'Egypte Paris 1857 .

48 - Saint john , James Augustus : Egypt and Mohamed Aly or travels in the Valley of the nile London 1934 .

49 - Salt , Henry : Twenty four views in Hellena, the cape judia, ceylon, Egypt London 1803 .

40 - Savary : Lettres sur L'Egypte Paris 1783 .

51 - Scholcher, V : L'Egypte en 1845 Paris 1846 .

52 - Sicard , P : Nouveaux memoires des missions de la campagne de Jesus le levant Paris 1722 .

53 - Thakery , W : A journey from com hill to grand Cairo 1846 .

54 - Volkof, oleg : Voyageurs russes en Egypte le Cairo 1972.

55 - Wilkinson, J, Gardner : The Ancint Egyptians London 1837 .

56 - Willian, Bary : Modern Affrica G : B 1972 .

57 - Wilson, Rae willian : travels in Egypt and the holy land London, 1823 .

الأعمال العلمية للمؤلف

أولاً : الكتب :ـ

(١) جهاد المماليك الإسلامية فى غرب أفريقيا ضد الاستعمار الفرنسى ١٨٥٠ ـ ١٩١٤ ، دار المريخ سنة ١٩٨٨ .

(٢) سياسة فرنسا التوسعية فى شرق أفريقيا فى النصف الثانى من القرن ١٩ (مدغشقر ـ جزر القمر ـ الصومال الفرنسى) دار الكتاب الجامعى ١٩٨٧ .

(٣) مصر فى كتابات الرحالة الفرنسيين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مركز وثائق تاريخ مصر المعاصر (مصر النهضة) القاهرة ١٩٩١ .

(٤) مصر فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين فى القرن الثامن عشر ، سلسلة تاريخ المصريين ١٩٩٢ .

(٥) فرنسا والخليج من منتصف القرن الثامن عشر وحتى بدايات القرن العشرين ، دار الزهراء ١٩٩٣ .

(٦) مصر فى كتابات الرحالة الفرنسيين فى القرن التاسع عشر ، سلسلة مصر النهضة ١٩٩٤ .

(٧) بحوث ودراسات وثائقية فى تاريخ أفريقيا الحديث ، القاهرة ١٩٩٩ .

(٨) مصر فى كتابات الرحالة البريطانيين فى القرن التاسع عشر . القاهرة ٢٠٠٣ .

ثانياً : الأبحاث :

(١) التوسع الفرنسى فى أفريقيا الاستوائية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، المجلة التاريخية المصرية ١٩٨٧م .

(٢) مديرية دنقلة فى ظل الحكم المصرى ـ مجلة المؤرخ المصرى ١٩٨٨ .

(٣) فرنسا والهند الصينية ـ مجلة كلية الدراسات الإنسانية ١٩٨٩ .

(٤) مسلمو الهند بين التنافس الفرنسى البريطانى فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ـ مجلة كلية الدراسات الإنسانية ١٩٩٠ .

(٥) مديريات غرب السودان بين الإدارة المصرية والأطماع الاستعمارية ١٨٢١ ـ ١٩٠٦ ، مجلة كلية الدراسات الإنسانية ١٩٩٢ .

(٦) التوسع الروسى فى خانات آسيا الوسطى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ـ المؤتمر الدولى « المسلمون فى آسيا الوسطى والوقاز » مركز صالح كامل ١٩٩٢ .

(٧) الدور الاستعمارى للمنصرين البريطانيين فى إقليم الزمبيزى ـ اللمبوبو فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . دار الكتاب الجامعى ١٩٩٤ .

(٨) العلاقات الفرنسية الأثيوبية ١٨٤٣ ـ ١٩٣٦ ، دار الكتاب الجامعى ١٩٩٤ .

(٩) كتابات الكونت جوبينو وأثرها على سياسة الفرنسة بحث ألقى فى المؤتمر الدولى الذى نظمته كلية الدراسات الإنسانية بالتعاون مع رابطة العالم الإسلامى ١٩٩٧ . « الدراسات الإسلامية عند غير العرب » .

(١٠) دور فرنسا الاستعمارية تجاه الثقافة العربية والإسلامية فى أفريقيا ـ ندوة بجامعة القاهرة ، معهد البحوث والدراسات الأفريقية ١٩٩٨ ، « وعنوانها العلاقات الثقافية العربية الإفريقية » .

(١١) التراجمة الفرنسيون ومبعوثو الأكاديميات فى اسكالات مصر فى القرن الثامن عشر ، بحث ألقى فى المؤتمر الدولى بكلية الدراسات الإنسانية وموضوعه «الترجمة ودورها فى التفاعل بين الحضارات» ١٩٩٨ .

(١٢) مقالة عن « السيد أحمد الشريف بن محمد بن على السنوسى » موسوعة الحضارة الإسلامية الأردنية ١٩٩٩ .

(١٣) بلاد الشام فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين فى القرن الثامن عشر دار الكتاب الجامعى ، سنة ٢٠٠٠ .

(١٤) مصر والحفاظ على الهوية الإسلامية فى غرب أفريقيا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، ندوة مصر ومسيرة الإسلام فى أفريقيا فى ١٤٠٠م ، جامعة القاهرة ـ معهد البحوث والدراسات الأفريقية ١ ـ ٢ أبريل ٢٠٠٠ .

(١٥) مصر والحفاظ على الهوية الإسلامية فى أفريقيا من منتصف القرن التاسع عشر وحتى إنتهاء الحرب العالمية الأولى ، قدم المؤتمر جامعة الأزهر بمناسبة مرور ١٤٠٠ عاماً على دخول الإسلام مصر ، سبتمبر ٢٠٠٠ .

(١٦) التعريف بالصورة المشرقة للمرأة المصرية عبر شبكة المعلومات (الإنترنت) فى عصر العوامة ، قدم المؤتمر الدولى للدراسات الإنسانية والإرتقاء الحضارى فى عصر العولمة ، نظمته كلية الدراسات الإنسانية ١٣ ـ ١٥ نوفمبر ٢٠٠٠ .

(١٧) المرأة المصرية فى كتابات الرحالة الأوروبيون فى القرن التاسع عشر ، مجلة الدراسات الإنسانية ، جامعة الأزهر ٢٠٠١ .

(١٨) جهاد الشيخ ماء العينين وأبنائه ضد الغزو الفرنسى لموريتانيا والمغرب ١٩٠٥ ـ ١٩١٨ بحث قدم ندوة زعماء أفريقيا فى القرن العشرين ، الثلاثاء والأربعاء ٢٩ ـ ٣٠ مايو ٢٠٠١ ، جامعة القاهرة ، معهد البحوث والدراسات الأفريقية .

(١٩) الأحباش فى مصر فى القرن التاسع عشر ، مجلة كلية الدراسات الإنسانية ، جامعة الأزهر ٢٠٠٣ .

الفهارس



شكل (١).
إمرأة من مناطق الصعيد الجنوبية
لين : المصريون المحدثون



شكل (٢)
لباس النساء عند خروجهن
لين : المصريون المحدثون



شكل (٣)
سيدة تتزين بالقرص والصفا
لين : المصريون المحدثون



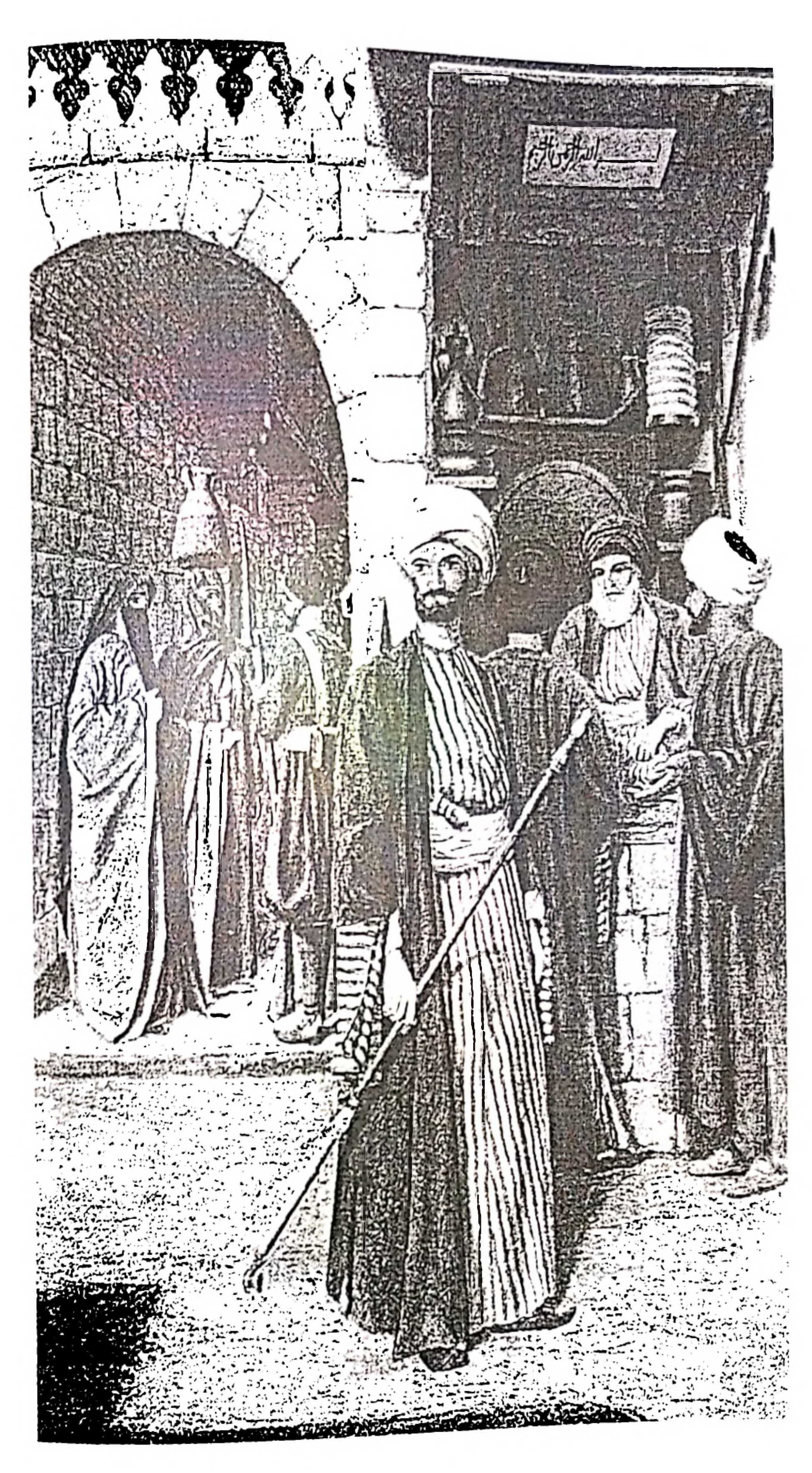
شكل (٤)
نساء في الأسواق
Lane: Description of Egypt



شكل (٥)

الغـــوازى

لين : المصـريون المحدثون



شكل (٦)

أزياء الرجال

Lane: Description of Egypt



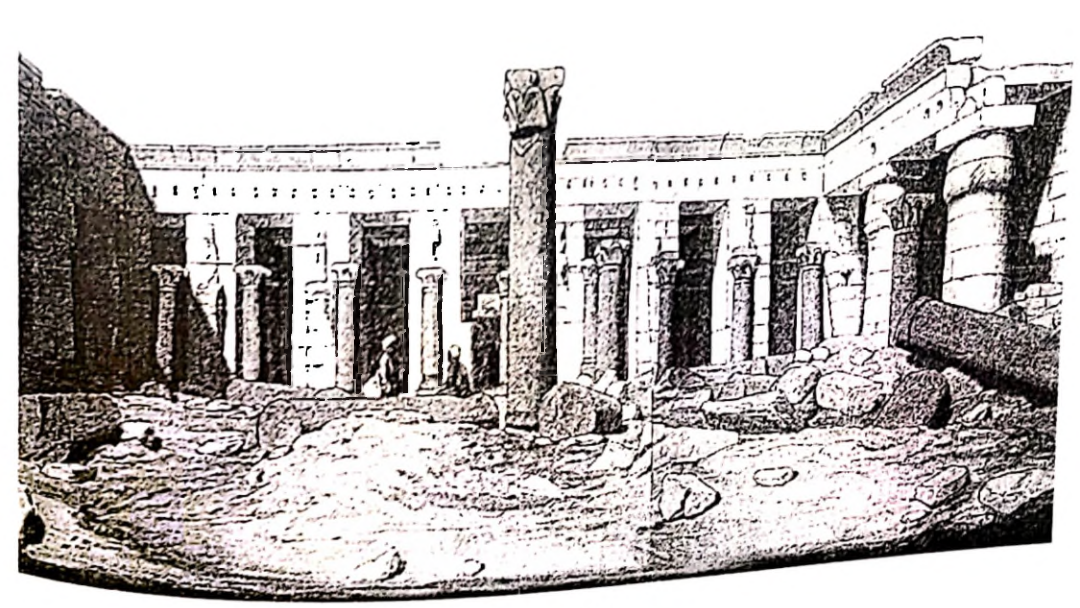
شكل (٧)
وادى حلفـا
Lane: Description of Egypt



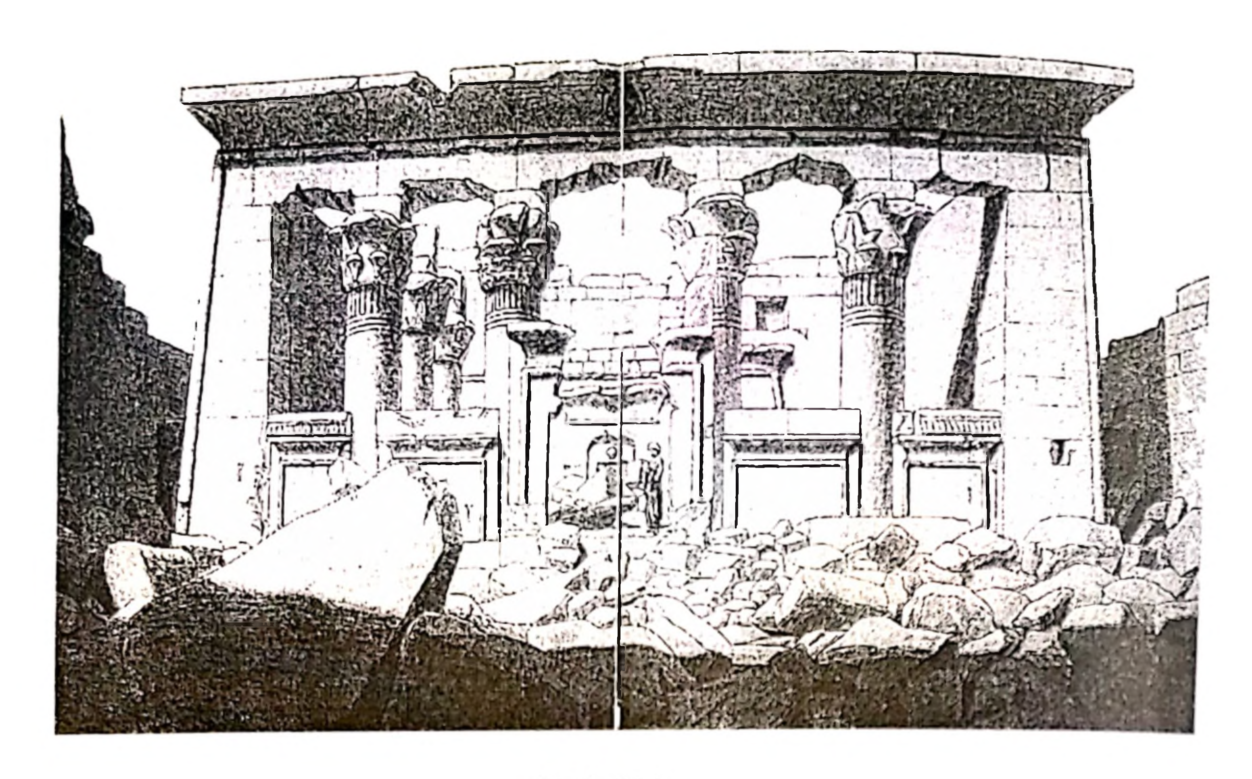
شكل (٨)
منظر لشوارع القاهرة - المقهى - السقا
Lane: Description of Egypt



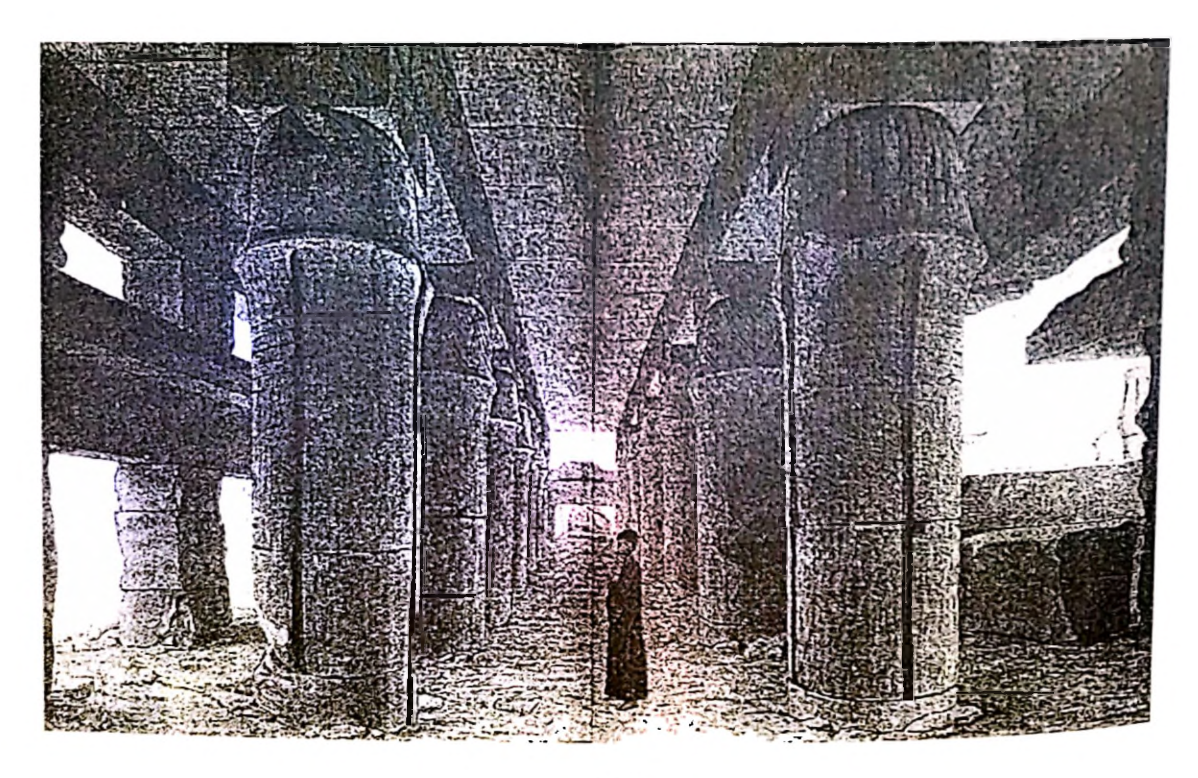
شكل (٩)
رأس تمثال أمام معبد أبى سمبل
Lane: Description of Egypt



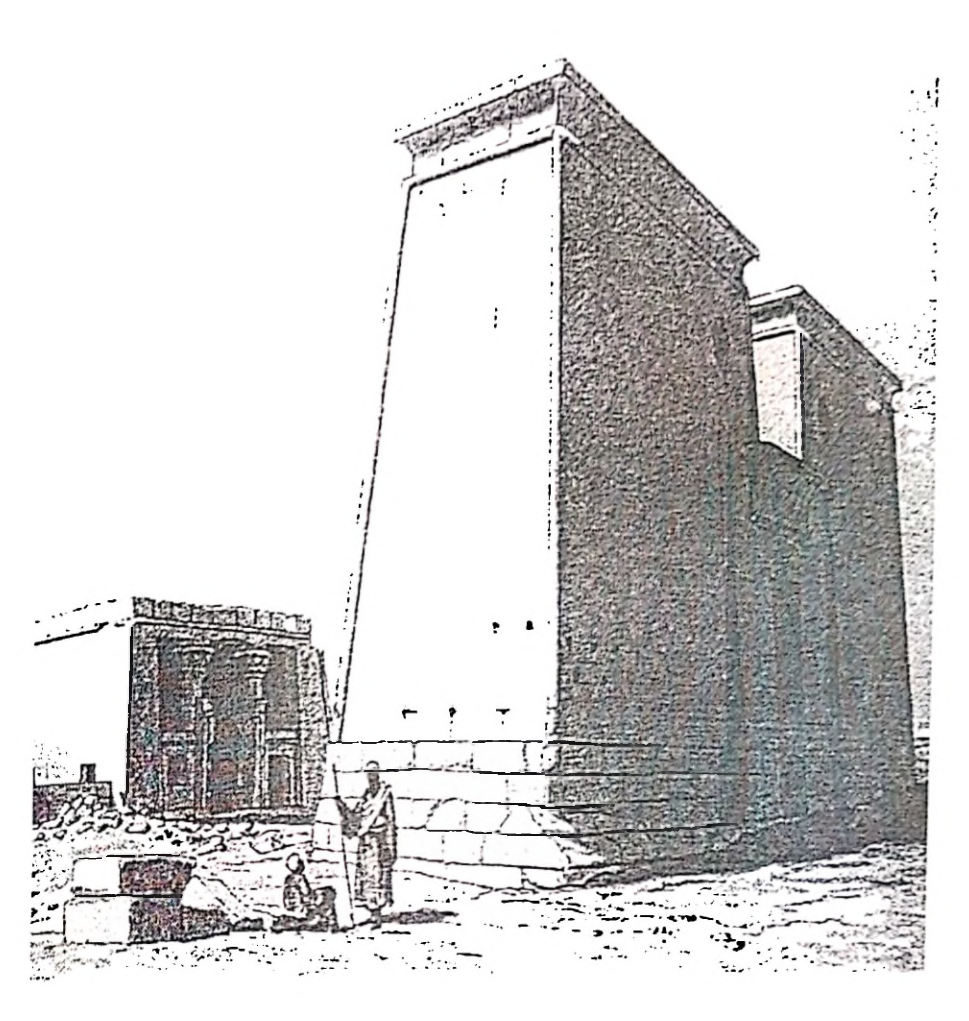
شكل (١٠)
معبد مدينة هابو
Lane: Description of Egypt



شكل (١١)
معبد كلابشـة
Lane: Description of Egypt

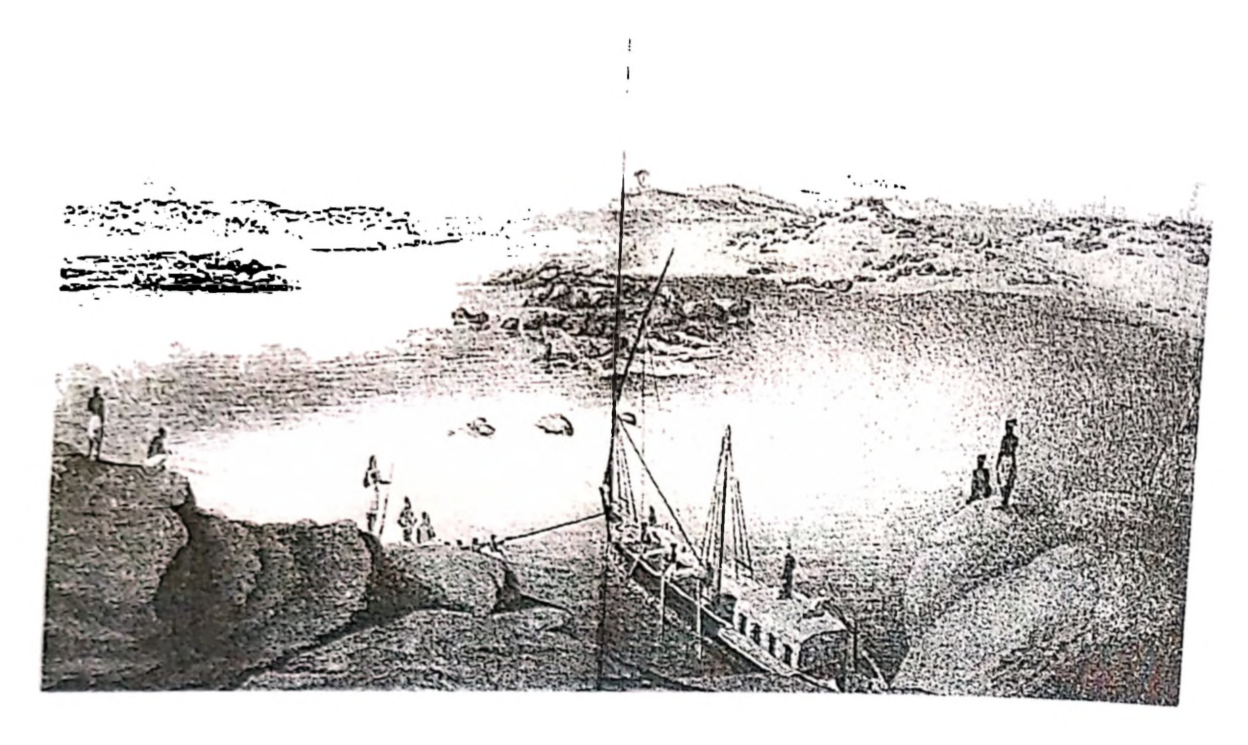


شكل (١٢)
معبد الكرنك
Lane: Description of Egypt

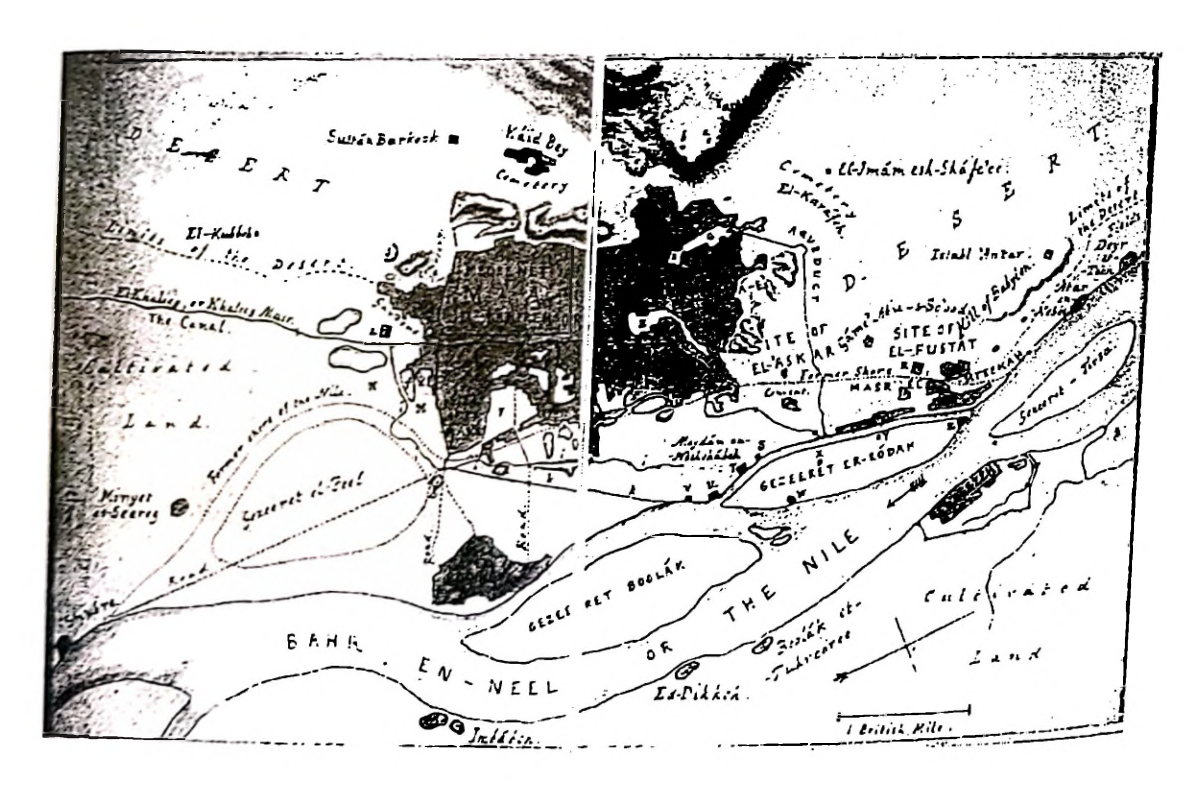




شكل (١٣)
معبدى دكا ووادى السبوع في النوبة
Lane: Description of Egypt



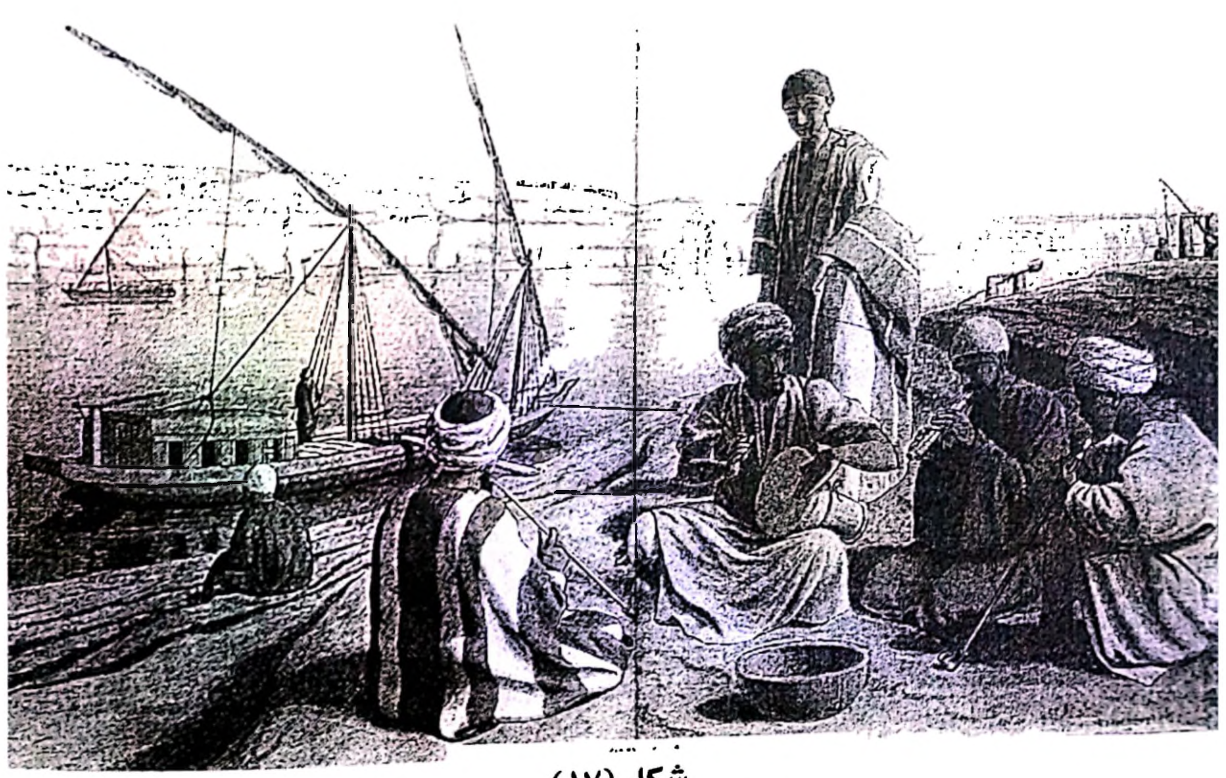
شكل (١٤)
الشـــلال الأول
Lane: Description of Egypt



شكل (١٥)
خريطة للقاهرة وضواحيها
Lane: Description of Egypt



شكل (١٦)
خريطة لمصر السفلى
Lane: Description of Egypt



شكل (١٧)
الملاحون ولين عند جبل الطير
Lane: Description of Egypt

صر فى كتابات الرحالة البريطانيين فى القرن التاسع عشر

أ.د / إلهام محمد على ذهنى

مكتبة زهراء الش